الحاسة صفر

الحاسة صفر

رواية

أحمد أبو سليم

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

الطبعة الأولى

1435 هـ - 2014 م

ردمك 978-614-02-1004-2

جميع الحقوق محفوظة

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

هاتف الرياض: 966509337722+

هاتف بيروت: 9613223227+

editions. difaf@gmail. com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الناشر**

الإهداء

إلى كلِّ

من سيجازف بقراءة هذا النصِّ

المجنون جدّاً، الواقعيِّ جدّاً،

وكَأنَّه لعبة كلمات متقاطعة

(1)

هي الَّتي ابتدأت، فأورثتني ثورة البحث والهذيان، أَبدأُ من حيث انتهت، وأَنتهي حيث ابتدأت: دوَّامة للشكِّ، دائرة للغثيان.

مَنْ يريد أن يعودَ إلى مَنْ، وكلَّما مشيتُ خلفها وخلف عيسى قاداني من فراغ إلى فراغ؟

أُريد من الحياة ما أُريد أنا لا ما تريد هي، وأُريد من الموت ما أُريد أَنا لا ما يريد عيسى.

كلَّما أطبقتُ عليه كفَّاً وجدتُهُ يتسرَّبُ من بين أصابعي كالماء، وكأنَّه خواءٌ، كأنَّه كذبةٌ أبديَّة صدَّقتُها وتهت فيها، وكلَّما أوغلتُ في متاهاتها أكثر لم أجد فيها إلاّ طريقاً يقود إلى طريق.

عيسى مات!

هي التي ابتدأت، فأورثتني ثورة الشَكِّ والهذيان.

أما كان يمكن للقلب يوماً أن يستقرَّ؟ أما كان يمكن له أن يعود ويرمي بقميصه المسكون برائحته على وجهها ليرتدَّ إليها البصر الذي فقدته وهي تبكيه؟ أما كان للفضيحة أن تظلَّ طيَّ الكتمان؟ أما كان لنا أن نطوي حياتنا كالآخرين بصمت، ونموت دون أن نمتصَّ الخديعة حتَّى آخر قطرة فيها؟

كلُّ شيء تلوَّث بدم ك... ذ... ب، واغتسل بدمع ك.... ذ... ب.

منذ عام الموت ما انفكَّت تبكيه، دارت من باب إلى باب، من شارع إلى شارع، من بلد إلى بلد، كانت تبكيه حين تنام، وحين تصحو، وحين تجوع، وحين تأكل، وحين تصلِّي، وحين تقوم اللَّيل بطوله باحثةً عنه بين يدَيِ الله، وكفَّاها مرفوعتان إلى السَّماء، كانت تبكي لأنَّها لم تجد سبيلاً إليه سوى البكاء، انتظرت عاماً بطوله بعد أن خرجت الثَّورةُ من عمَّان إلى لبنان، وغابَ الَّذي غاب، وعادَ الَّذي عاد، قالت: سيعودُ مع الَّذين يعودون، لكنَّه لم يعد... قالت: سيرسل رسالةً مثل الآخرين، لكنَّه لم يرسل خبراً واحداً يطفئُ نار قلبها الَّتي كانت تزداد لهيباً كلَّما عاد رجلٌ من بيروت، كانت كلَّما قُرِعَ البابُ تقفز من مكانها وتركض صارخةً: هذا عيسى.... ثم تعود ووجهها يفضح خيبتها.

في كلِّ زاوية كان، في كلِّ ركنٍ، وعلى كلِّ جدار، ورائحته تملأُ البيت، وأشياؤه ظلَّت مبعثرةً كما كانت يوم غاب، وثيابه معلَّقةٌ على الجدران، واسمه يتردَّد طوال النَّهار وكأنَّه كان وحده هناك وكنَّا نحن الغائبين، نسيت نفسها ونسيتنا، ولم تكن تتذكَّرُ غير عيسى، كُنَّا صغاراً آنذاك، لا نعي ما يدور حولنا، وكانت هي تحترف الكتمان، كان عيسى أَكبرنا، ثمَّة من قال إنَّه سيعود، وثمَّة من قال إنَّه لن يعود، لكنَّها لم تكف يوما عن رواية حلمها الطَّويل في كلِّ المناسبات: كفُّه المعلَّقة بكفِّها وهو مدلًّى في الهواء، وعيناه مليئتان بالتوسُّل والدُّموع.

مَنْ كان يتشبَّث بكفِّ مَنْ؟

هل كانت هي الَّتي تمسك بكفِّه أم كان هو الَّذي يتشبَّث بكفِّها كي لا يسقطَ ويموت؟

لم تترك شيخاً أو عرَّافاً أو دجَّالاً إلا وذهبت إليه، بحثت عنه في الأردنِّ، وسوريا، ومصر، ولبنان، والعراق، وفلسطين، زارت كلَّ المعتقلات والسُّجون، وكلَّ المنظَّمات الإنسانيَّة، وكلَّ مكاتب منظَّمة التَّحرير، كانت

تغيب طويلا ثمَّ تعودُ مكسورةً كأنَّها شاخت ألف عام، ما كان يثير فينا القلق والحيرة والسُّؤال.

كأنَّ عيسى هو الأوَّل والأخير، صرنا نعرف عنه أكثر ممَّا نعرف عن أنفسنا، كانت مخلصة لغيابه أكثر من إخلاصها لحضور الجميع.

أبي جاء بنا فارَّاً من الخليل إلى عمَّان يوم سقطت المدينة في يد "إسرائيل"، كان يخبِّئُ ما لم نكن ندركه آنذاك، قال إنَّه فرَّ مع الآخرين من سطوة الموت، وسطوة "جيش الدِّفاع" وسطوة لسان أمِّهِ الَّتي كانت تكره أمِّي ولا تترك مناسبة إلاّ وتعلنُ فيها عن عداوتها لها دون أن يعرفَ أحدٌ السَّبب.

اشترى لها بيتاً وسط عمَّان لكنَّها رفضت أن تسكنَ فيه، كانت تريد أن تندسَّ بين النَّاس وتختفي، وكأنَّ يداً ما تطاردُها، وتبحثُ عنها، بحثت عن بيتٍ متهالكٍ في الوحدات، وسكنت فيه، وكانت كلَّما سُئلت عن أصلها أجابت أنَّها من رام الله، ولم تُضِفْ شيئاً آخر.

لم أكن قد تجاوزت عامي السَّادس حين مات أبي، وتركها مع حملها الثَّقيل، وسرِّها الَّذي حملته على كتفيها كلَّ تلك السِّنين، وماتت دون أن تبوح به لأحد.

أيُّ لعنة كانت تطاردها؟

ثمَّة ما دار بينهما في الخفاء، ثمَّة ما كانا يعرفانه ولا نعرفه نحنُ الصِّغار، انفجر يومئذ في وجهها كالمجنون، بكى، وحطَّم كلَّ ما وقعت عليه يداه، طردتنا هي إلى الشَّارع، وحين عُدنا كان ذابلاً، شاحباً، مهدَّماً، وفي الصَّباح الباكر مات.

عند الظُّهر جاء عيسى، كان يومئذ لا يزالُ في قواعد الأغوار، سارت الجنازة ببطء، وكان جسده أَوَّلَ جسدٍ أراه يوارى التُّراب، قبل أن تنفجر عمَّان.

عبثاً حاولت أن أعرف بعدها ما جرى يومئذ بالضَّبط، كنت أسألها فلا تجيب، كانت تكتفي بهزِّ رأسها بأسى، وتبكي حتَّى أتمنَّى لو أنَّني لم أسألها قط.

كانت تحترفُ البحث والصَّمت والانتظار.

أصابتها الحُمَّى وراحت تهذي بعد أن نبشت قبور الشُّهداء في جرش بالسرِّ، وعلى عكس ما توقَّعَتْ من أنَّها ستجدُ الجثث ما زالت غارقةً بدمائها، وَجَدَتْ أكواماً من العظام في قبورٍ لم تتَّسِعْ لساكنيها....

الدُّود كان قد التهم لحمَ الجميع، ولم يبق إلا بقايا الملابس، وقطع السِّلاح الَّتي أكلها الصَّدأ، وأحذية الكتَّان الخضراء، والعظام.

لم تستطع أن تتخيَّلَ هولَ المشهد المجنون، ركضنا بها إلى المشفى، ثم درنا بها بين طبيب وآخر، وأخيراً عدنا بها عمياءَ على كرسيٍّ متحرِّك.

ما عاد بوسعها أن تُسافرَ إلى أيِّ مكان!

أسدلنا السِّتار على عيسى، وظننَّا أنَّه غاب إلى الأبد، وكان عليَّ أنا الَّذي أنهيت دراستي الثانويَّة عامذاك أن ألتحقَ بجامعة اليرموك، لولا ظهور رجلٍ مصادفة أكَّد جازما أنَّ عيسى خرج معه من جرش إلى دمشق، ومن دمشقَ إلى بيروت، وأنَّهما خدما معاً في صفوف الثَّورة في الجنوب، ثمَّ اختفى عيسى فجأةً بلا أثر، ولم يعد الرَّجل يعرف شيئاً عنه بعد ذلك، حزمتُ أمتعتي تاركاً شقيقي سامي الَّذي يصغرني بعام، وشقيقتي الصَّغيرةَ خلود وحدهما مع أُمِّي، وركبت الحافلة في اليوم التَّالي إلى دمشق، قاصداً بيروت الَّتي كانت تئنُّ تحت الحصارِ في ذلك الصَّيف المشتعل الطَّويل.

* * *

كان عيسى قد التحق بالثَّورة منذ انطلاقها، غادر البيت ذات مرَّة ولم يعد إلاّ بعد شهور طويلة، ثمَّ عاد ليغادر من جديد، كانت أُمِّي كثيراً ما تذهب لزيارته في الأَغوار، كان يأتي يوماً أو يومين ثمَّ يعود ليغيب شهوراً من جديد.

كنت كثيراً ما أَسأل نفسي وأَنا أَدور بين المدن باحثاً عنه: هل سأعرفه حين أراه؟ هل تغيَّرت ملامحه المرسومة في رأسي؟ هل يشبه تلك الملامح أَكثر أَم يشبه الصُّورة الَّتي كنت أحتفظ بها في جيبي؟ لست أَدري كيف تداخلت ملامحه، وتغيَّرت، وانمحت، فلم أَعد أجد قواسم مشتركة كثيرة بين صورته في رأسي، وصورته المرسومة باللَّونين الأبيض والأَسود، الَّتي احتفظت بها في جيبي لسنوات طويلة.

كان في الصُّورة يبدو وسيماً، صغير السنِّ، يلبس طاقيَّة الفدائيِّين الخضراء، ويبتسم، وعيناه تضجَّان بالحياة.

* * *

التحقت بجامعة دمشق، بكليَّة التَّاريخ.

لست أَدري ما الَّذي جمعني بالتَّاريخ على الرُّغم من اعتراض كلِّ من هم حولي، خُصوصاً أُمِّي الَّتي كانت تتمنَّى أَن أكون ذات يوم طبيباً...

ما عاد الآن بوسعها الاعتراض على شيء.

انقلب فجأة كلُّ شيء بعد أيَّام قليلة فقط من التحاقي بالجامعة، أَفقنا في الصَّباح الباكر على دويٍّ هائلٍ وكأَنَّ السَّماء سقطت من علوِّها الشَّاهق، أفقت على بكاء النِّسوة، وثياب الحداد، ورائحة الموت.

سقط صبرا، وسقط شاتيلا!

من أين أبدأُ؟ صرت أسأل، كنت أحلم، كنت أهوي.....

كم رصيفٍ يا دمشق سرقتِ منّي!

كم بلادٍ، كم عذابٍ، يا دمشق، وكم كتابٍ والهزيمة كيف صارت يا دمشق بعري عربي!

كلّما نكّست روحاً رحت أبحث خلف أسرار المجازِ عن المجاز، ولعبة العربيِّ، والكلمات في الزّمن الحزينْ.

أدمنتُ أوجاع الغناء، وكلّما شذّبت معنى للهزيمةِ رحتُ أسألُ: كيف نمشي في اليقينِ؟ وكيف تسرقنا السّنينُ؟ وكم علينا أن ندور على الهزيمة كي نُسمِّيها خروجاً أو هروباً من زنازين العواصمِ، من رغيف الخبزِ، من لحم الخسارة، واحتضار الياسمينْ؟

فتّشت في حزن الرِّجال العائدين من الهزيمةِ والفراغِ فلم أجد غير انكسارِ الضّوءِ في غبش الطُّفولة...

وحدها بيروتُ كانت تحتسي نخب الرُّجولة، والرِّجالُ السّاقطون من الهزيمة يملؤون اللّيل خمراً وانتحاباً وانتظاراً وارتحالاً في الجنونْ.

سقط الحصار وأشرعت بيروت في ليل الهزيمة وجهها، فتّشت عن آثار عيسى في الوجوه فلم أجدْ غيرَ انعكاس الظلِّ، لا معنى، ولا تاريخَ يسند جوعنا الأبديَّ للمعنى....

بقايا الموت في صبرا، وشاتيلا، مرايا حكمة العربيِّ.

صبرا.... العوااااااءْ..... صبرا البكاااااااءْ...... صبرا الّتي رفعت مناديلَ الوداع مخيّماً غابت وراء البحر.

لم يكن ثمّة متّسعٌ في رأسي لغيرِ الحَرب والبُكاء....

كنتُ أبحثُ في كلِّ الوجوه السّاقطة من بيروت عن وجه عيسى.... وعيسى لم يكن قد مرَّ منها، لا عاصمَ اليومَ من النّار، لا ظلَّ يحمي من

حريق الشَّمس، أريد أن أتقن الاحتماء من الصَّبر والخوف، أحسست بالعبث والجنون، تركتُ الجامعة وركبت الحافلة إلى درعا دون أيِّ شعور بالنَّدم، أو الذَّنب، كنت مكسوراً، حزيناً، مهزوماً، تركت العنان لدموعي في الحافلة وانهرت دفعة واحدة ما أثار دهشة النَّاس، وشهيَّة رجال الأمن الَّذين ظلُّوا يواسونني ويستجوبونني طوال الطَّريق.

كانت رائحة الجثث المتحلِّلَةِ في صبرا وشاتيلا تعمي العيون، وتزكم الأنوف وهي تطوف كلَّ أرجاء الأرض.

تنفَّست الصُّعداء حين ترجَّلت من الحافلة قبالة المعسكر، ثمَّ سرت صاعداً الدَّرب الترابيَّ الـمُقفر وأنا ألهثُ حتَّى وصلتُ الباب، اقتادني الحرَّاس إلى مبنى القيادة، سلَّمتُ الرِّسالة الَّتي أعطوها لي في مخيَّمِ اليرموك لأبي ناصر – قائد المعسكر– الَّذي قدَّمني بدوره إلى وحيد، بعد أن سقاني شاياً، ورحَّبَ بي، وتبادل معي بعض الحديث.

كان المعسكر أشبه بواحةٍ خضراءَ وسط صحراءَ جرداء، يمتدُّ على رُقعة واسعة من الأرض المحاطة بسياجٍ من الأشجار يليه سياج معدنيٌّ مرتفع.

عند المدخل ثمَّة غرفة صغيرة إلى اليمين، هي غرفة الحارس الَّتي يستطيع من خلال نافذتها أن يكشف الطَّريق التُّرابيَّ الممتدَّ حتَّى الإسفلت الَّذي يصل بين درعا ودمشق، وإلى اليسار غرفة واسعة، عرفت فيما بعد أنَّها غرفة قائد الحرس أبي ستَّة، وبعد بضع مئات من الأمتار مبنيان متقابلان: مبنى القيادة المؤلَّف من أربع غرف يقابله مبنى المطبخ، وصالة الطَّعام الَّتي تتَّسع لأكثر من ألف شخص، وحولهما تتناثر الخيام بطريقة بدت لي عشوائيَّة للوهلة الأولى، لكنَّني أدركت فيما بعد أنَّها مرتَّبة بعناية وذكاء.

قادني وحيد إلى مبنى قصيٍّ عند أطراف المعسكر يُطلُّ على ميدان الرِّماية، وسلَّمني عَتادي: بدلة الكاكي.... وحذاء الكتَّان الأخضر ذا العنق الطَّويل.... وبندقيَّة الكلاشنكوف وجعبة، وثلاثين رصاصة.

كم حلمت بالحذاء الأخضر!

ظللت طوال عمري أشعر بالرَّهبة حين أرى صورة الفدائيِّ بالكاكي، وحذاء الكتَّان الأخضر ذي العنق الطَّويل.

رحلت بعيداً وأنا أمرِّر كفِّي على التَّفاصيل الدَّقيقة التي لم أكن أعرف عنها الكثير آنذاك.... تفاصيل الحديد...

* * *

لا دخانَ لاحتراق الماء، لا رماد يخلِّفه الزَّمن، والحقيقةُ هي أن تتقنَ الموتَ بالفطرة مثلما تتقن الحياة، وأن تتجاوز الخطَّ الفاصل بين الجسد والضَّوء.

عطشى والبحر ينهض من جحيم التِّيه جسراً في الضَّباب.

- "أضواء حيفا.... ربَّما..." قال الدَّليل.... "وربَّما أضواء صور...."

تحسَّستُ الفوَّهة الباردة في الظَّلام وشددت البندقيَّة إلى صدري فأحسست بدفءٍ غريب، وتساءلت: ماذا لو عادت الزَّوارق الآن؟....

تذكَّرتُ ليلى التي تركتها ورائي للموت، وسامياً، وخلود، وأُمِّي، وحليماً، وعيسى، تذكَّرت نضالاً، وميشيل، والجميع، والزَّورق الَّذي انفجر بالأمس فوق الماء وتشظَّى، والرِّفاق الَّذين تطايروا في الهواء.

دوَّامة القلق، والدَّليل الضَّائع يدور في ذات المكان، والبوصلة معطَّلة، وليس ثمَّة إلا القلب بوصلة ودليلاً.

* * *

أمسك وحيد بكفِّي اليسرى الَّتي تسند البندقيَّة من الأمام، كان يقف خلفي تماما وأنفاسه تلفح عنقي، فتزيدني لهيباً فوق اللَّهيب، همس في أذني:

- شهيق سريع، احبس أنفاسك لثانية واحدة فقط، واضغط الزِّناد.

سدَّدت وأخطأت....

- إن حبست أنفاسك طويلاً ضاع الهدف منك.

سدَّدت وأخطأت....

أمسك وحيد بكعب البندقيَّةِ وشدَّه إلى عُمقِ التَّجويف الفاصلِ بين الكتف والصَّدر...

- لا بدَّ أن يستقرَّ الكعبُ هنا... حتى يمتصَّ التَّجويفُ ردَّةَ فعلِ البندقيَّة...

سدَّدت وأخطأت...

- هل لديك مشكلة في النَّظر؟

رحلت بنظري إلى ما هو أبعد من الأفق الَّذي يتَّكئُ على حافَّةِ البَحر، إلى السَّماءِ البَعيدة والنَّوارس الَّتي تزيِّن حافَّة الماء.

- أتخافُ الموت؟

سألني ونحن مستلقيان بعد ظهر يوم شاقٍّ طويلٍ على سريرين متقابلين في الخيمة.

- بقدر ما أخاف الحياة.

ابتسم...

- لا بدَّ أنَّك تعلَّمت فلسفة الخائبين.

- بل هزيمة الشُّعراء.

- لم تقل إنَّك تكتب الشِّعر.

- مجرَّد محاولات بائسة لا تستحق الحديث.

* * *

أرخيت كفِّي فوقَ الماء، شعرت ببرودته تخترق أطراف أصابعي، حدَّقت إلى جُثَّة سارة الملقاة على أرض الزَّورق، الملفوفة ببطانيَّة الصُّوف، مضى اليومُ الأوَّلُ وليس ثمَّة إلاّ الماء.

مسحتُ الدُّموعَ الَّتي سالت على خديَّ رغماً عنِّي، الشَّمسُ بدأت تستسلم لكآبة الغروب، رفعت رأسي إلى الدَّليل متسائلاً:

- كم تحتاج الجُثَّة من الوقت لكي تتفسَّخ؟

وكأنَّني ألقيت بالسُّؤال الَّذي ظلَّ طوال النَّهار يدور في رؤوس الجميع.

تواطأت النَّظراتُ بصمت مكبوت، ثمَّ ألقينا بالجثَّة إلى البحر، واحتفظنا بالبطانيَّة الَّتي كانت غارقة بالدِّماء....

ماذا سيفعلُ مالك الحزين حين يعلم أنَّ جثَّة زوجته ألقيت في الماء طعاما للسَّمك ودود البحر؟

كانت سمراءَ أقرب إلى الرِّجال منها إلى النِّساء.... لكنَّها كانت الأنثى الوحيدة وسط حشد الرِّجال المنعزلين عن العالم على خطوط التَّماس.

اختارت مالكاً من بين الجميع، ولو قدِّر لهُ أن يختارَ في ظروف أخرى لما اختارها أبداً.

تزوَّجا بهدوء، وبقيا طوال عامٍ متَّفقينِ على ألاّ يُنجبا أطفالاً، وحين قرَّرا ذلك أخيراً، اكتشفا أنَّهما غيرُ قادرين على الإنجاب، فاستسلما للقدر، وتركا دفَّة السَّفينة للرِّياح توجِّهها كيفما تشاء....

عشر دقائق أخرى قبيل الموت....

كنت أعتقد أنَّ فلسطين ستبتلعني مثلما ابتلعت ملايين الرِّجال قبلي، وأنَّني لن أعود من رحلتي تلك أبداً، ولن تلتقي عيناي بعينيْ مالك كي تخبراه بذلٍّ وانكسارٍ عمَّا جرى لسارة في البحر، شددت على ماسورة البندقيَّةِ وفكَّرت:

"منذ أن خلق الله الأرض وما عليها وهذه الأرض لا تشبع دماً".

هبط الظَّلام وأشعلت المدينة المجهولة أنوارها في البعيد.

"الموت أكثر رحمة من الأسر...." فكَّرت: "الموت يعني أن تغمض عينيك لحظة، وتموت، أمّا الأسرُ فهو أن تبعث من الموت كلَّ لحظة لكي تموت....".

تحسَّست السِّلسلة الذهبيَّة في عنقي وخريطة فلسطين وتذكَّرت حليماً، لا أدري لماذا كنت أشعر بالأمان كلَّما أمسكت بها بين كفيَّ، وكلَّما تذكَّرت حليماً.

كان لا بدَّ من محاولة استعادة اللفافات بأيِّ ثمن مهما كان باهظاً، وتمنَّيت في سرِّي لو كان حليم يومئذ معنا، كنت أدرك تماماً كم كان يمكن أن يكون مهمّاً في مثل هذا الوقت بالذَّات، على الأقلِّ بالنسبة لي.

* * *

رفعت رأسي إلى وحيد وأنا أشعر بالذلِّ والأسى:

- أخطأت؟

هزَّ وحيد رأسه وابتسم....

كان طويلَ القامةِ مثلي أو أطول منِّي بقليل، وأوَّل ما يلفت الانتباه فيه هدوؤه وصفاء عينيه، شعره ناعم قصير قد وَخَطَه شيب خفيف، وجهه حنطيٌّ، وأَنفه مدبَّبٌ صغير، وأَسنانه بيضاء متراصَّة، يمشي بهدوءٍ كأنَّه يتهادى فوق الماء، يُخرج بين الحين والآخر من جيبه قلماً ودفتراً صغيراً يدوِّن فيه بعض الكلمات القليلة ثمَّ يعيده إلى جيبه دون أَن يعرف أَحد ماذا كان يكتب بالضَّبط.

عشرة أعوام ظلَّ خلالها يخرِّجُ أفواج المقاتلين بلا توقُّف، زرع رجالاً في كلِّ أنحاء الأرض، وحصد شهداءَ أكثر مما ينبغي لرجلٍ مثله بالكاد تجاوز الثَّلاثين.

منذ أسابيع قليلة لم يكن المقاتل يحظى بأكثر من ثلاثة أيَّام للتَّدريب:

يوم لفكِّ البندقيَّة وتركيبها....

ويوم للرِّماية...

ويوم لمهارة الميدان....

وفي اليوم الرَّابع كانت الحافلات تقلُّ المقاتلين إلى لبنان.....

الوقت كان أضيق من التَّدريب، والمتطوِّعون جاؤوا بالآلاف من كلِّ أنحاء الأرض، وبيروت كانت تنزف دماً.... ومقاتلين....

لم أكن قد أصبتُ الهدفَ بغير ثلاث رصاصات من ثلاثين. انسحبت إلى خيمتي وأنا أشعر بالذلِّ والانكسارِ، وبكيت بالسرِّ وأنا أفكِّر بعيسى...

في أَعماقي، ربَّما كنت أَشعر بالغيرة منه، لكنِّي كنت أَطرد تلك الأَفكار من رأسي لأَنَّ حبِّي له كان يطغى عليها، كنت أُحاول أَن أُقلِّده في كلِّ شيء، كيف يأكل، وكيف يمشي، وكيف يجلس، وكيف ينام، كيف إذن يمكن أَن أُخطئ التَّصويب؟ هل يمكن أن أُصبح موجِّهاً سياسيَّاً في القواعد العسكريَّة لأَنَّني لم أحسن التَّصويب ذات لحظة؟ ما الَّذي يمنعني من دقَّة التَّصويب؟ شعرت بالرُّعب وأنا أَتخيَّل أَنَّهم لن يقبلوا بي كمقاتل، لكنِّي بعد ذلك بزمن طويل، حين قرأتُ ما كتب وحيد في دفتره الصَّغير، أدركتُ أنَّه قد بدَّل الحقيقة ليلتها في تقريره اليوميِّ الذي كان عليه أن يرفعه كلَّ صباحٍ لقيادة المعسكر، وكتب فيه أَنّني قد أَصبت الهدف بخمس وعشرين رصاصة دون أن يعرف لماذا سمح لنفسه بذلك،

كتب في دفتره: "الآن ربَّما أدركت أكثر من أيِّ وقت مضى أنَّ الحياة لا تسير على قدمين، وأنَّ الوقت كرويٌّ مثل الأرض، وأنَّ الماركسيَّة أخطأت في تفسير العلاقة بين الشَّكل والمضمون....".

ثمَّ كتب أسفل الصَّفحة بخطٍّ صغير:

"كيف يمكن لرجلٍ مثل سعيد الدُّوري أن يتعلَّق بالبندقيَّة مثلما يتعلَّق بفتاة عذراء!".

* * *

كان المعسكر عامذاك هادئاً بعد صيف الهزيمة القائظ الطَّويل.

الَّذين جاؤوا من كلِّ أصقاع الأرض ماتوا... أو عادوا إلى ديارهم.

وحدهم الَّذين كانوا يظنُّون أنَّ المعركة ما زالت في بدايتها ظلُّوا، وكنت أنا أحدهم، أحد الَّذين استيقظوا في زمن السُّبات، والدَّرس كان جاهزاً منذ اليوم الأوَّل:

يُمنعُ السُّؤال عن الاسم الحقيقيِّ، أو البلد، أو الأصل، أو الفصل، أو الكنية، أو التَّاريخ، إذ كلَّما ازدادت معلوماتك أصْبَحْتَ أكثر فائدة للعدوِّ.

لكنَّ اللَّهجة كانت تفضح الجميع....

لم يكن من الصَّعب أن أعرفَ أنَّ وحيداً مثلي من الأردنِّ، وأنَّ محمَّداً من جنين، وأبا رائد من سوريا، وأبا طارق من لبنان، وجورج من تونس، وسيِّداً من مصر.

كنت مثل الآخرين قادراً على أن أعرف بلد كلِّ مقاتل في المعسكر من لهجته.

الَّذين كانوا سيعودون إلى فلسطين كانوا أكثر حذراً، وكان يُضربُ حولهم طوقٌ أمنيٌّ أكبر، وتدريبهم يغلب عليه طابع تصنيع المتفجِّرات من كلِّ ما هو ممكن ومتاح، وخيامهم مفتوحة نحو الغرب، والآخرون كانوا في خيام منفصلة غارقين في التَّفاصيل:

أنواع البنادق والقنابل والمدافع والدبَّابات والطَّائرات والمسدَّسات والذَّخائر، عدا التَّدريب الشَّاق اليوميِّ على اجتياز الموانع والسَّواتر والأسلاك الشَّائكة وبناء المتاريس والتَّخفي في أيِّ وسط محيط.

كنت أشعر بالمتعة كلَّما تعذَّبت أكثر لأنَّني كنت أحسُّ بأنَّني أسير على خطى عيسى، وفي نهاية كلِّ أسبوع كنت أرتدي ملابسي وأغادر المعسكر، مرَّة إلى دمشق، ومرَّة إلى حمص، ومرَّة إلى حماة، كنت أبحث عنه في كلِّ مكان، وكلَّما أعود مكسوراً يستقبلني وحيد مواسياً، ويحاول أن ينسيني ألمي بالتَّدريب الشَّاق الطَّويل، صار يتركني في الظِلِّ لساعاتٍ محاولاً أن يعلِّمني كيف أتنفَّس، وكيف أسيطر على أطرافي، بعدما أدرك أنَّ القلق الهائل الَّذي أحمله في أعماقي هو الَّذي يمنعني من دقَّة التَّصويب، كان القلق واضحاً في كلِّ حركة أقوم بها، في حركة كفيَّ، وحركة رأسي الَّذي ينتفض فجأة لا إراديَّاً، وقدميَّ اللَّتين لا تكفَّان أبداً عن الاهتزاز ما دمت جالساً على المقعد أو السَّرير.

ربَّما ليس بوسع أحدٍ منَّا أَن يُفسِّر نفسه أو يراها بوضوح وهو يعيش في أَتون النَّار، لكنَّنا بعد زمن طويل، حين يلفظنا الزَّمن من أحشائه، ونجلس على مقاعد المتفرِّجين على ذواتنا، نصبح أكثر قدرة على الرُّؤية.

وحيد حاول أن يسبر أعماقي، وفي اللَّيالي الطَّويلة التي كنَّا نقضيها معا بانتظار نوبات الحراسة، كان يستمع إلى قصصي وحكاياتي وأسراري الَّتي كنت أظنُّها أسراراً.

- لا بد لك من حاسَّة أخرى لكي تعرِّي الحقيقة، وتدرك ما لا يدركه الآخرون، ذلك هو سرُّ تفوق الَّذين ارتفعوا عن مستوى النَّاس، وأصبحوا عظماء...

سدَّدت فأصبت...

صار بوسعي بعد أشهرٍ من التَّدريب أن أَخرُجَ من نفسي لحظة انكماشي فوق البندقيَّة، والتباسي بالحديد، أمسى وحيد ملاذي في الشدَّة والرَّخاء، في الفرح والبكاء، انتقلت إلى ذات الخيمة التي كان يقيم فيها، وصرت ألازمه طوال الوقت، في اللَّيل والنَّهار، لكنَّني أدركت حين بدأت "إسرائيل" بالانسحاب التَدريجيِّ من لبنان تحت وطأة ضربات المقاومة التي لم تتوقَّف ذلك العام أنَّ ساعة الفراق قد حانت، وأنَّ عليَّ أن أُكملَ طريقي الطَّويل من دمشق إلى بيروت.

* * *

حزمت أمتعتي مع أكثر من عشرة رفاق آخرين، ودَّعنا جميع من في المعسكر، ثمَّ انطلقت بنا الحافلة إلى المصنع- نقطة الحدود الفاصلة بين سوريا ولبنان-.

كانت الوجوه سمراء من أثر الشَّمس، مبلَّلة بالعرق، مجبولة بالتُّراب، والأجساد كسدرة المنتهى، والعيون حجارة رضف في طابون عتيق.

الاسم حركيٌّ، واسم الأمِّ حركيٌّ، واسم الأب حركيٌّ، واسم الجدِّ حركيٌّ، وما تبقَّى من الحقيقة هو أنت كما أنت، أو كما ستكون.

الرِّفاق يحاولون أن يطردوا الخوف بالضَّحك حيناً، وبالصَّمت حيناً آخر، جورج الذي لا يتقن العربيَّة تماماً كان يتفنَّنُ في شقلبة الأمثال الشعبيَّة وتقطيعها، وإعادة وصلها بلا رابط منطقيٍّ ما يثير ضحك الجميع.

جورج أكثر المتستِّرين على هويَّتهِ، الملتزم بحرفيَّة التَّعليمات، كان أكثرهم وضوحاً بلهجته التونسيَّةِ، ولغته الفرنسيَّة التي يزجُّ بها في كلِّ حديثٍ بالفطرة.

بدا فتى مرفَّهاً من نعومة صوتهِ، ونعومة جلدهِ، وبشرتهِ البيضاء، ومنطقهِ في الحَديث، ولست أدري لماذا كنت حين أَنظر إليه أَظنُّ أَنَّه يمتلك وجهاً بلاستيكيَّاً على الرُّغم من شاربيه العريضين اللَّذين يغطِّيان جزءاً كبيراً من شفته العُليا، حاولت ذات يوم متعمِّداً أَن أَلمس وجهه لأؤَكِّدَ لنفسي بأَنَّني مخطئ، وبلغت بي الجرأة أَن سألت وحيداً إن كان يشعر بذات الشُّعور، ولشدَّة دهشتي أجاب بالإيجاب، مؤكِّداً أَن بياض وجهه المائل إلى الصُّفرة يوحي بذلك.

افتُضحَ أمرُ جورج تماماً يوم التَّدريب الأوَّل على مهارات الميدان، حين كان علينا أن نطلي أجسادنا بالطِّين الآسن، يومئذ أصيب بتسمُّمٍ في الجلدِ، فانتفخ وجهه حتَّى خُيِّل لي بأَنَّه سينفجر، ونقلوه على إثر ذلك إلى المشفى حيث قضى فيه أياماً.

توقَّفت الحافلة في المصنع، لم تكن ثمَّة إلاّ نقطة حدود عسكريَّة واحدة يسيطر عليها الجيشُ السوريُّ، ثمَّ ينفتح بعدها لبنان.

دخلنا واحداً وراء الآخر إلى غرفة ضيِّقة حيث يجلس ضابط وراء طاولة معدنيَّة، كنَّا نلقي عليه التحيَّة فلا يجيب، يحدّق إلى الهُويَّات العسكريَّة ويسأل عن اسم الأمِّ، ثمَّ يُلقي بالهُويَّة على الطَّاولة بحركة آليَّة، وكأنَّه جزءٌ من ماكينة كبيرة تعمل تلقائيَّاً طوال اللَّيلِ والنَّهار.

أعاد الهُويَّات أخيراً وسمح لنا بالعبور...

ساد صمتٌ طويل والحافلةُ تقطعُ الطَّريق إلى جلالا.

في كلِّ مرَّة كنت أعود فيها إلى المعسكر خائباً كنت أتذكَّرُ خيباتِ أُمِّي، الآن انقطع الخيطُ الَّذي كان يربط بيننا، فلبنانُ مغلق على ذاته

كالبحر، لا هواتفَ ولا رسائلَ، ولا روابطَ إلاّ الجثث الَّتي كانت تشحن عبر البرِّ في ثلاَّجات الخضار لكلِّ مغامر كان يُصرُّ على الحصولِ على جثَّة أبٍ أو أخٍ أو صديق.

أحاول أن أطردَ الخوف بالذِّكريات فأفشل.

الانتظار أقسى مما ينتظر خلف الانتظار...

الحربُ بعد حدود المصنع يصبح لها مذاق آخر، ولا تعود مجرَّد شعارات وأغانٍ ومشاعرَ وشعرٍ وكلمات.

استرحنا ساعة في جلالا تناولنا خلالها طعام الغداء، ثمَّ صعدت بنا عربات اللاندروفر إلى الجبل: إلى شملان، وكيفون، وعيناب، وعيتات، حيث كانت المعارك على أشدِّها للسَّيطرة على الأرض.

لا وقتَ للوقت، وكلُّ شيء كان خارجاً عن إطار الزَّمن تماماً كالموت.

أحسستُ بأنَّني أحلم، لا الجسد جسدي، ولا الرُّوح روحي.

الآن حصحص الحقُّ، وبات الموت أقرب من رائحة الهواء المعجون بالكبريت والبارود.

كانت تلك هي المرَّة الأولى الَّتي أخوض فيها الحرب والخوف الحقيقيَّ، ارتجف قلبي، وارتعش جسدي، شعرت بالرُّعب، وبذلت مجهوداً هائلاً كي أسيطر على نفسي الَّتي أحسَستها تهرب منِّي، وتكاد تفضحني أمام الجميع.

ثمَّة خياران لا ثالث لهما: الموت أو الموت... ولم يكن ثمَّة اختيار، خاسرة حسابات الرِّبح والخسارة... إذ لا وقت للرِّبح، ولا وقت للخسارة.

وجدت نفسي فجأة إلى جانب نضال الَّذي كان يخوض الحرب منذ بدايتها، كانت الحرب قد وصلت حدَّ الالتحام بالأجساد والسَّكاكين.

ركضت معه من باب إلى باب، ومن متراس إلى متراس، أحسست بأنَّه ملاذ آمن حين رأيته يضحك، ويأكل، ويشرب، ويتبوَّل وسط الموت.

كنت أشعر بالضَّياع، وأتحسَّس أعضائي كلَّ لحظة محاولاً أن أؤكِّدَ لنفسي أنَّني أنا سعيد وليس ثمَّة من سرق جسدي وجاء به إلى هنا، انتهى الإحساس بالزَّمن ولم يعد ثمَّة إلا الفراغ، فررت من جسدي فصارت احتمالات الموت تشبه احتمالات الحياة، اعتدت أصوات القذائف والرَّصاص وجثث الموتى، كم كنت أحتاج من الوقت لكي أدرك أنَّني خرجت من تلك الحرب بكامل جسدي، بكامل سعيد، وبحواسِّه جميعا؟

من فاوض من؟... ومن حارَب من؟.... لم أكن أعرف شيئاً عن التَّفاصيل الكبيرة التي كانت أكبر من أن أراها، أو التَّفاصيل الصَّغيرة التي كانت أصغر من أن أراها، خيَّم الصَّمتُ أيَّاماً ثمَّ أُعلنَ وقفُ إطلاق النَّار، توقَّفنا في عيتات، في سفح الجبل، والعدوُّ كان متحصِّناً في مباني سوق الغرب المشرفة على عيتات، وكانت تفصل بيننا بضع عشرات من الأمتار فقط، انتشرت مواقعُ لجميع التَّنظيمات اليساريَّة اللُّبنانيَّة والفلسطينيَّة على طول المحور، توقَّفت الحرب، وابتدأ الاشتباك، وصرنا فجأة على خطوط التَّماس، نتبادل الرَّصاص في النَّهار والشَّتائِمَ في اللَّيل.

وجدت نفسي بعد انسحاب الكثير من المقاتلين إلى مواقع الإسناد مع خمسة رفاق في بيتٍ مهدَّمٍ مهجورٍ شكَّلت دبَّابة (م 48) معطوبة أمامه ساتراً طبيعيا لمدخله.

عُيِّن أبو الفوز مسؤولاً عن الخمسين، وأبو علي نائباً له، ونضال رامياً على ال "بي سفن" وأنا رامياً على "الدكتريوف" وجورج وسليم الشِّبل الَّذي لم يكن قد تعدَّى عامه الخامس عشر آنذاك راميين على بندقيَّتي الكلاشنكوف، لكنَّ الجميع مع ذلك كانوا يمتلكون بنادق كلاشنكوف.

لا أحد يعرف بالضَّبط من سمَّى الموقع بالخمسين، والموقع الآخر التَّابع لنا، القريب منَّا بالستِّين.

الحركة كانت في النَّهار شبه مستحيلة، لأنَّ المنطقة مكشوفة للعدوِّ، لذا كان علينا أن نعمل بجدٍّ طوال النَّهار في حفر الأنفاق، وبناء الدُّشم والمتاريس.

نسيت أُمِّي، وسامياً، وخلود، وعيسى، وما عدت أتذكَّر إلاّ الحرب.

كانت سيَّارة التَّموين تُحضِرُ الطَّعام والذَّخيرة والصُّحفَ في اللَّيل مطفأةَ الأنوار، أمَّا الماء فكان علينا أن نُحضِرَهُ من نبعٍ قريبٍ على الأكتاف عبر الأنفاق.

كم شهيدٍ راح ضحيَّة الماء!

العلاقات ليست إلاّ علاقات عابرة مؤقَّتة، فكلُّ ما يدبُّ على الأرض كان قابلاً للموت، حتَّى القطط والكلاب والجرذان كانت أهدافاً لتدريب القنَّاصة المتمترسين طوال النَّهار خلف الجُدران المهدَّمة في المباني المقابلة، وكان عليك دائماً أن تقبلَ بالفقدان.

كيف يمكنُ لبلادٍ أن تنقسم إلى حَارات وأزقَّة وأرصفةٍ وشوارع وحاناتٍ وأشرعةٍ وبخار ماء؟

الثِّقة تعني الموت!

الرَّاحة تعني الموت!

الوقوف يعني الموت!

الانحياز يعني الموت!

الحياد يعني الموت!

السُّكوت يعني الموت!

الكلام يعني الموت!

والموت يعني الموت!

كنت أقطف باقةً ممَّا تبقَّى من الورود فوق الأشجار في حدائق البيوت المهجورة في الصَّباح، وأضعها في إناءٍ على الطَّاولة، وسط الصَّالة، لعلَّ أريجها يطرد رائحة الموت الَّتي كانت تملأ المكان، فيبتسم لي أبو الفوز ممتنَّاً، ويشجِّعني.

كان أبو الفوز ضحوكاً على الرُّغم من كلِّ الحزن الذي يطفحُ به المكان، قصير القامة، ممتلئ الجِسم، كرشه الصَّغير يتدلَّى أَمامه، شارباه كثيفان غزاهما بعض الشَّيب كشعره، أنفه عريض، وبشرة وجهه ذات مسامات واسعة، كان يدخِّن الحمرا السوريَّة وكلَّما أشعل سيجارة مدَّ قبضتيه في الهواء وراح يحرِّكهما كالدُّولاب وهو يسحب أنفاساً عميقة متتالية ويقول:

- هذه السِّيجارة بحاجة إلى منفاخ لكي يشعلها....

كان يفعل ذلك في كلِّ مرَّة يشعل فيها السِّيجارة، فينفجر الجميعُ ضاحكين على تلك الطَّريقة الَّتي لم يكن يتقنها أحد سواه، وكان لا يتوقَّف عن إطلاق النِّكات، ويبذل جهداً خارقاً في الحصول على أيَّة نكتة جديدة مهما كلَّفه الأمر، عدا عن النِّكات التي كان يؤلِّفُها هو بنفسه.

كنَّا نضحك على نكاته ونجد فيها عزاءً وسط العزلة التي نعاني منها، وكثيراً ما كان يخلط الجدَّ بالهزل فلا تفرِّق بينهما.....

قال لي يوما بعد أن طلبت منه أن يأخذَني إلى بيروت:

- بيروت يسيطر عليها الجيش الآن، لكنِّني أستطيع أن آخذك عبر طرق التفافيَّة بشرط أن تعيرني جواز سفرك عاماً واحداً فقط، هل لا يزال صالحاً للاستعمال؟

هززت رأسي بالإيجاب مبتسماً، بينما مدَّ هو يده في الهواء.

- هات...
- أخذوه في دمشق.... قلت.
- أخذوه من الجميع... جئنا بالهُويَّات العسكريَّة.... والغريب أنَّ الضَّابط في المصنع كان يسأل عن اسم الأمِّ وكأنَّها هُويَّات حقيقيَّة، قال جورج ضاحكاً.
- ستجدون أنفسكم ذات يوم مطلوبين في مكان ما في هذا العالم دون علمكم.

قال وهو يقلِّد ضحكة جورج، وقبل أن يتمَّ جملته التَّالية اهتزَّت الأرضُ والجُدرانُ واشتعل الهواءُ، وابتدأ الاشتباك.

* * *

كان الخمسين بيتاً مهجوراً كبقيَّة بيوت عيتات يقع في سفح الجبل وسط الكثير من البيوت الأخرى، لكنَّه كان من أكثر البيوت حماية طبيعيَّة، فهو من جهة سوق الغرب ملتصقٌ بسفح الجبل، ما جعل مدخله محميَّاً من نطاق رؤية قنَّاصة العدوِّ، ومن الجهة المقابلة كان يحتوي ممرَّاً خارجيَّاً يفضي إلى حديقةٍ صغيرةٍ، تطلُّ على البيوت الكثيرة المتناثرة وسط الأشجار في سفح الجبل، الَّتي تمتدُّ بلا نهاية إلى مكان قصيٍّ لا تدركه العين.

البيت كان مكوَّناً من ثلاث غرفٍ للنَّوم، وصالة، ومطبخ، وحمَّام، جميعها محصَّنة بمئات أكياس الرَّمل الَّذي كانت رائحته تزكم الأنوف، ووحدها النَّافذة المطلَّة على الفناء الخلفيِّ كانت لا تزال مفتوحةً للشَّمس والهواء، من هناك كان بوسعك أن ترى الأفق، والبيوت المهجورة المهدَّمة، وبعض مواقع التَّنظيمات الأخرى، والحديقة الصَّغيرة الَّتي كانت تحتوي في

نهايتها الدُّشمة الإسمنتيَّة الَّتي تبلغ سماكة جدرانها سبعين سنتمتراً على الأقل، وفي جدارها المقابل لسوق الغرب، كوَّةٌ صغيرةٌ متناقصةٌ على شكل مخروط مقطوع، تنتهي بقاعدةٍ إسمنتيَّةٍ لنصب قاعدة الرَّشاش عليها، وفي الخلف عند بابها، سُلَّمٌ خشبيٌّ يتَّكئُ على حافَّة الدُّشمة يصعد رامي ال "بي سفن" درجة منه أو درجتين ليتمكَّن من رؤية هدفه، فيرمي قذيفته ثم ينسحب مسرعاً خلف الجدار المجاورِ قبل هطول الرَّصاص عليه.

في الغرفة الأُولى إلى يمينك حين تدخل البيت كان يقبع سريري، يقابله سرير نضال، وفي أقصى الغُرفة سرير سليم، كانت الغُرفة خالية من أيِّ شيء آخر، باستثناء حقائبنا الَّتي أَخفيناها تحت أَسرَّتنا، وكرسيٍّ خشبيٍّ قديم، وطاولة، وإلى اليسار تقع الصَّالة الَّتي كنَّا نجلس فيها، وتحتوي ثمانية مقاعد، والطاولة الخشبيَّة الصغيرة الَّتي كنت أضعُ باقة الورد عليها، كانت تلك الصَّالة هي المكان الوحيد الَّذي كان بوسعنا فيه أَن نتنفَّس الهواء، ونرى الشَّمس.

الغرفة المحاذية لغرفتنا كانت أكثر تحصيناً، وكان ينام فيها أبو الفوز، وجورج، أمَّا أَبو علي فقد اختار لنفسه الغرفة الأخيرة الصَّغيرة المحاذية للمطبخ، الَّتي ربَّما استعملها أَصحاب البيت مكاناً لخزن مؤن البيت.

كان الخوف هو أوَّل مراحل الاشتباك، الخوف الذي كنَّا نخفيه جميعاً كي لا يفضح رجولتنا، وشجاعتنا، الخوف الذي يأتي قبل أن تحضن بندقيَّتك وتشعر بأنَّها في اللَّحظة التَّالية ملاذك الوحيد، وجسرك إلى الحياة، حين يصبح صوت الرَّصاص هو الأصل، والصَّمت هو الشذوذ.

ركضنا إلى أسلحتنا.....

كنت أتعمَّد حشو الرَّصاص ذي الإشارة الحمراء والزَّرقاء، الحارق، كي أشعل النَّار في الأعشاب والنَّباتات المقابلة، لنكشف حركة العدوِّ في

اللَّيل، ونضال كان يصعد السُلَّم ويرمي قذيفته ويركض نحو الجدار ليلوذ به من رشقات رصاص رشَّاش "ال 500" الَّتي كانت تنصبُّ فوراً على مصدر النَّار، ثمَّ يعود ليعيد الكرَّة من جديد.

انفجرت المواقع كافَّة على طول خطِّ الاشتباك، ثمَّة من سرَّب خبراً عبر اللاَّسلكي عن محاولة اجتياحٍ لعيتات.

كان الانسحاب ممنوعاً، والعودة إلى الخلف كانت تعني الخيانة، والمتراجعون مهما كانت رتبهم كانوا معرَّضين للإعدام في الميدان رمياً بالرَّصاص.

الهزيمة تجرُّ هزيمةً، والتَّراجع يجرُّ تراجعاً، وما عاد ثمَّة بدٌّ من حفظ ماء الوجه بعد انسحاب صور.

ازدادت حالة التأهُّبِ، تدفَّق المقاتلون على كلِّ المواقع من كلِّ حَدَب وَصَوْب، الجبهة غصَّت بالمقاتلين، وعُقد المجلسُ العسكريُّ المشتركُ في أحد المواقع المجاورة، وأشرف عليه قادة الكتائب.

احترق الهواء وامتزج برائحة البارود، اشتعلت الأشجار، وهدير قذائف دبَّابات العدوِّ كان يصمُّ الآذان، ويهزُّ الأرض، والبنايات تحوَّلت إلى رُكام، الطَّائرات لم يكن بوسعها أن تقصف خطوط التَّماس، لأنَّ المسافة بين الطَّرفين لم تكن تتعدَّى عشرات الأمتار، والخطأ في الإصابة كان مؤكَّداً، تلك كانت الميزة الوحيدة لهذا المكان.

ظلَّت غرفةُ العمليَّات منعقدة حتَّى الصَّباح، ثم توقَّف الاشتباك فجأة كما بدأ، وبدا أنَّ محاولة الاجتياح باءت بالفشل، وأنَّ ثمَّة أطرافاً سياسيَّة تدخَّلت لوقف إطلاق النَّار.

صمتت المدافع والرشَّاشات، وعمَّ الهدوءُ المكان، وبدأ المقاتلون الَّذين توافدوا أثناء اللَّيل بالانسحاب عائدين إلى مواقعهم. جلسنا نستمع إلى الأخبار، كانت الحصيلة ثلاثة شهداء، وعشرة جرحى.

(2)

القبر أضيق من دهاليز الجسد....

- تنفَّس....
- ماذا يفعل الموتى بالهواء؟
- تنفَّس....
- شهيق عميق، وزفير مساو له، يطرد الخوف الآسن القابع في خلايا القلب.
- تنفَّس....

القبر يضيق، والجدران تطبق على كومة الجسد، والأضلاع تختلط، وتتداخل، الظُّلمة تحيط في اللامكان واللازمان، والرُّوح "بسيشة" تبحث عن ملاذ كي تريح أجنحتها في الطَّريق إلى السَّماء، صعودٌ، وصعودٌ، وصعودٌ، وصعود.... والحمامتان ما عادتا منذ أن رحلتا ذات يوم للبحث عن وجه الأرض.

- تنفَّس....
- أحدٌ... أحد....
- وربُّك؟....
- أحدٌ... أحد....
- ودينك؟...
- أحدٌ.... أحد...

- وماذا تقول في الرَّجل الَّذي بُعِثَ إليك؟
- أحدٌ.... أحد...

لا الرُّوح تشبه الظلَّ المتروك فوق الجدار، ولا المِسمار الَّذي علَّقوا عليه الأسماءَ مسمار.

- مع أيٍّ حزبٍ كنت؟ مع أيٍّ حزب جئت؟
- ثمَّة خطأ في الحكاية كلِّها، وثمَّة ما تعيشه الرُّوح مرَّتين، والجسد لا يشغل ذات الحيِّز إلاّ في زمنين مختلفين، فكيف صار بوسعي أن أُشغل حيِّزين اثنين في ذات اللَّحظة إلاّ إن كنت مقسوماً إلى نصفين: نصف للذِّئب، ونصف للشَّاة؟
- مع أيٍّ حزب كنت؟
- حزب التَّوابيت الَّتي يتبعها المجانين.
- الشُّعراء؟
- القطط الَّتي تموء كي تُضيءَ أَعضاءَها الذكريَّةَ في الخلاء.
- تقصد بيريز؟
- لماذا أعطي اليهوديُّ سبعة أرواح؟
- لأنَّ اللَّه أعطى موسى سبعةَ ألواح.
- والحظُّ؟
- يدٌ عليا فوق يدٍ سُفلى.
- وهاجرُ؟
- دجاجة سمراء.
- فما حاجة الموتى للهواء؟
- تنفَّس، المعادلة بسيطة أبسط مما تتخيَّل بكثير، لنا التَّوراةُ والإنجيلُ والقرآن، ولكم فقط سورة التِّين.
- التِّين؟

- حتَّى سورة التِّين ليست لك، أنت مجرَّد مارق على الدِّين!
- وماذا يفعل الموتى بالدِّين؟
- الآن حصحص الحقُّ، ماذا تقول في الدِّين؟
- أحدٌ.... أحد....

الجدار أعلى من الموت بقليل.....

- أعطيناك جسداً وأخفقت في الاختبار، عدت به مثقوباً بسبع رصاصات، رصاصة السَّبت، ورصاصة الأحد، ورصاصة الاثنين، ورصاصة الثُّلاثاء، ورصاصة الأربعاء، ورصاصة الخميس، ورصاصة الجمعة، أترى كيف تدور الدَّائرة فتطبق على السَّبت؟
- هذا وحيد، هو الَّذي مات بسبع رصاصات، لا بدَّ أن هناك خطأ في المكان والزَّمان.
- أنت إذن تعترف بكلِّ شيء....
- أووووووووووووو
- هكذا يمكن لك أن تُخرجَ الخوفَ المعشِّش في أعماقك منذ ألف عام، منذ أن صار معاوية خليفة للمسلمين.
- أنا ميت!
- أنت لا تستطيع أن تموت الآن، تنفَّس.... لا تستطيع أن تهربَ إلى الموت، أولئك الَّذين يشهِّرون بالصحابيِّ الجليل أبي سفيان لا بد أن ينالوا عقاباً أقسى من الموت.
- أبو سفيان مجرَّد خازوق دُقَّ في خصر الإسلام.
- إذن أنت تعترف بكلِّ شيء، وماذا تعرف بعد؟ تكلَّم....
- أعرف أن هنداً الَّتي قضمت كبد حمزة لا يمكن لها أن تُسلِّم الرَّاية لولا فتح مكَّة.

- إذن أنت تعترف.
- أنا ميت....
- تنفَّس، عليك أن تعترف قبل ذلك برحلة موسى إلى فلسطين، وبحقِّنا الإلهيِّ في دم إسماعيل.
- أنا مجرَّد اثنين يشغلان حيِّزاً واحداً في ذات اللَّحظة.
- فلماذا تركت وحيداً يموت وحيداً إذن؟
- غريزة الموت.
- ومشيت ضدَّ غرائزك؟
- لا شأن لي في الاختيار، عيسى هو الَّذي اختار.

لا شيء غير الصَّمت، وأصوات الجنود يصيحون بالعبريَّة، ورجل بملابسه السَّوداء يقف عند الباب وفي يده مسدَّس، رفع سبَّابته إلى شفتيه:

- أُششششش.... إيَّاكُم أن توقظوا الرَّفيق بيريز....

الأسرَّة بيضاء...

والمُلاءات بيضاء...

والجدران بيضاء...

وملابس الرِّجال والنِّساء بيضاء....

والوجوه بيضاء....

والموت أبيض....

وحده الرَّجل الواقف عند الباب وبيده المسدَّس كان متَّشحاً بالسَّواد، يخفي عينيه خلف نظَّارةٍ سوداء، ويلقي السُّؤال تلو السُّؤال بالعبريَّة على الأطباء.

* * *

- فسِّر لي هذا....

أَمْسكتُ بالورقة بين يديَّ ورحت أقرأ ما فيها، ابتسمت، كانت شهادة وفاتي، أعدتُ قراءتها مرَّات ومرَّات، نظرت إلى الخاتم الرسميِّ، تحسَّست الورقة بأصابعي كأنَّني أريد أن أتأكَّد من أنَّها ليست مزيَّفة، كانت مؤرَّخة في العام 1985.

- هل ما زلت مصمِّماً على أنَّك سعيد؟
- نعم... أنا سعيد.
- سعيد متَّهمٌ باغتيال المندوب الأمريكيِّ للصَّليب الأحمر في لندن ورجلين آخرين، ومطلوبٌ للإنتربول، هل أنت سعيد؟

هززت رأسي بالإيجاب.

- كيف قتلتهم؟
- لا أعرف، أنا لم أدخل لندن في حياتي، ولم أَقتل أَحداً.
- أنت كذَّاب، أنت متَّهم بمحاولةِ اغتيال شيمون بيريز، والدُّخول إلى البلاد بطريقةٍ غير مشروعة، والانتماء إلى تنظيمٍ محظور، واقتناء سلاح ناريٍّ غير مرخَّص، هل أكمل لائحة الاتِّهام؟

كنت أعرف أنَّهم قاموا بدفن جثَّة ما بعد أن أعطوها اسمي، وأنَّهم يتلاعبون بي، وأبحث عن لحظة سكينة كي أجمع أشتات أفكاري، لكنَّ المحقِّق لم يمنحني حتَّى فرصة للتَّفكير.

- فسِّر لي هذا، عاد ورمى بذات الورقة أمامي بعد أن أعدتها له.
- لا أدري، أنا لم أدخل لندن في حياتي.
- أنت كذَّاب، هذه وثيقة رسميَّة ممهورة بختم الدَّولة مبنيَّة على وثائق رسميَّة من بريطانيا تفيد بأنَّك قُتلتَ هناك، وجثَّتك قد

استلمتها السُّلطات بشكل رسميٍّ، وسلَّمتها لأهلك الَّذين دفنوها حسب الأصول في مقبرة البقعة، هذا إذا افترضنا أنَّك سعيد.

- كيف؟
- لا أدري، أنت ستقول لي كيف.
- أنا لا أعرف كيف، فأنا أمامك كما ترى، لم أمت بعد.
- من أنت؟ أين هُويَّتك الأَصليَّة؟ أين وثائقك الشَّخصيَّة، من أنت بالضَّبط؟ ومن أَين أَتيت بهذه الهويَّة المزوَّرة؟ ولماذا أنت مصرٌّ على أَنَّك سعيد الدُّوري؟
- لأنِّي متأكِّدٌ أنِّي سعيد الدُّوري.
- من أَعطاك هذه الهويَّة؟
- رجل في سوريا.
- خليل؟
- نعم.
- من أين حصل عليها؟
- لا أعرف.
- من زوَّرها.
- لا أعرف.
- المهندس؟
- ربَّما.
- كيف دخلت الحدود؟
- مشياً على الأَقدام.
- لماذا؟
- لاغتيال بيريز.

- من ساعدك؟ من معك؟ من أدخلك؟ من أَعطاك البندقيَّة؟ كم شخصاً كنتم؟
- لا أحد، كنت وحدي، جئت وبندقيَّتي معي.
- أنت قوَّاد، أَتظنُّ أَنَّنا أَغبياء؟

ضرب على الطَّاولة بقبضة يده بعد أن فقد السَّيطرة على نفسه، وبصق في وجهي، فَرُحتُ أمسح آثارَ البُصاقِ بأكمام قميصي.

- من أَنت؟
- أنا سعيد.

نهض من مكانه واتَّجه نحوي...

كان طويل القامة، أَسمر البشرة، ضخماً، وكفُّه تتدلّى إلى جانبه كأَنَّها مجذاف خشبيٌّ عريض، عيناه حمراوان تقدحان ناراً حتَّى خُيِّل لي أَنَّه ثمل.

- سأجعلك تنسى اسمك إن لم تعترف، فحَّ في أذني ولهاثه يلفحُ عنقي.
- ألا ترى أنِّي نسيت اسمي؟

سألت مداعباً وأنا أبتسم، محاولاً أَن أَمتصَّ غضبه.

لم أتوقَّع ردَّة فعله، كان مُحتقناً يكاد ينفجر، يلهثُ وكأنَّه قضى ساعاتٍ وهو يركض قبل مجيئه إلى غرفةِ التَّحقيق، انهال عليَّ بالضَّرب فرحت أحاول أن أتَّقي ضرباته بيديَّ، جُنَّ جنونه، صرخ بأعلى صوته على الحرَّاس الَّذين هرعوا مسرعين إلى الدَّاخل وبدؤوا بضربي، تكوَّمت على البلاط ويداي تحاولان أن تقيا وجهي من "البَساطير" الثَّقيلة الَّتي راحت تنهال على رأسي.

لا أعرف متى بالضَّبط أضعت الخوف من رجال الأمن الَّذين كنت أخشاهم ذات يوم أكثر من خشيتي من الموت.

جرُّوني والدَّم يتدفَّقُ من فمي وأنفي.

عشرة أيَّام لم أذق طعم النَّوم، عشرة أيَّام لم يتوقَّف العذاب فيها لحظة واحدة، لذا كنت أرى في الفترة الَّتي أقضيها مع المحقِّقِ استراحة قصيرة، قطعتها تلك الأحذية العسكريَّة الثَّقيلة الَّتي داست كلَّ شبر في جسدي.

ما الَّذي يريدونه بالضَّبط؟ لماذا يصرُّون على أنِّي ميت؟ ما الَّذي يحاولون أن يلفِّقوه لي؟ كنت حائراً أتساءل، ولم يكن ثمَّة وقت للتفكير بجواب. اقتادوني إلى غرفة التَّعذيب، صلبوني وأنا عارٍ تماما، تركوني على تلك الحال ثلاثة أيَّام، لم أذق طعم النَّوم، ولا الطَّعامَ، ولا الماء، كانوا كلَّما شعروا بأنِّي سأنام سكبوا الماءَ الباردَ على جسدي، ثمَّ أَتبعوه بالماء السَّاخن، ثمَّ البارد، وهكذا.....

أحسست بجسدي ينهار، للجسدِ قُدرةٌ على الاحتمال يحاولون دائما أن يَتخطَّوها كي يصبح الطَّريق بعد ذلك سالكاً إلى كلِّ شيء يريدونه، كم مرَّةٍ فكَّرت بالسُّقوط والانهيار! كم مرَّةٍ فكَّرت أن أُقرَّ بكلِّ ما يريدونني أن أعترف به، وأوقِّع عليه! اعترفت بأنِّي دخلت البلاد لاغتيال بيريز، تلك تهمةٌ لم أنكرها منذ البِّداية، لكن كيف يمكن لي أن أعترف بأنِّي لست أنا؟ وأين سيقودني ذلك الاعتراف؟

كنت أبول وأتغوَّط بين قدميَّ وأنا واقف في مكاني، وهم يضحكون، يغمِّسون عيدانا خشبيَّة في الغائط ثمَّ يخطُّون اسمي بها على جسدي، قدماي انهارتا فلم أعد قادراً على الوقوف، لكنَّني كلَّما أسندت جسدي إلى ذراعيَّ شعرت بِشَرخٍ يمزِّق إبطيَّ فأنتفض وأعود لأستند إلى قدميَّ من جديد.

الموت يعني أن تُغمضَ عينيك مرَّة واحدة فقط، وتموت، أمَّا العذاب فهو موت يوميٌّ لا يتوقَّف!

فكُّوا وثاقي أخيراً وسحبوني من يديَّ إلى زنزانتي كخرقةٍ بالية، للمرَّة الأولى منذ أن وطئت قدماي هذا المكان يتركونني أستريح، رأسي يكاد ينفجر، الألم يسري في كلِّ نقطة من جسدي، الوهن يتملَّكني، العطش والجوع يفتكان بي. أحضروا لي خبزاً وماءً، فازدردت الخبز بصعوبة وأتبعته بالماء، اقتادوني بعد ساعة إلى الحمَّام، اغتسلت من أثر الغائط الَّذي كان يملأ جسدي العاري، ورائحته تزكم الأنوف، أعطوني ثياباً نظيفةً وأعادوني إلى المحقِّق، دورة أخرى، وكأنَّها دائرة لا تتوقَّفُ عن الدَّوران، بعد كلِّ رحلةٍ مع العذاب يعيدونك إلى المحقِّق ليروا إن كان العذاب قد أثمر في جسدك.

- أتريدُ أن تذهبَ لرؤية قبرك؟.....

ابتسمت على الرُّغم من كلِّ الألم الَّذي كنت أشعر به في كلِّ أنحاء جسدي من أثر الضَّرب، كم كنت أودُّ أن أرى قبري!

- أنا لم أمت بعد، أنا أمامك كما ترى.
- من كان معك؟ من ساعدك؟
- لا أحد...
- أرأيت أنَّك تكذب؟ عبد الحميد اعترف بكلِّ شيء عنك، وعن نفسه، وعن الرَّاعي، وعن خليل.
- لا أَعرف أَحداً بهذا الاسم.
- أين جواز سفرك؟
- أضعته منذ زمن طويل، في الطَّلب المقدَّم إلى السِّفارة في دمشق ستجد كلَّ التَّفاصيل.
- أنت كذَّاب.
- شكراً.
- كنت على وشك أن أساعدك، لكنَّك لا تريد أن تساعدَ نفسك.

كانوا يريدون بعد كلِّ العذاب والسَّهر، والخَوف، والأيَّام المُضنية الَّتي قضيتها في المشفى مغمى عليَّ، أن يتَّفقوا معي على أبسط الأشياء، هم أيضاً أُصيبوا بالقلق واليأس، إنكاري، وتصميمي جعلهم يفقدون البوصلة ويصابون بالإحباط، كنت أرى ذلك في عيون كلِّ المحقِّقين الَّذين كانوا يتوالون عليَّ، ما جعلني أَتساءل في سرِّي حائراً إن كان المحقِّقون بالفعل مدركين حقيقتي، أم أنَّهم ممثِّلون بارعون!

جاؤوني بعبد الحميد والرَّاعي الَّذي كانت رائحة الأَغنام لا تزال تفوح من ثيابه، كلاًّ على حدة، أنكرت أنِّي أعرفُ أيَّاً منهما على الرُّغم من اعترافهما الواضح الصَّريح، جرَّبوا كلَّ السُّبل الَّتي يعرفونها، تلك الَّتي مارسوها من قبل وتلك الَّتي كانت مجرَّد نظريات، وحين فشلوا، استعانوا بأولئكَ الَّذين كنت ذات يوم أعرفهم، لكنَّهم جميعا أنكروني: أصدقائي القدامى في مدرسة ذكور الوحدات، والجيران، وبقايا الأقارب، حتَّى شقيقتي خلود الَّتي جاؤوا بها من الرِّياض خصِّيصاً على نفقتهم لكي تقطع الشكَّ باليقين أنكرتني!

كانت قد تغيَّرت كثيراً، أصبحت بدينة جدَّاً، ووجهها صار مدوَّراً كرغيف الخبز الأبيض.

حين رأيتها بكيت، وفتحت ذراعيَّ لأَحضنها لكنَّها صدَّتني، وقفت تحدِّق إليَّ طويلاً، ثمَّ أعلنتْ أمامهم أنَّني أشبه سعيداً كثيراً، لكنَّني لست هو، وساقت على ذلك دلائل كثيرة أوَّلها أنَّ سعيداً أيمن، وأنا أعسر، وأنَّ لسعيد شامة على عنقه جهة اليسار، وأنَّ سعيداً أقلَّ ضخامة مني.

قالت لهم: سعيد مات منذ سنوات ودفنَّاه، هذا ليس سعيداً.

فكَّرت: ربَّما أنكرتني لأنَّها اعتقدت أنَّها بذلك تساعدني، حاولت أن أخبرها بأَنَّ إنكارها لي لن يفيدني بشيء، إلاّ أنَّها ببساطة أدارت لي ظهرها، وغادرت المكان.

هل كنتُ أيمنَ ذاتَ يومٍ بالفعل؟ وهل كانت ثَمَّة شامة على عنقي جهة اليسار؟

التَّعذيب هو المعركة الأولى الَّتي يفتتح بها المحقِّق حربه، والَّتي يعوِّل عليها الكثير، فإن خسرها لجأ إلى آلاف الوسائل الأخرى صعوداً أو هبوطاً حسب ما يرى من السَّجين، بدا لي أنَّني كسبت الجَولة الأولى، لكنَّني كنت مخطئا في تقديري، إذ إنَّني لم أكن أعلم أنَّ الطَّريق ما زال أمامي شاقَّاً وطويلاً وقاسياً وسيقودني إلى بيريز من جديد.

(3)

ثمَّة شبه بينه وبين وحيد جذبني إليه، لكنَّ وحيداً كان أكثر رأفة ورقَّة وعطفاً.

لا شيءَ مطلق، ولا شيءَ يمتلك حدوداً أو معالم واضحة تماما، والأشياء ربما لا تكون كما تبدو عليه، ثمَّة خطوط لا تُرى بالعين المُجرَّدة هي الَّتي تشكِّل همزة الوصل والفصل والأقدار، والمصادفة ليست إلاّ عجزاً عن تفسير الحقائق، فالحواسُّ قاصرة، والتَّجربة أكبر من البرهان، التَّجربة أبعد من الحواسِّ، والدَّال والمدلول.

رائحة البارود تمتزجُ برائحة الورود...

تلتقي الأقدار بقدر وتنفصل بقدر، بلا تفسيرٍ منطقيٍّ، لذلك فقط فُسِّرت بالمصادفة.

وجدته مسترخياً يدخِّن نرجيلته وحيداً.

قال خليل:

- الرُّوح أوسع من أن تؤطَّر أو تُحدَّ أو تُقيَّدَ أو تموت، ورحلة الرُّوح في البحث عن سرِّ الحياة هي رحلة البحث عن الموت.
- هل أعتَبِرُ هذا نوعاً من الإيمان بالرُّوح؟
- وهل لديك شكٌّ بالرُّوح؟.... سأل.
- ألست ملحدا؟

- كلُّنا مؤمنون بالفطرة، وأنا أعتقد أن الإلحاد هو إيمان من نوع ما، إيمان بشيء ما، هو إيمان يحاول أن ينكر الإيمان.
- والماركسيَّة؟
- ضرب من العبث والأوهام، لا تصلح للعرب.
- كيف إذن تفسِّر وجودك في التَّنظيم؟
- حيِّزٌ في الفراغ لم يتَّسع لأحدٍ سواي.
- وهل يعرفون؟
- لم أسأل، وأظنُّ أنَّني لن أسأل.
- سمعت أنَّ الَّذي نظَّمك هو وديع.

هزَّ رأسه موافقاً.

- كيف تعرَّفت إليه؟
- كنت أدرس الفلسفة في موسكو، والتقينا هناك.
- هل كان مؤمناً بالماركسيَّة؟
- كان مؤمناً بتحرير فلسطين، ولم يكن يلتفت كثيراً للنظريَّات.
- عملتَ معه طويلاً؟
- سنتين.
- هل مات؟
- لماذا لا تذهب وتعدُّ لنا القهوة؟

تلك كانت طريقة خليل في التخلُّصِ منِّي، كنت أشعر بالزَّهو لأنَّ الجميع كانوا يعشقون قهوتي الَّتي كنت أتفنَّن في صنعها، وإن كنت أدرك بيني وبين نفسي أنَّ السَّبب ليس قهوتي المتميِّزة وإنَّما كسلهم. نهضت إلى المطبخ ورحت أُعدُّ القهوة بينما كان الجميع ينهضون من أسرَّتهم.

خليل هو المسؤول الأوَّل عن الخمسين والستِّين، موقعَي التَّنظيم على خطِّ الاشتباك، كان مقيماً في الستِّين إلاّ أنَّه كان يتنقَّل بين الموقعين باستمرار، وكان يقيم معه في الستِّين أربعة رفاق:

ميشيل، المسيحيُّ المارونيُّ الَّذي لا يعرف أَحد بالضَّبط متى انضمَّ إلى التَّنظيم، والَّذي قضى سنينَ وهو يحلق أَعلى شاربيه مراراً وتكراراً كلَّ يوم، ويعلن أَمام الجميع بأَنَّه يريد أَن يرسم على وجهه شاربين كشاربَيْ غسَّان كنفاني.

كان أَبيض البشرة، وسيماً، تأسرك لهجته اللُّبنانيَّة النَّاعمة الَّتي لا تشي أَبداً بما يحمل في أَعماقه من بأس وقوَّة وتصميم، عيناه سوداوان واسعتان مستديرتان، وشعره طويل ناعم ينساب على كتفيه من تحت الطَّاقيَّة الخضراء، وذقنه دائماً محلوقة بعناية ما يزيد من بياض بشرته، ووسامته.

وأبو حميد، ابن صيدا، ذو النظَّارتين السَّميكتين اللَّتين منعتاه من أَن يكون مقاتلاً حقيقيَّاً كما يشتهي، فانتدب منظِّراً سياسيَّاً، خصوصاً لأَنَّه لم يكن يمتلك أَيضاً اللياقة الكافية، لأَنَّه كان بديناً أَكثر ممَّا يمكن لمقاتل أَن يكون، لذلك ارتضى بدوره على الجبهة منذ زمن بعيد وتعايش معه.

وعبد الكريم، النَّحيف، ذو العينين الخضراوين، والجبهة العريضة، والشَّعر القصير، الَّذي كان كثيراً ما يوصف بالنِّسيان، واللامبالاة، ليفاجئك كثيراً بأَنَّه ليس كما تظنُّ، وأَنَّه يحفظ بعض التَّفاصيل الَّتي تدور في عيتات كلمة كلمة، ويعيد على مسامعك الكثير من تلك التَّفاصيل حين يعجز الآخرون عن تذكُّرها، كان قد سافر من طولكرم للدِّراسةِ في رومانيا ثمَّ التحق بالثَّورة أثناء الاجتياح ولم يعدْ قادراً على العودة إلى رومانيا ولا إلى فلسطين.

وإدريس، المغربيُّ، الأسمرُ، ذو الشَّعر المنكوش، والعضلات المفتولة، الرِّياضيُّ الَّذي شارك في الأولمبياد مرَّتين، وحصل في إحداهما على ميداليَّة فضيَّة في سباق المسافاتِ الطَّويلة، الَّذي صار يعشق شرب البيرة حدَّ الجنون في عيتات، ولا يترك حيلة ولا وسيلة للخروج كلَّ مساءٍ إلى بيت أبي طلال القريب، ليحتسي معه البيرة بالسرِّ، لأنَّ تناول الخمر كان ممنوعاً في المواقع العسكريَّة.

كان خليل يعرف كلَّ شيء، لكنَّه كان يغضُّ النَّظر لأنَّه مثل الآخرين المقيمين في تلك البقعة من الأرض، كان يشعر بطعم المرارة والألم والعزلة والغربة الَّتي كان يعانيها الجميع.

أعددت القهوة وعدت إلى حيث كنت أجلس. نهضوا على رائحة القهوة واحداً وراء الآخر، وحضر نضال فعدت لأُعدَّ القهوة من جديد.

كان الستِّين مكوَّناً أيضاً من ثلاث غرف كالخمسين، لكنَّه كان أَصغر مساحة منه، وأقرب بأمتار قليلة إلى خطِّ الاشتباك.

كنَّا متَّفقين على كلِّ شيء إلاّ فيروز.

جلسنا نستمع إليها ونحن نشرب القهوة، عبر إذاعات الموجة القصيرة الَّتي كانت لا تعدُّ ولا تحصى، كنت أعشق أغنية "شادي"، وميشيل كان مولعاً بأغنية "قديش كان في ناس".... يفتِّشُ عنها وسط تأييدِ عبد الكريم وأبي حميد، واعتراضِ نضال وإدريس اللَّذين كانا يفضِّلان أغنية "حنّا السكران" ويحثَّانه على البحث عنها.

وحده خليل كان لا يعترض على أيَّة أغنية ويتمتم وهو يسحب أنفاساً طويلة من نرجيلته:

- كلُّ فيروز جميلة في كلِّ زمان ومكان.

كان ذا عينين ثاقبتين، ووجنتين بارزتين، حليق الرَّأس، طويل القامة، جادَّاً دائماً، كثير السُّؤال حتَّى عن أدقِّ التَّفاصيل.

فسَّرت ذلك بدايةً بالفُضول، ثم أدركت بعد ذلك أنَّه أحدُ رجال الأمن.

كنت أكره رجال الأمن وأمقتهم، وأعتبر أنَّ وظيفتهم هي كسر الحياة في النَّاس، وتحطيم كلِّ جميل فيها. كلَّما رأيت رجل أمن تذكَّرت يعقوب.

هل كنَّا صغاراً ذات يوم بالفعل؟ كان القانون الَّذي يحكم الأطفال في المخيَّم هو قانون الغاب، كبيرنا يأكل الصَّغير فينا، وقويُّنا يستبيح الضَّعيف، لم نكن صغاراً أبداً، وكان عليك دائماً أن تجد من هو أكبر منك سنَّاً، وأقوى، لتلوذ به فيحميك.

كلُّ شيء كان مباحاً، ليس ثمّة حدود ولا قواعد ولا قوانين، وإذا سقطت داستك الأرجل الكثيرة الَّتي لم تكن ترحم أحداً أبداً.

كان يعقوب يكبرني بأربعة أعوام أو أكثر بقليل، لكنَّه كان الولد الوحيد لوالديه، ولدته أمُّه بعد سبع بنات ولم تصدّق أنَّها نجت أخيراً بولادته من زواج أبيه عليها، ربَّما لهذا السَّبب دلَّلته، وأعطته كلَّ ما كان يريد، فترعرع بيننا ضعيف البنية، هزيلاً، هشَّاً، ما جعلنا نحن الأولاد نستبيح كلَّ شيء فيه، نضربه بسبب وبلا سبب، نستولي على أيِّ حذاءٍ أَو ملابس جديدة تشتريها له أمُّه، ونتعدّى ذلك أحياناً بأن نتعمَّد إهانته بذكر شقيقاته أمامه متخيِّلين أبشع الصُّور الجنسيَّة في العلاقة معهنَّ، دون أن يستطيع أن يدافع عنهنَّ ولو بكلمة.

تعلَّم الخوف مبكِّراً في غابة المخيَّم، كان يمشي ضدَّ الطَّبيعة، وضدَّ الواقع، يشكونا لأمِّه فتلاحقنا في الشَّوارع والأزقَّة، وإذا ما قبضت على أحد منَّا أوسعته ضرباً، ثمَّ شكته لأهله الَّذين كان عليهم أن يضربوه أيضاً إرضاءً لخاطرها.

كبرنا قليلاً وكبر يعقوب...

ترك المدرسة مبكِّراً، بدا أنَّه غير صالح لشيء أبداً، نفض أبوه يديه منه، لكنَّه، في أعماقه، كان لا يزال يحمل ماضيه المقيت بركاناً، أَصبح شرطيّاً، فحلَّت منذ ذلك اليوم لعنة على أرواح الجميع!

صار يلفِّق التُّهم، ويزجُّ في السِّجن كلَّ من كان يعترض طريقه، محاولاً أن ينتقم من كلِّ من آذوه في السَّابق، يلبس بدلته الزَّرقاء ويمشي متبختراً بها في الشَّارع أمام النَّاس ربَّما كي يعوِّض شيئاً من رجولته المفقودة! وإذا ما استوقفه أحد ليتوسَّل إليه كي يتوسَّط لدى الضَّابط في المخفر لإخراج ولد ما من السِّجن، يشعر أنَّ تلك اللَّحظات أجمل لحظات عمره، ينتفش كالطَّاووس ويبدأ بإلقاء درس من الإرشادات والمواعظ يحفظه عن ظهر قلب وكأنَّه حارس على الأرض.

كم تغيَّر يعقوب!

ربَّما اعتقد أن البدلة الزَّرقاء، والقانون، سيحميانه بسلطتهما من كلِّ ما كان يتعرَّض له من إهانات، ويعيدان له كرامته المستباحة، ورجولته المهدورة، لكنَّه كان مخطئاً.

اتَّفق بعض الشُبَّان عليه، نصبوا له كميناً في اللَّيل خلف أحد البيوت، ومزَّقوا وجهه بالسَّكاكين ثمَّ خصوه، فحمله النَّاس إلى المشفى نصف ميت، وحين خرج رحلت به أُمُّه بعيداً خارج المخيَّم وهو يتوعَّد ويزبد، ولم يعد إليه بعد ذلك.

كانت صورته هي صورة رجل الأمن الَّتي استقرَّت في رأسي منذ طفولتي، لكنَّ خليلاً غيَّر تلك الصُّورة، كان قويَّ البُنية، ذكيّاً، مثقَّفاً، فقلت لنفسي: ربَّما أمن الثَّورة مختلف عن أمن الحكومات والدُّول، ثمَّ عدت لأؤكِّد لنفسي بعد ذلك بأشهر فقط أنَّ الأمن هو الأمن أينما كان.

عـادت إبـرة المـذياع لتسـتقرَّ علـى مـونتي كـارلو، ونشـرة الأخبـار، استمعنا إلى التَّفاصيل ثم نهضنا كلٌّ إلى عمله.

كانـت الأعمـال تنقسـم إلى: حفـر الخنـادق، وإعـداد طعـام الغـداء، وجلب الماء من النَّبع، وتنظيف البنادق والرشَّاشات وتلميعها خوفاً عليها من الصَّدأ، وإحصاء الذَّخيرة وترتيبها، وتنظيف المواقع، ثمَّ تبدأ الزيارات بين الأصدقاء، وأحياناً كنَّا إذا ما انتهينا باكراً من أعمالنا نلعب النَّرد وسط صيحات وضجَّة لا تنتهي بتحديد الغالب والمغلوب، باستثناء خليل وأبي حميد الَّلذين كانا لا يطيقان النَّرد ويفضِّلان عليه الشَّطرنج.

تناولنا الآنية وانطلقنا أنا ونضال وعبد الكريم إلى النَّبع لجلب الماء، تلكَّأنا في الطَّريق، دخلنا بعضَ البيوتِ المهجورةِ المنهوبةِ المهملةِ المهدَّمةِ باحثين عن بعض الأواني الَّتي تنقصنا في مطابخنا، تحدَّثنا أثناء ذلك عن احتمالات الحرب والسِّلم، وعن الاشتباكات الَّتي كانت تدور آنذاك بين قوَّات عرفات من جهة، وقوَّات أبي موسى وأحمد جبريل والسُّوريين من جهة أخرى في طرابلس، وحضور عرفات متخفِّياً إليها.

كـان الجوُّ بـارداً، والمطر على وشك الهطول. ملأنا الأوعية بالماء المثلَّج وحملناها على أكتافنا وعدنا أدراجنا عبر الأنفاقِ والشَّوارع الضيِّقة الَّتي تخفيها الأشجار، كانت أصابعنا تكاد تتجمَّد من البرد ونحن نحاول السَّيطرة على الأوعية الَّتي راحت تَخُضُّ الماء فوق أكتافنا وتميلُ حسب ميلان أجسادنا.

كنـت قـد سـبقت رفيقـيَّ ببضـع خُطـوات فقـط، توقَّفـت فجـأة في منتصف الطَّريق الإسفلتيِّ الَّذي كان يؤدِّي إلى منعطف الموت، حيثُ قُتِلَ رفيقـانِ مـن الحـزب الناصريِّ بطلقـة قنَّـاص واحـدة، وضعـت المـاء علـى الأرض وقفـزت بـين الأشـجار، ثمَّـة أنـين مكتـوم كـان ينبعـث مـن بينهـا، اقتربنا من الصَّوت بحذر فصار أكثَر وضوحاً، وخلف إحدى شجيرات

الصَّنوبر وجدنا جسدَ رجلٍ ملقىً على الأرض، وقد غطَّاه الوحلُ تماما فاختفت ملامحه. ارتفع أنينه أكثر حين أحسَّ بنا، قفزنا نحوه، ظننَّا أنَّه أحد مقاتلي الأحزاب والتَّنظيمات الأخرى المنتشرة في المكان، تحسَّس عبد الكريم جسده معتقداً أن القنَّاصة أصابوه، لم يكن ثمَّة آثار إلا لدماءٍ قديمةٍ جافَّةٍ تغطِّي كلَّ جسده، حملته على كتفي، وركضت به على الطَّريق الإسفلتيِّ بشكل ملتوٍ، لأتجنَّب رصاص القنَّاص الَّذي راح يصْفِرُ وينطفئ بين قدميَّ على الإسفلت، وما كدت أعبر منعطف الموت حتَّى أدركتُ أنِّي نجوت بأعجوبة.

ركضت به إلى الخمسين، استقبلني أبو الفوز وأبو علي عند الباب، مدَّدت الرَّجل فوق السَّرير ورويت لهم بسرعة ما جرى معنا، تناول أبو الفوز جهاز اللاَّسلكي وطلب طبيباً قريباً كان موجوداً خصِّيصاً في عيتات من أجل تقديم الإسعافات الأوَّليَّة للمصابين قبل نقلهم إلى المشفى، رحنا ننزع عنه ملابسه الغارقة بالوحل والماء، كان جسده خريطةً لقروحٍ وجروحٍ قد التَهَبَتْ منذ زمن وتقيَّحت، وراحت تنِزُّ صديداً ودماءً، والحمَّى تنهشه فتجعله ينتفض مثل ديك هزيلٍ مذبوح.

كان يشبه ما رسمناه في مخيِّلتنا لصورة الإنسان الأوَّل الخارج من الكهوف، لحيته طويلة تتدلَّى على صدره، وشعره طويل كثٌّ أجعَد، ووجنتاه غائرتان في وجهه الَّذي طغت عليه الصُّفرة، وعيناه وشفتاه ذابلة تماماً.

دفَّأناه، ألبسناه ملابسَ أخرى، ورحنا ننتظر الطَّبيب ونتساءل عن هُويَّته. لم يكن ثمَّة من رآه منَّا من قبل في عيتات، ولكن في ذات اللَّحظة الَّتي كان يدخل فيها نضال وعبد الكريم الخمسينَ كان أبو الفوز يقفز في مكانه صارخاً: عرفته، عرفته، هذا حليم، أنا متأكِّد أنَّه حليم.

(4)

تركوني أيَّاما أرتِّب أفكاري!

أمرني المحقِّقُ الجديدُ أن أجلس فجلست، أمر بفكِّ وثاقي، وطلب لي القهوة، وأعطاني سيجارة أشعلها لي. سألني عن رأيي في التَّحقيق والمحقِّقين، ودون أن ينتظر جوابي راح يعتذر بلطف عن سوء المعاملة والتَّعذيب، وراح يشرح لي صعوبة عمل المحقِّقين، وتعاستهم، وآلامهم، ومشاكلهم، قضى ساعة وهو يتحدَّث بلا توقُّف وأنا أهزُّ رأسي. كنت أَعتقد أنَّهم أدركوا بطريقة ما، أنِّي سعيد.

كان كلَّما أشعل سيجارة يرمي لي بأخرى، ويقذف نحوي بالولاَّعة الَّتي ما كان يمكن لمحقِّق أن يعطيها لسجين لأنَّه يدرك أنَّها سلاح خطير بيده.

فكَّرت في أمرين: إمَّا أن يكون غبيًّا، وإمَّا أنَّه يحاول أن يوصل لي رسالة ما، بالثِّقة، ورجَّحت الثَّانية لأنَّها كانت أقرب إلى أسلوبه في الحديث.

قذف نحوي بتفَّاحة حمراء...

- كل....

شكرته ورحت أقضمها، كنت أحسُّ بالجوع.

- الآن سنعود إلى لبِّ الموضوع.

- ....

- أريدُ أن أبدأ من الصِّفر، من البداية، قل لي ما اسمك؟
- سعيد.
- سعيد ماذا؟
- سعيد أحمد محمود الدُّوري.

ابتسم....

- الآن أنت تعرف عنِّي أكثر ممَّا تعرف زوجتي، ألا ترى أنَّنا صرنا أصدقاء؟
- صدِّقني، لو كان لي اسم آخر لقلته، قلت وأنا ابتلع بقايا التفَّاحة وأمسح شفتيَّ بأطراف أصابعي.
- وخالد مرزوق؟
- اسم مزيَّف، الهويَّة كلُّها مزيَّفة، أَنا سعيد.
- لكنَّنا متَّفقَينِ على أنَّ سعيداً مات في لندن، كيف يمكن لك أن تُصرَّ على أنَّك سعيد، مع أنَّك تعرف أنَّه مطلوب لكلِّ العالم، ومتَّهمٌ بجرائم قتل؟ أنا أحاول أن أُساعدك، ألا تفهم؟
- ربَّما تشابه أسماء.
- أفهم تشابه الأسماء، لكنَّني لا أفهم تشابه اسم الأُمِّ، وتاريخ الميلاد، والبصمات، سعيد الَّذي تتحدَّثُ عنه ميت!
- أيَّة بصمات؟
- بصمات الميت مع بصمات سعيد المحفوظة لدينا في أرشيف الأحوال المدنيَّة.

تذكَّرت أنَّي حين حصلت على بطاقتي الشخصيَّة أوَّل مرَّة، بصمت بالخمسة أمام الموظَّف، قفزت من مكاني كالملسوع ما جعل المحقِّق يفاجأُ بحركتي ويقفز من مكانه.

- بصماتي موجودة لدى دائرة الأحوال المدنيَّة.

ضحك محاولاً أن يخفي انفعاله... عاد يجلس في مكانه.

- وهل تعتقد أنَّنا نجهل ذلك؟
- يمكنكم مقارنتها ببصمات كفِّي، قلت وأنا أمدُّ أصابعي في الهواء.
- قارنَّاها ولم تتطابق معها.
- مستحيل، هناك إذن خطأ ما.
- لا يوجد أَخطاء، قل لي من أَنت؟
- أَنا سعيد...
- دعنا نتَّفق على السُّؤال الأوَّل، دعنا ننتهي منه كي ننهي هذه القضيَّة بسلام....

ما كان يحيِّرني هو إصرارهم على اعترافي باسم ما، كنت أتساءل: لماذا لا يضعونني في زنزانة ويتركونني حتَّى أَتعفَّن وأموت؟ أنا هنا رجل زائد بلا حيِّز، وما دمت كذلك فموتي وحياتي سيَّان... ما الَّذي يدفعهم إلى فعل كلِّ ما يفعلون؟..

شعرت أنَّ كميناً محكماً يعدُّ لي.

كيف يمكنُ أن أثبتَ أنِّي سعيد؟ وهل عليَّ أن أثبتَ ذلك بالفعل؟ هل يمكن أن تكون اللِّعبة صعبة ومعقَّدة إلى هذا الحدِّ؟ كيف يمكن لي أن أتنازل عن أبسط الأشياء، عن اسمي؟ ولو اعترفت بأنِّي لست سعيدا فمن إذن سأكون؟ خالد مرزوق؟ هم معترفون بأَنَّ البطاقة مزوَّرة، ولا يصرُّون أَبداً على اسم خالد، ما الَّذي يريدونني أَن أَعترف به؟ لمن سأشكو همِّي وغريمي القاضي الَّذي بوسعه أن يلفِّق لي تاريخاً بلا نهاية ولا بداية؟

كان اسمه كمالاً.

في كلِّ يوم يرتدي بنطالاً وقميصاً جديدين، لكنَّها جميعاً متشابهة لا تختلف إلاّ بألوانها، كان شديد الاهتمام بأناقته، حليق الذَّقن والشَّاربين،

قصير الشَّعر، يطلُّ من عينيه طموح لا تعرف مداه، لكنَّك بعد فترة بسيطة إن استطعت أن تتتبَّع مسار الحديث معه، ستجد أَنَّه شديد الخبث والدَّهاء، ولو تركت نفسك على سجيَّتها معه لخسرت كثيراً، لأَنَّه كان إذا ما أراد أن يصل إلى أَقصى الشَّرق يبدأ بسؤال من أقصى الغرب، ثمَّ شيئاً فشيئاً يبدأُ بالزَّحف نحو هدفه بهدوءٍ ورويَّة، لذلك، كثيراً ما كنت أَتوقَّف عند أَيِّ سؤال يلقيه عليَّ لأَسأل: ما الَّذي يريده من ذلك السُّؤال؟ وإلى أَينَ يريد أَن يصل؟

حاول أن يوهمني بأنَّه يكره مهنته تلك على الرُّغم من كلِّ ما فيها من امتيازات، ويتمنَّى لو أنَّهم ينقلونه إلى أيِّ مكان آخر في العالم، حتَّى لو كان زيمبابوي، ليتخلَّص من تلك الوجوه الَّتي يبدأ بها نهاره الطَّويل الَّذي لا يعرف متى يبدأ، ومتى ينتهي.

- الدُّنيا تغيَّرت.

قال وهو يرتشف القهوة ويشعل سيجارته.

- في كلِّ مكان هناك حرسٌ قديم، أنت تدرك هذا، حتَّى في البيت، هنالك الأب والأمُّ من جهة، والأولاد من جهة أخرى، ونحن لدينا الباشوات والمخاتير الَّذين لا يقتنعون أبداً بأنَّ الدُّنيا قد تتغيَّر، ولا يعترفون بالهزيمة، نحن تغيَّرنا، أنت ترى معظمنا يحملُ شهاداتٍ عُليا من أوروبَّا، وأمريكا، لكنَّهم يريدون للأشياء أن تبقى في ذات الثَّوب، الثِّياب يا صديقي تبلى، وتهترئ، ألست معي؟ هززت رأسي موافقا.

- التَّعذيب ما عاد لغة العصر، ما عاد لغةً للتَّفاهم بين البشر.

عدت أهزُّ رأسي من جديد...

- اشرب قهوتك قبل أن تبرد...

تناولت الفنجان، ارتشفت منه رشفة طويلة، ناولني علبة تبغه.

- دخِّن، هناك دائماً طريقة للتَّفاهم بين البشر المتحضِّرين.

أشعلت سيجارة ورحت أنفث دخانها في الهواء.

- قد نختلف في الآراء، لكنَّ الاختلاف لا يفسد للودِّ قضيَّة، نحن أيضاً نقبل النَّقد، ونعترف بأنَّ لنا أخطاء، لكنَّا نعرف أيضاً أنَّ هناك خطوطاً حمراء لا يُسمح بتجاوزها، بوسعك أن تقول ما تريد، أن تعترض، أن تشتم إذا أردت، لكن لكلِّ شيء حدٌّ، هناك أياد كثيرة تحاول العبث بالبلاد، وأمنها، ونحن، وظيفتنا أن نبحث عن هذه الأيادي ونقطعها من الرُّسغ أَوَّلاً، ثمَّ من الكتف، يجب أن نحافظ على الأمن والاستقرار، كلُّ ذلك من أجل المواطن الَّذي ائتمننا على حياته، وأدار ظهره، ونام.

تنحنح، ابتلع لعابه، وأشعل سيجارة أخرى وعاد يقول:

- أنت تعرف، لكلِّ لعبة قوانين، هل تستطيع أن تلعب كرة القدم مثلاً خارج حدود الملعب؟ إذا ارتضيت اللِّعبة فعليك أن توافق على قوانينها، لا تقل لي إنَّك تؤمن بأنَّ فلسطين يمكن أن تتحرَّر بالحجر، أو حتَّى ببندقيَّة الكلاشنكوف.

أردت أن أعلِّق فقاطعني:

- نحن أكثر واقعيَّة وذكاء، نحن نرى الأمور بعينين اثنتين، "إسرائيل" تمتلك من الأسلحة ما تستطيع به إبادة العالم، هل تؤمن بالانتحار؟

سألني، ولم ينتظر الإجابة.....

- الفضيلة في هذا الزَّمن هي أن تحافظَ على نفسك من الاندثار، أن تبقى على قيد الحياة ربَّما لكي تنهض ذات يوم من جديد.

مدَّ يده إلى داخل الدُّرج، أخرج مجلَّداً أخضر كنت أحفظه عن ظهر قلب، أثار دهشتي وفضولي وهو يقلِّبه بين يديه.... هل قرأت غسَّان كنفاني؟

"كان ذلك زمن الاشتباك. أقول هذا لأنك لا تعرف: إن العالم وقتئذ يقف على رأسه، لا أحد يطالبه بالفضيلة. سيبدو مضحكاً من يفعل.. أن تعيش كيفما كان وبأية وسيلة هو انتصار مرموق للفضيلة. حسناً. حين يموت المرء تموت الفضيلة أيضاً. أليس كذلك؟ إذن دعنا نتفق بأنه في زمن الاشتباك يكون من مهمتك أن تحقق الفضيلة الأولى، أي أن تحتفظ بنفسك حيّاً. وفيما عدا ذلك يأتي ثانياً. ولأنك في اشتباك مستمر فإنه لا يوجد ثانياً: أنت دائماً لا تنتهي من أولاً."

كم كان ماهراً في تزييف الحقائق!

حين سألني بعد أن أفرغ كلَّ ما في جوفه من كلام عن رأيي بما قال، استأذنته بسيجارة معتقداً أنَّها السِّيجارة الأخيرة الَّتي سيسمح لي بها قبل أن ينفجر بوجهي، لكنَّني كنت مخطئاً، إذ إنَّني لم أتوقَّع أنَّه يمتلك كلَّ تلك القدرة على الصَّبر. أشعلت السِّيجارة ورحت أتلذَّذ بها.

- أنا أفهم أنَّني لن أحرِّر فلسطين بالحجر، وببندقيَّة الكلاشنكوف، لكنَّني كما قرأتَ لي، أحاول أن أحافظ على بقائي في زمن الرَّذيلة، دون أن أستسلم، ولا أحاول أن أبقى على قيد الحياة بالاستجداء..... بل بالبندقيَّة الَّتي تحفظ الحدَّ الأدنى من كرامتي، من الَّذي جعل من "إسرائيل" غولاً؟ وأين كنَّا نحن؟
- أنت تعرف أن المسألة ليست فقط "إسرائيل"، أريد أن أذكِّرك أنَّ روسيا هي أوَّل من اعترفَ "بإسرائيل"، وأمريكا هي الأب الرُّوحيُّ لها، أنت تعرف.. لكنَّك تتجاهل ذلك...

هززت رأسي...

- صحيح، أدرك ذلك، ولكنِّي لا أعرف ماذا يفعل بيريز هنا، في عقر الدَّار!
- بيننا اتفاقيَّات دوليَّة نحاول من خلالها أن نحافظ على ما تبقَّى من الفلسطينيِّين، ومن فلسطين.
- وماذا تبقَّى من فلسطين؟
- نحن نكبِّل "إسرائيل" الآن بعشرات المواثيق الدوليَّة، ونحقِّق لنا وللفلسطينيِّين ما لم نحقِّقه يوماً بالحرب، مصر حاربت ثلاثين عاماً ولم تجن شيئاً، ثمَّ استعادت سيناءَ بالسَّلام.
- ومنذ متى التزمت "إسرائيل" بالأعراف والمواثيق؟ منذ متى توقَّفت عن القتل وسفك الدِّماء واحتلال الأرض، وبناء المستوطنات؟ مصر أعادت سيناء، وخسرت مصر.
- الآن توقَّفت، انسحبت من غزَّة ومن أريحا كخطوة أولى للانسحاب، أرأيت؟
- وهل تعتقد أنَّها بالفعل ستسلِّم الضفَّة للفلسطينيِّين، وتعترف بدولة لهم؟ المشكلة أنَّنا لا نريد أن نفهم عدوَّنا أبداً، لا نريد أن نعرف أنَّ "إسرائيل" تدرك تماماً أنَّ بداية الانسحاب هو بداية نهايتها، لا يمكن لإسرائيل أن تضع دولة فلسطينيَّة على حدودها، ما لديها معروف، وواضح، لكنَّا لا نريد أن نراه، مقولة الأمن الإسرائيلي يجب أن تُكسر كلَّ لحظة لتظلَّ "إسرائيل" على قلق... هكذا فقط يمكن باعتقادي أن تبدأ "إسرائيل" بتقديم التَّنازلات، "إسرائيل" قائمة على مقولة الأمن...

- "إسرائيل" تتذرَّع بالأمن لتنفِّذ مخطَّطاتها التَّوسعيَّة الاستيطانيَّة، لكنَّ العالم يمكن أن يلزمها بالقوَّة، وعلينا لذلك أن نكون داخل اللِّعبة لا خارجها، جرَّبنا الحرب وأنت تعرف النَّتيجة.
- وهل حاربنا؟
- وماذا كان جمال عبد النَّاصر يفعل؟ هل كان يلهو بخصيتيه؟

ثمَّة عشرات الأجوبة الَّتي كانت تطوف في رأسي، ولم أكن قادراً على أن أذكرها له، لأنَّني كنت أدرك أنَّ المسافة بيننا بعيدة، وأنَّنا خطَّان متوازيان لا يمكن لهما أن يلتقيا.

(5)

ليلى هي السَّبب.

فمثلما تكون المرأة عارية من المساحيق أمام المرآة في الصَّباح يكون الرَّجل عارياً من الرُّجولة حين يتوه في دوَّامة الحبِّ.

لا يوجد ثمَّة من يختلف على طفولة الرَّجل حين يقع في براثن الحبِّ، وعلى حماقته، خصوصاً إن كان لا يزال غرَّاً لم يمارس التَّجارب الحقيقيَّة مع النساء.

ما زلت أذكر ذلك الصَّباح البارد الَّذي اقتادني فيه أبو الفوز إلى شاتيلا، بعد عثورنا على حليم بأَيَّام.

سرنا طوال الطَّريق مُحاولين أن نتجنَّب الوقوعَ في كمائنِ الجيش، راح أبو الفوز يروي لي ما يعرفه عنه، كانا قد حاربا معا في صور قبل الانسحاب إلى بيروت، حيث اختفى حليم تماما بعد ذلك، ورُويَ عنه أنَّه ظلَّ يحارب حتَّى النَّفس الأخير، وأطلق النَّار على المنسحبين ومن بينهم الحاج إسماعيل نفسه.

دخلنا أخيراً مخيَّم البرج فتنفَّسنا الصُّعداء، ثمَّ سارت بنا العربة حتَّى شاتيلا.

ثمَّة ما كان أبو الفوز يحاول أن يخفيه في أعماقه فيفشل....

سائق اللاندروفر الَّذي أَقلَّنا من شملان إلى بيروت كان من نمور التَّاميل الَّذين يتلقَّون التَّدريب على أَيدي الفلسطينيِّين، ظلَّ طوال الطَّريق

يحاول جاهداً أَن يشاركنا الحديث بلغته العربيَّة الرَّكيكة، لاعناً الحاج إسماعيل، وكلَّ الَّذين انسحبوا معه وتركوا الطَّريق مفتوحة لجنود العدوِّ حتَّى بيروت.

أحسسنا بالرَّاحة حين وصلنا إلى شاتيلا، ودَّعناه ونحن نشعر بالنَّدم لأنَّنا ركبنا معه لكثرة ما ظلَّ يثرثر، سرنا عبر الأَزقَّة الموحلة والشَّوارع الضيِّقة.

رحت أتأمَّل الشَّوارع والطُّرقات الَّتي كانت مسرحاً لفضيحة الموت منذ سنة فقط!

هنا إذن، على هذه الأرض، في هذه الطُّرقات والأَزقَّة تناثرت الجثث الَّتي ملأت صورها الدُّنيا ولم تحرِّك مشاعر أحدٍ في الكون. شعرت بالألم يعتصرني وأنا أحدّق إلى الشَّوارع، والطُّرقات، وأتخيَّلُ الجثث متناثرة فيها.

كان المخيَّم هو المُخيَّم....

أينما حللت ثمَّة وجه واحد للمخيَّم الفلسطينيِّ لا يتغيَّر، وكأنَّ يداً واحدة هي الَّتي نسجت كلَّ خيوطه وتفاصيله....

السُّقوف الواطئة، والأزقَّة، والحارات، والأبواب المتهالكة، والنَّوافذ الَّتي تشي بأسرار البيوت، والمجارير، والماء الآسن، والشِّعارات الثوريَّة على الجدران، وملصقات الشُّهداء، والوجوه الَّتي تضجُّ بالفقر والجوع والتَّعب والخوف، والذُّباب، والجرذان، والقطط، والكلاب الضَّالة، والمخبرون، والباعة المتجوِّلون.

ما زالت آثار النَّوم بادية على وجوه الجميع..

شقَّ أبو الفوز طريقه وسط المجارير الَّتي كانت تطفح بالماء، طرق باباً متهالكاً ووقف ينتظر وأنا خلفه، أطلَّت بعد لحظات امرأة نحيلة بوجهها الأسمر وعينيها الذَّابلتين، بدت قد تخطَّت الخمسين بقليل على الرُّغم من سواد شعرها المصبوغ المتهدِّل على كتفيها، وما إن رأت أبا

الفوز حتَّى فتحت ذراعيها في الهواء وابتسامتها تملأ وجهها، وتكشف عن سنَّين اثنين مفقودين في فكِّها الأعلى، رمت بنفسها بين ذراعيه، تعانقا طويلاً، وقبل أن تدعوه إلى الدُّخول أشار نحوي قائلاً:

- هذا رفيقنا سعيد، ثمَّ أشار نحوها وقال:

- هذه دلال، أمُّ أحمد، أختي في الرّضاعة.

ضَحِكَتْ وسحبته من يده إلى الدَّاخل، اجتزنا ممرَّاً قصيراً يفضي إلى فناء صغير، ودلفنا إلى غرفة ضيِّقة تطلُّ على الفناء، ثمَّ أحَضَرتْ المدفأة وأغلَقَتْ خلفها الباب اتِّقاءً للبرد.

- ما زلت كما كنت يا فوَّاز.

أشار أبو الفوز إلى شعره المليء بالشَّيب لامزاً:

- ما عدا شعري فقد أصبح أكثر سواداً بعد أن نزعت بياضَه الشَّمس.

رفعت سبَّابتها في الهواء....

- ولك كس أختك، ما راح يتغيَّر فيك شيء حتَّى تموت، صبغتُ غُرَّتي فقط..

رمى بنفسه فوق الأريكة العتيقة وهو يضحك، بينما التفتت هي إليَّ:

- كيف تمشي مع هذا الشَّرموط، ألا تخاف أن يفسد أخلاقك؟

شعرت بالخجل، ورسمت على شفتيَّ ابتسامةً بلهاء، ولم أدر كيف أردُّ على سؤالها فظللت صامتاً.

كان أبو أحمد-زوجها- قد استشهد في تلِّ الزَّعتر، واضطرَّت مثل كلِّ الفلسطينيِّين هناك إلى أن ترحل بعد أن مُسِحَ المخيَّم عن الوجود، وهاجر سكَّانه إلى صبرا والبرج وشاتيلا.

سألها أبو الفوز عن الأحوال بعد أن اتَّخذ هيئة جديَّة، فانقلبت كأنَّها امرأتانِ تعيشان في جسد واحد، أجهشت بالبكاء وهي تروي له كيف أطلقوا النَّار على رأس سعدي الصَّغير ليلة المجزرة، وكيف احترقت سلوى، لعنت المخيَّم، وعرفات، واليسار، واليمين، وسوريا، ولبنان والعرب، والنَّاس، والحياة.

- تركونا للكلاب تنهش لحمنا.

انقلب أبو الفوز وراح يهدِّئ من روعها، وأنا بالكاد أسيطر على دمعتين تكادان تهربان من عينيَّ، كنت أريد أن أسألها عن تفاصيل ليلة المجزرة لكنَّها نهضت وهي تمسح دموعها واستأذنت، خَرَجَتْ وهي تعتذر، وراح أبو الفوز يشير إلى كرنفال الصُّور المعلَّقة على الجدران:

آية الكرسيِّ، والمعوِّذات الثَّلاث، وصورة لعرفات، وأخرى لحبش، وأخرى لحواتمه، وجيفارا، وأبي أحمد، وأحمد، وسعدي، وسلوى، وغزال مذبوح والدَّم لا يزال يسيل على الأرض، وعيناه شاخصتان دامعتان، وصور أخرى كثيرة لا تعدُّ....

عادت وفي يدها القهوة، وخلفها كانت ليلى.

انتفض قلبي حين رأيتها. هادئة كانت، عميقة، حزينة، صافَحَتْ أبا الفوز، ثم ذابت كفُّها في كفِّي وكأنَّها بلَّور سكَّر.

جلست قبالتي تماماً وانساب شعرها الفضيُّ على المقعد، العينان خضراوان كعشب نيسان، والبشرة كأنَّها اشتُقَّت من بياض الياسمين، والخصر نحيلٌ، والصدر عالٍ، شاهقٌ، والشَّفتان ورديَّتان مكتنزتان كحبَّتي كرز، ربَّما كانت تشبه أباها أكثر.

"منذ متى لم أر فتاة بمثل هذا الجمال؟ بل متى رأيت فتاة بهذا الجمال؟"، سألت نفسي ثم فكَّرت: متى رأيت امرأة حقيقيَّة آخر مرَّة؟

نَظَرتْ إليَّ فكاد يغمى عليّ...

كيف يمكن أن أفسِّر الحبَّ الَّذي ينبثق فجأة من الهواء... من الأرض... من السَّماء... من الجدران... من كلِّ ما حولي؟... كيف يمكن للقلب أن ينفطر هكذا بلا مقدِّمات؟

ميشيل قال لي منذ أيَّامٍ قليلةٍ إنَّ الجسد مصنوع من تراب، والتُّراب مصنوع من موادَّ صلبة كتلك الَّتي تملأ الأرض، وهذه المواد تتجاذب فيما بينها وتتنافر، وهذا ما يفسِّر الحبَّ من النَّظرة الأولى.

شكرت أبا الفوز في أعماقي لأنَّه أحضرني إلى هنا، نظرت إليه بودٍّ وامتنان وهو غارق في حديثه، كان جسده يتكلَّم أكثر من لسانه.

وَقَفَتْ ومرَّت كالفراشة من أمامي، لفت سواد ملابسها انتباهي، بنطالها الأسود الفضفاض، وقميصها الأسود الَّذي أظهر أطراف النَّهدين، لاحقتها بعينيَّ وهي تغيب في فناء الدَّار بخطى متأنِّية.

فكَّرت: ربَّما ما زالت تلبس الحداد على أبيها وإخوتها.

وفكَّرت: هل هي المصادفة الَّتي تجمع النَّاس أم هو قدر مرتَّبٌ منذ الأزل؟

وفكَّرت: هل هذا التَّجاذب هو تجاذب المادَّة أم الرُّوحِ، أم كليهما معاً؟

وفكَّرت: هل تشعر بي كما أشعر بها، وهل شعرت بنظراتي وإعجابي؟

وفكَّرت: ماذا يفعل مثلي بالحبِّ، أنا الضَّائع الجائع المشرَّد المحكوم بالموت، ماذا بوسعي أن أفعل بالحبِّ؟

قضيت عمري وحيداً أحلم بالحبِّ...

أفقت عليها وهي تعود وفي يدها دلَّة قهوة أخرى، وخلفها شقيقها أحمد يتهادى ونصفه العلويُّ عارٍ على الرُّغم من برودة الجوِّ، كان يرتدي بنطال جينز أَزرق فقط، والماء يقطر من شعره الطَّويل المبلول المتهدِّل على

كتفيه، ذقنه مهملة، وكذلك شارباه، سالفاه طويلان يكادان يتّصلان بشاربيه، نحيل الجسد، طويل القامة، يميل إلى السُّمرة قليلاً عكس ليلى، ربَّما كان يحمل ملامح أُمِّه أَكثر.

عانق أبا الفوز، وصافحني وجلس قرب المدفأة، بينما عادت ليلى لتجلس في ذات المقعد، وراحت تسكب القهوة.

عدنا لاحتساء القهوة والتَّدخين، وأبو الفوز يكوِّر قبضتيه ويمدُّهما كعادته في الهواء ويحرِّكهما كالدُّولاب ويضحك فيضحك خلفه الجميع.

دافع أحمد عن خروج عرفات والمقاومة من لبنان، وهاجم المنشقِّين عن فتح بقيادة أبي موسى، واتَّهمهم بالعمالة لسوريا، وحمَّل الحاج إسماعيل مسؤوليَّة الهروب من الجنوب، وأنكر أنَّه تلقَّى برقيَّةً من عرفات يأمره فيها بالانسحاب من اليوم الأوَّل للهجوم، بينما راح أبو الفوز يؤكِّد أنَّ الحاج إسماعيل لم يكن قادرا لا هو ولا غيره على اتِّخاذ أيِّ قرار دون الرُّجوع إلى عرفات، وأنَّ عرفات كان يعرف بالاجتياح قبل حصوله، وأنَّه أخبر اللَّجنة المركزيَّة لفتح به، لكنَّه لم يتوقَّع أن يعبر الجيش الإسرائيليُّ نهر الأوَّلي، ويصل إلى بيروت، المعلومات الَّتي لديه من الوسطاء بينه وبين الأمريكان كانت تقول إنَّ الإسرائيليِّين لن يتجاوزوا نهر الأوَّلي، وإنَّ تلك ستكون مقدِّمة للمفاوضات والاعتراف بمنظَّمة التَّحرير من قِبَلِ أمريكا "وإسرائيل". بدا الخلاف واضحاً وعميقاً بين الطَّرفين....

تجادلا طويلاً، وكانت دلال بين الفينة والأخرى تتدخَّل في الحديث لصالح أبي الفوز، فيقمعها أحمد. ليلى التزمت الحياد والصَّمت، وأنا كنت غائبا في عالمٍ آخر. "لا بدَّ أنَّ فتاة بجمالها عرفت رجالاً كثراً!"، فكَّرت وأنا أنظر إليها.

كلَّما التقت عيناي بعينيها اندفعت أسراب الحمام إلى السَّماء ورفرفت بأجنحتها، فحجبت كلَّ شيءٍ إلاّ وجهها المضيء.

لا بدَّ أن أنحِتَ قصيدة لها لم يكتبها شاعر من قبل. حتماً ستفاجأ حين تعرف أنَّني أكتب الشِّعر، ربَّما سيكون ذلك مدخلا مختصرا إلى قلبها، فكلُّ النِّساء يذبن في الشِّعر المزيَّن بصورهنَّ، تذكَّرت شقاوتي في المدرسة، لم أفلح يوماً باصطياد فتاة قطّ، كان الحبُّ دائماً بعيداً، خجولاً، ولم تتعدَّ مهمَّتي يوماً في الحبِّ كتابة رسائل العشق والقصائد للأصدقاء، وحتَّى الغرباء الَّذين كانوا يأتونني من حيث لا أدري، بعد أن يرشدهم أحد ما لي، أو يقرؤون ما كتبت لغيرهم، فأجدهم يطرقون باب البيت متوسِّلين أن أكتب لعشيقاتهم الرسائل، كنت أرفض الكتابة دون رؤية الفتاة الَّتي سأكتب لها حتَّى لو من بعيد، ثمَّ أكتب وأنا أستحضرها وأتخيَّل أنَّها حبيبتي أنا لا حبيبة الغريب.

تساءَلت: كيف استطاعت أن تُخلِّصَ نفسها من براثن الذِّئاب ليلة المجزرة؟

هزَّني أبو الفوز فانتفضت كأنَّني أفيق من حلم لذيذ، فانتفض مثلي يقلِّدني.

ضحكوا جميعاً وسط الدَّهشة الَّتي علت وجهي، نَظَرتُ إلى أبي الفوز متسائلاً.

- أعطني الصُّورة. قال أبو الفوز.
- أيَّةُ صورة؟
- صحّ النَّوم، صورة عيسى، أين سرحت؟

شعرت بالإحراج وأنا أمدُّ يدي إلى جيبي، وأخرجِ الصُّورةَ المحفوظةَ بعناية في محفظتي وأناولها لأبي الفوز الَّذي راح يسرد لهم قصَّة عيسى كما سمعها منِّي مرَّاتٍ ومرَّات.

صار أحمد مسكوناً بالتَّعب، ارتخى جسده، وزاغت عيناه، وعلا وجهه الشُّحوب، فرك عينيه الذَّابلتين، حدّق إلى الصُّورة ثمَّ ناولها لأمِّه وهو يتمتم قائلاً إنَّهُ لم يره من قبل أبداً.

قال أبو الفوز إنَّ دلال قضت عشرةَ أعوام على جهاز اللاسلكيِّ المركزيِّ للتَّنظيم، وتعرف مقاتلين من الأحزاب والتَّنظيمات كافَّة، وإنَّ ليلى ورثت ذلك العمل عن أُمِّها.

حدَّقت دلال في الصُّورة الباهتة الَّتي لم تعد تشبه أحداً حتَّى عيسى نفسه، وأكَّدت أنَّها رأته ذات يوم لكنَّها لا تذكر أين ومتى، وقالت إنَّها ستتذكَّر حتماً، ولعنت ذاكرتها الَّتي علاها الصَّدأ.

تناولت ليلى الصُّورةَ بحذر:

- إن كان قد اختفى منذ ثلاثة عشر عاماً فأنا حتماً لم أره.

حدَّقَتْ في الصُّورة طويلاً وأبدت اهتماماً أكبر بالأمر، سألتني إن كان بوسعها الاحتفاظ بالصُّورة لأيَّام فوافقتُ مسروراً، على أن تحافظ عليها لأنِّي لم أكن أمتلك سواها، ابتسمت لي فَشَعَرتُ أنَّ الدُّنيا كلَّها قد ابتسمت معها، ابتَسَمَتْ بعد حزنٍ طويل، كانت تلك هي المرَّة الأولى الَّتي تتوجَّه فيها لي بالكلام، والمرَّة الأولى الَّتي أراها تبتسم منذ أن دَخَلتُ البيت، أكَّدت لي أنَّها ستعيد الصُّورة كما كانت، وستحافظ عليها أكثر منِّي.

قلَبَتْ دلالُ فنجاني بعد أن خضَّته جيداً وهو مقلوب فوق الصَّحن، ثمَّ تركته قليلاً لكي يتصافى.

- أتقرئين الحظَّ؟
- أقرأ، هل تؤمن بالفنجان؟
- أؤمن بالكأس، قلت مداعباً.

ابتسم أبو الفوز وهو يقلب فنجانه.

- الحظُّ الجيِّد خيرٌ من العقل الجيِّد..... قال.

تناوَلَتْ فنجاني وراحت تتأمَّل ما فيه....

- أنت أشدُّ براءة ممَّا كنت أتخيَّل....

ابتسمت، زحفت ليلى حتَّى أصبح وجهها ملاصقاً لوجه أمِّها....

- أين؟....

- هنا... هذه الحمامة....

- تبحث عن السَّعادة فلا تجدها..... أنت شقيٌّ....

هززت رأسي موافقاً...

- لكنَّك كثير الأمل... كثير الانتظار، لا تَكِلُّ ولا تَملُّ، ثمَّة من سيدخُلُ حياتَكَ ويقلبها رأساً على عقب....

نَظَرْتُ إلى ليلى وفكَّرت: "ربَّما هي!"

شَعَرَتْ بنظراتي، لأوَّل مرَّة أحسُّ أنَّها تشعر بنظراتي وتبادلني ذاتَ النَّظرات.....

- اسمع، ما رأيك أن تأتي معي إلى حليمة، العرَّافة، أؤكد لك أنَّ بوسعها أن تدلَّك على مكان أخيك.....

هززت رأسي رافضاً الفكرة جملة وتفصيلا....

- ماذا سيقول عنِّي الرِّفاق؟... وماذا بوسع حليمة أن تقدِّم لي؟

ابتَسَمتْ باستهزاء...

- كلُّهم يذهبون إليها.....

- لكنِّي لن أذهب.... اعتقدتُ أنَّنا نمزح ونلهو فقط بالفنجان...

- نمزح؟.... ولك يا ابن الشَّرموطة، قل لي ماذا قلت لك لا ينطبق عليك....

- كلُّ كلامك صحيح....

- أتعتقد أنيِّ أمزح؟....
- لا... كنت فقط أستثيرك... قلت وأنا أشعر بالخجل، والاستسلام.... تفادياً للسانها السَّليط.
- أكملي...
- لن أكمل... سأرى فنجان فوَّاز..... قالت وهي تتناوله من أمامها ثمَّ سألت:
- لم تخبرني عن حال أختك زينب....
- ما زالت في صور...
- وزوجتك؟...
- في اليرموك....
- اسمع....

راحت تؤكِّد له أن زوجته تخونه مع رجل ما، ولكي تؤكِّد كلامها أدارت الفنجان نحوه....

- أترى هذه الأفعى؟.... وهذا الوجه؟.... إنَّه وجه زوجتك، وهذه الأفعى تؤكِّد لك خيانتها.... أعني ربَّما ليس مع رجل، لكنَّها تخونك بشكل ما..... أستغفر الله العظيم!

قفز أبو الفوز من مكانه ضاحكاً....

- يا بنت الكلب، أتظنِّين أنَّ كلَّ النِّساء مثلك.... زوجتي بمائة رجل....
- صحيح، ابق على هبلك، تغيب عنها أَشهر ثمَّ تقول إنَّها ملاك، وتريدني أن أُصدِّق يا أَهبل، قالت.... ثمَّ أعادت الفنجان إلى مكانه وابتسمت في وجوهنا، فظهر الفراغ واضحاً بين أسنانها.

- كنت أمزح فقط لكي أغيِّر هذا الجوَّ الكئيب..... لكنِّي أتحدَّث عن حليمة بجديَّة.... صدِّقني إن ذهبت إليها لن تندم أبداً.

قالت وهي تنظر نحوي، فلم أجب.

تناولنا طعام الإفطار دون أحمد الَّذي كان قد تركنا وخرج، ثم خرجنا إلى مقرِّ التَّنظيم.

* * *

في تلك اللَّيلة بعد أن عدت إلى عيتات صرت أعرف ليلى أَكثر. جلسنا منهكين بعد الاشتباك، وراح أبو الفوز يحدِّث الرِّفاق عن رحلتنا إلى شاتيلا ويضحك وهو يعلِّق على شرودي منذ أن رأيت ليلى، عيناه كانتا عينَيْ قنَّاص. كنت أتحرَّق شوقاً لمغادرة الصَّالة إلى سريري لكي أفكِّر بها بهدوء، وأكتب لها القصيدة الَّتي بدأت كلماتها تختمر في أعماقي. وحده نضال كان شارداً وكأنَّ الحديث لا يعنيه ما أثار فضول الجميع. نهض وتركنا لضجيج الضَّحِكِ الَّذي كان صداه يعبر اللَّيلَ إلى الطَّرف الآخر فيثير حفيظة جنود العدوِّ، ما يجعلهم يرفعون أصواتهم بالشَّتائم البذيئة فنردُّ بين الحين والآخر بشتائم أبشع منها.

حاولت أن أستأذنهم بالنَّوم فجرُّوني من ثيابي وأجلسوني عنوة، لم يتركوني حتَّى بَلَغَتْ السَّاعة العاشرة، موعد بداية الحراسة اللَّيليَّة أمام الموقع، وزَّع أبو الفوز نوبات الحراسة ونهض الجميع إلى النَّوم باستثنائي، طلبت أن تكون نوبتي هي النَّوبَة الأولى، وخرجت حاملاً بندقيَّتي وجهاز اللاَّسلكي، وفي جيبي خبَّأْتُ ورقةً وقلماً، وقبعت فوق أكياس الرَّمل

أراقب الطَّريق، وأفكِّر، وأكتب في العتمة محاولاً أن أجعل القلم يتلمَّس طريقه كالأعمى فوق الورق.

"وجهان للحبِّ القَديم، ومقعدٌ..."

فكَّرت مرَّة أخرى.... وعدت أكتب من جديد....

"أخطأني الموت وأوجعني...
حبُّ امرأة كانت تشبهني
لولا الحبُّ على سفرٍ
قد عشتُ غريباً في الدُّنيا
أتساءل دوماً من يا قلبُ وراء البابِ
فَيفضحني صوتي والرِّيحُ وأغنيةٌ
قالت أمِّي:
قد جئتَ غريباً للدُّنيا
وتَموتُ غريباً
لا امرأة تقرئكَ سلاماً
أو تهديك على عجلٍ
من بعد مماتي
فيءَ حمامْ

فكَّرت: لا بدَّ أن أكتب عنها لا عن نفسي، عن مشاعرها لا عن مشاعري، وعليَّ لكي أتمكَّن من ذلك أن أغوص فيها حتَّى أبعد نقطة في أعماقها.

قطع أفكاري الصَّوتُ الَّذي ارتَفع من جهاز اللاسلكيِّ، قفزت نحوه وأخفضت الصَّوت كي لا يُفتَضح مكاني في العتمة، توقَّف نبضي فجأة وارتفع صوتُ أنفاسي، ثمَّ خفق قلبي بشدَّةٍ، وصعد الدَّمُ إلى رأسي وأنا أسمع صوتها يناديني عبر الجهاز.

لم أكن أحلم، كان صوتها هي بالذَّات، أُصِبْتُ بالدَّهشة والارتباك، فأنا لم أكن معتاداً على المصادفات السَّعيدة المعقَّدة.

- أسمعك، قلت وأنا أضغط على الزرِّ الجانبيِّ ثمَّ رفعت إبهامي عنه كي أسمعها.
- كيف كان الاشتباك؟ جاء صوتها مشوَّشا.
- مثلما كان كلَّ يوم، لا جديد.

قلت وأنا أحاول أن أسيطر على أنفاسي، وكلماتي.

- أتدرين ماذا كنت أفعل؟

ظلَّت صامتة بانتظار أن أُجيب.

- كنت أكتب شعراً، قلت..
- أنت شاعر؟
- يعني، مشروع شاعر... ضَحِكتُ.
- ماذا كتبت؟
- سأقرأ لك....

جَمَعتُ أشتات ذاكرتي محاولاً أن أتذكَّر ما كتبت، ثمَّ شرعتُ أقرأ لها الكلمات الَّتي كتبتها للتوِّ....

- أنت شاعر جميل.
- شكراً.
- لكنَّك حزين.
- مثلك حزين.
- أنا لست حزينة، لا تدع المظاهر تخدعك!
- رأيت هذا واضحاً اليوم.
- ربَّما، لست أدري.
- تخفين شيئاً؟

- ما الَّذي يمكن أن تخفيه فتاة مثلي؟ تنهَّدت.
- لست أدري، ابتلعت لعابي بصعوبة، وقلت محاولاً أن أتغلَّب على خوفي:
- أتدرين لمن كتبتُ هذه الكلمات؟
- لي؟

فاجأتني، تلعثمت، ومع ذلك شعرت أنَّها اختصرت عليَّ طريقاً طويلاً.

- نعم، كيف عَرَفتِ؟
- خمَّنت، قرأت نظراتك اليَوم.

أردت أن أشرح لها ما سمعته من ميشيل عن تجاذب الموادِّ، والأرواح، لكنَّني عدلت عن رأيي، وهمست:

- ألا يمكن للإنسان أن يحبَّ من اللِّقاءِ الأول؟
- يمكن، طبعا، ولكن هل يحتمل الإنسان نتائج الحبِّ الأوَّل؟

تنحنحتُ.....

- أنتم الرِّجال كذّابون.

فاجأتني صراحتها، سادت لحظة صمت طويلة.

- أصابع يدك ليست متشابهة، صدِّقيني.

ضحكت، ضحكت كأيِّ عاهرة على أيِّ رصيف، شعرت أنَّني أخطأت التَّقدير، ظلَّت تضحك حتَّى خُيِّل لي أنَّها تكاد أن تنقلب على ظهرها، فكَّرت بإقفال الجهاز والهرب منها.

- أتدري ما الَّذي يضحكني؟

لم أجب.

- كنت أراهن أنَّك ستجيبني بنفس الجواب.
- أنت فتاة غريبة.

- ألم أقل لك قبلاً لا تجعل المظاهر تخدعك!
- ربَّما أنتِ على حقّ.

شعرتُ بالخيبة والانكسار، رحتُ أفكِّر وأجمع أشتات نفسي المكسورة، وأحاول ما استطعت أن أنهي المكالمة معها بعد أن اكتشفتُ أنَّني لا أمتلك ما يمكن أن أقوله لها، وليس لديَّ قواسم مشتركة كثيرة معها كما اعتقدت، وأنَّها ليست كما تخيَّلتها. لكنَّها ظلَّت معي طوال ساعتَيْ حراستي تدير الحديث، وحين استأذنتها أخيراً بإيقاظ من يليني في الحراسة وإغلاق الجهاز، كنت أشعر بالتَّعب والخجل من نفسي، تنفَّست الصُّعداء، ثمَّ امتدَّت يدي إلى القصيدة ومزَّقتها.

(6)

سقط الدَّليل مسربلاً بجراحه، والرُّوح هامت، قال يا أرض ابلعي سيل الدِّماء، ويا سماء تفتَّحت أوراقُ جرحي، أقلعي.

فيض الزَّمان المُشتَهى، والأرض نامت فوق صدري، أقلِعي.

رحل الدَّليل إلى الدَّليل، وكلُّ أَبوابِ المَدينة أُقفِلَت، كُلُّ البِنايات العتيقة، والشَّوارع، والحواري، والمقاهي، والمساجد، والمتاحف، والكنائس، والحدائق، أنكرتني، كلُّ شيء في المدينة كان غيري، كلُّ شيء ليس لي أو ليس مِنِّي.

هكذا تبدو المدينة بعد ترحال المُغنِّي: مومسٌ في ثوب أُنثى، كُلَّما أَوغلتَ أبعد في العناصر لم تجد في الرُّوح إلاّ خيبة الحبِّ المؤجَّل في السَّعير.

حزب للسَّاقطين من أعالي الجبال إلى عمق المدينة نحو سقف السَّيل، أو مقهى السنترال أو سينما ريفولي، أو باحة المسجد الحسينيِّ الكبير.

حزب للبائعينَ الضَّائعين الَّذين يوزِّعون طوال العام الشَّتائم والشَّكوى.

حزب للهاربين من براثن القانون إلى قانون جديد.

حزب للخائبين الضَّالعين في وهم البقاء على قيد الحياة.

حزب للجائعين الخانعين، وحزب للُّوطيِّين، وحزب للَّذين ما زالوا يخرجون من بطنِ السَّيل غارقين في السُّكْر والوهم والخَراء.

عشر دقائق أخرى....

والمروحيَّاتُ ما زالت تدور في السَّماء تمشِّط المكان، ورجال الأمن فوق أسطح البنايات العالية مدجَّجين بالسِّلاح، والبلد يعجُّ بالـمُخبرين، والوجوه صفراء مغسولة بالعرق، والشَّمس حبلى، والأغاني الهابطة تصدح في أنحاء السُّوق.

كلُّ شيء يدلُّ على أنَّه قادمٌ لا محالة....

حتّى الَّذين تفاءلوا كثيراً ظنُّوا بأنَّه سيدور في مروحيَّةٍ عسكريَّةٍ في سماء عمَّان ثُمَّ سيمضي عائداً إلى مكان إقامته.

أمَّا هو، شيمون بيريز، فلم يكن يحلم بأن يدخل أسواق عمَّان ذات يوم بلا حرب، وأن يتجوَّل في شوارعها كأيِّ فاتحٍ عظيم، وسط أُناسها الَّذين ظنُّوا أنَّ الحرب قد انتهت، وأنَّ رائحة الدِّماء قد تُمحى بالصَّابون، وأنَّ الماء يغسل آثار البارود.

حين سألوا جولدا مائير عن مفهومها للسَّلام قالت: إنَّ السَّلام هو أن يتجوَّل اليهوديُّ في أسواق مصر وسوريا كأيِّ مواطن عربيٍّ بأمان. ذلك هو السَّلام إذن!

لم يحلم أبداً بمثل ذلك الاستقبال، ربَّما فكَّر وهو ينظر إلى الأيادي الممتدَّةِ نحوه:

"لا بدَّ أنَّنا أخطأنا التَّقدير كثيراً، فهذا الشَّعب يستحقُّ أَكثر مما نال!"

ابتسم وهو يشرب التَّمر الهنديَّ بكفٍّ وبالكفِّ الأخرى يصافح النَّاس.

هتفوا للسَّلامِ فهتف مثلهم بلغته العربيَّة المكسَّرة.

ثمَّة بعض الَّذين كانوا يراقبون المشهد باشمئزاز وقد وقفوا على الرَّصيف البعيد، وبدت آثار الصَّدمة واضحة على وجوههم.

لم يكن أحدٌ يعلم أنَّ بندقيَّتي في تلك اللَّحظة كانت مسلَّطة إلى رأس بيريز من غرفة في فندق جوار المسجد الحسينيِّ الكَبير، وأنَّ صمَّامها موضوع على آليَّة الرشَّاش تحسُّباً لأيِّ خطأ في التَّصويب، أو في دقَّة شُعيرة البُندقيَّة الَّتي لم أكن قد تعرَّفت إليها بعد.

ها نحن ذا نلتقي من جديد.

كان في لقائنا الأوَّل يبدو أصغر ممَّا هو عليه الآن لكنَّه الآن أكثر نشاطاً، سدَّدتُ البندقيَّة إلى رأسه تماما، بين العينين.

منذ أن علم خليل بنيَّته زيارة عمَّان، ونحن نخطِّط لاغتياله، قضيت يومين بانتظاره أراقب كلَّ ما يدبُّ في السُّوق.

حتَّى حين تغيَّر وجه البلاد وصار بوسع المنفيِّين التَّائبين وغير التَّائبين العودة رفضوني، ما كان بوسعي أن أثبت اسمي أو جنسيَّتي بعد أن أضعت جواز سفري ذات يوم لا أدري أين، وردَّت السِّفارة الأردنيَّة في دمشق طلبي بالعودة إلى الأردنِّ مرَّات ومرَّات.

سبعة أعوام بطولها وأنا أبحث عن أيِّ خيط يصلني بأُمِّي وإخوتي، وحين التقيت أخيراً بسامي قلب كلَّ شيءٍ فوق رأسي.

مسحت سيل العرق الَّذي تدفَّق من جبيني، عمَّان لها طعم آخر بالنسبة للفلسطينيِّ، هنا لم أكن ذات يوم أشعر بالغربة أبداً، هنا تضيع الملامح واللَّهجات والوجوه، هنا امتزج الدَّم بالدَّم والدَّمع بالدَّمع، لكن ثمَّة من ليس له مصلحة بكلِّ ذلك من الطَّرفين، ويحاول أن يفتح هوَّة لا تُردم بين النَّاس!

لا يمكن للمدن أن تتساوى!

كلُّ شيء ظلَّ خاضعاً لرقابة الأمن منذ أيَّام، وبالكاد استطعت أن أفلت من قبضتهم.

ثلاثة أسباب جعلتني لا أثق بعبد الحميد الَّذي رتَّب حضوري من درعا إلى الرُّمثا مع راعي أغنامٍ هرَّبني عبر الحدود:

الأوَّلُ أنَّ عبد الحميد ناداني باسم عائلتي أمام الرَّاعي حين رآني أوَّل مرَّة، وأنا أصلاً لا أعرف من أين جاء بذلك الاسم.

والثَّاني أنَّه لم يسألني عن كلمة السرِّ إلاّ بعد أن ركبنا السيَّارة إلى عمَّان.

والسَّبب الثَّالث الَّذي قصم ظهر البعير، أنَّه بدا واضحاً للقاصي والدَّاني أنَّ عبد الحميد يقيس المسافة بين المقهى الَّذي اخترنا سطحه للاختباء عليه والمكان المتوقَّع لمرور بيريز بقدميه، لم يستطع أن يقدِّر تلك المسافة بعينيه، ما أثار حفيظة رجال الأمن، فجعلهم يطلبون هُويَّاتنا الشَّخصيَّة.

كيف عثر عليه خليل؟ ومن أين جاء به؟

قرَّرت أن أقصيه عن العمليَّة، اخترت إحدى مئذنتَي المسجد في البداية للاختباء في أعلاها دون أن أُبلِّغه بذلك، وحضرت في اليوم التَّالي وحدي وعاينت المكان، ظللت طوال اليوم أراقب الوجوه محاولاً أن أميِّز رجال الأمن، تفقَّدت كلَّ الأماكن العالية الَّتي يمكن أن تكون مكاناً صالحاً لاختبائهم، كنت أدرك أن الحدث بالنِّسبة لهم كبيرٌ، وأنَّ مقتل بيريز هنا، في عمّان سيشكِّل إحراجاً كبيراً للدَّولة.

كانت عمليَّة اغتياله بحاجة إلى جيش من الأمن لا إلى رجلٍ مثلي يعمل وحيداً بلا سند ولا معين، لكن، لم يكن هناك بدٌّ من التَّجربة ما دام باستطاعتي ذلك، وما دامت حياتي بالنِّسبة لي لم تعد تساوي شيئاً!

كنت أدور بعينيَّ في المكان، وبين الوجوه.

علَّمني خليل ذات يوم أن أعتى القوى أيضاً تترك خلفها ثغرات بوسعك بقليل من الذَّكاء ودقَّة الملاحظة أن تدركها، وتخترقها من خلالها.

عاينت الأماكن، راقبت الوجوه في المسجد، صعدت أدراج المئذنة المعدنيَّة خلسة، تفقَّدت أعلى مكان فيها، ثمّة منصَّة معدنيَّة في الأعلى

صالحة تماماً للعمليَّة، تساءلت إن كان رجال الأمن سيفكِّرون باستخدامها أيضاً، كان عليَّ أن أُعدَّ خطَّة محكمة، عدت إلى الأسفل أفكِّر من جديد، لم يكن ثمَّة متَّسع من الوقت للوقوف على كلِّ التَّفاصيل، ودراسة كلِّ المكان، ولم أكن أعرف إن كان بيريز أصلاً سيمرُّ من ذلك المكان بالذَّات أم لا، ولم أشأ أن ألفت انتباه رجال الأمن لي مرَّة أخرى، كان عليَّ أن أجد مكاناً مُشرفاً على كلِّ السُّوق أكون فيه حرَّ الحركة، وقعت عيناي على فندق قديم إلى جانب المسجد، تحسَّست الهُويّة الَّتي أعطاها لي خليل قبل حضوري في جيبي، تلك الهويَّة الَّتي أنقذتني بالأمس، كنت أعرف أنَّ خليلاً لا يترك شيئاً للمصادفة أبداً، ولو ترك الأمر لي لما فكَّرت بذلك قطّ، قطعت المسافة من الباحة إلى باب الفندق ببطء، عدت أدراجي إلى البيت الَّذي وضعني عبد الحميد فيه في جبل عمَّان، لملمت كلَّ أشيائي، حملت البندقيَّة في الحقيبة وهي مفكَّكة إلى أجزاء، استأجرت سيَّارة تاكسي، أخبرته بوجهتي دون أن أعطيه اسم الفندق، عدَّد لي عشرة أسماء فنادق على الأقل، توقَّفنا أمام أكثر من فندق، وأخيراً، حين أصبحنا أمام ذات الفندق أومأت له بالموافقة، وتعمَّدت أن أجعله يحجز لي بنفسه غرفة في الطَّابق العلويِّ مطلَّة على السُّوق، كنت أعرف أنَّه كسائق لن يثير الشكَّ والانتباه، حمل لي حقيبتي وأوصلني إلى باب الغرفة فمنحته بقشيشاً سخيَّاً جعله يكثر من الدُّعاء لي وهو يغادرني، بعد أن أعطاني رقم هاتف المكتب الَّذي يعمل فيه لأتَّصل به حين أحتاج إلى خدماته.

تفقَّدت المكان جيِّداً، حدَّدت الزَّاوية الَّتي سأقف فيها خلف النَّافذة، أخفيت البندقيَّة بعد أن جمعتها وتأكَّدت من صلاحيَّتها، خبَّأتها مع الذَّخيرة خلف جسر السِّتارة الخشبيِّ العريض المثبَّت فوق النَّافذة، وجلست أنتظر.

كلُّ ما كان يخيفني هو أن يكتشف الأمن وجودي أو وجود البندقيَّة قبل العمليَّة.

حاولت أن أبدو طبيعيَّاً ما استطعت على الرُّغم من كلِّ ذلك التَّوتُّر الَّذي كنت أشعر به.

في صباح اليوم الَّذي كان بيريز سيحضر فيه جاؤوا، وتفقَّدوا المكان، وعاينوا الوجوه، وطلبوا الإثباتات الشَّخصيَّة، لكنَّ أحداً لم يشكّ بي.

كنت خائفاً لكنِّي استطعت أن أتغلَّب على خوفي بسهولة، وأن أمازحهم.

اختبأ رجل منهم فوق سطح الفندق، فوق غرفتي تماماً، ما جعلني أكثر توتُّراً وحذراً.

مسحتُ العرق الَّذي سحَّ على وجهي وعنقي بأكمامي، شعرت بالتوتُّر، في ذات اللَّحظة الَّتي ستخرج فيها الرَّصاصة لتستقرَّ في رأس بيريز سأجده هنا، أمامي بلمح البصر، ما همَّني موتي بعد موت بيريز، وسقوط كلِّ ما بنوه، هنا، أنا وحدي من يحدِّد شروط المعركة، كلُّ ما يبنونه على طاولات المفاوضات بوسعي أن أقوِّضه هنا بطلقة واحدة في الرَّأس، في الرَّأس تماماً.

سدَّدت، وضغطت على الزِّناد، دارت الدُّنيا وأدار بيريز ظهره لي، وناول بائع عرق السُّوس الكأس الفارغة، ضغطتُ على الزِّناد مرَّة أخرى، وأخرى، هززت البندقيَّة بيديَّ كالمجنون، تفقَّدت الرَّصاص، ثمَّ شعرت أنِّي وقعت في فخِّ الخديعة، ربَّما هو عبد الحميد الَّذي زوَّدني بالبندقيَّة، وربَّما هو سوء حظِّي فقط، أو حسن حظِّ بيريز!

أخرجت مسدَّسي الَّذي أحضرته معي من دمشق، تفقَّدت مشطَ الذَّخيرة، فتحت صمَّام الأمان، وهبطت الدَّرج مسرعاً بعد أن دسست

المسدَّسَ تحت ثيابي، خرجت إلى الشَّارع، وما إن خطوت خطوتين على الرَّصيف حتَّى وجدت نفسي محاطاً بفوَّهات البنادق، ورجلٌ بملابس مدنيَّةٍ يهتف عبر جهاز اللاَّسلكي متلهِّفاً:

- قبضنا عليه.... سيِّدي.

سادت لحظةٌ طويلةٌ بدا خلالها أنَّه يتلقَّى تعليمات من مسؤوله، في تلك اللَّحظة قفزت من بين يدي رجل الأمن الذي كان يمسك بي، وحاولت أن أندسَّ بين النَّاس، ركضت، اصطدمت بالأجساد الَّتي كانت مكدَّسة فوقَ الرَّصيف، سقطتُ على الأرض، انهالوا عليَّ بأعقاب البنادق، ثمَّة من ضربني على مؤخِّرة رأسي فأحسست به يرتجُّ كما لو أن زلزالاً هزَّ كلَّ جمجمتي، تحلَّق المارَّة حولي متفرِّجين، سال دمي على ملابسي وغطَّى الرَّصيف، قيَّدوني، وألقوا بي في السيَّارة الَّتي كانت تقف على طرف الشَّارع، وانطلقوا ببطء محاولين أن يشقُّوا طريقَهم وسط سيل البشر، وأنا بالكاد أرى الوجوه الَّتي امتلأت فضولاً وهي تندسُّ في العربة من خلف الضَّباب الَّذي غشي عينيَّ، غير مصدِّقٍ أنَّ بيريز نجا من الموت، وأنَّ الدُّنيا تدور وتدور وتدور وتدور، وأنِّي أسافر ببطءِ غريب في عالم بعيد.

(7)

كنَّا خمسة وصار سادسنا حليم!

أفاق أخيرا من غيبوبته الطَّويلة، أجال بصره في المكان مدهوشاً، رأى وجوهاً ربَّما لم يكن يحلم أن يراها، أعلن الطَّبيب بعد أن جسَّ نبضه وضغط دمه، وكشف على كلِّ جروحه أنَّ حالته مستقرَّةٌ وأنَّه يتماثل للشِّفاء، وابتسم مشجِّعاً وهو يقول إنَّ بوسعه أن يعود إلى بندقيَّته بعد أيَّامٍ فقط.

أعطاه دواءً مضادَّاً للالتهاب، ومرهماً للجروح، ودواء مضادَّاً للاكتئاب!

تولَّى أبو علي مسؤوليَّة العناية به، صنع له حساء وراح يسقيه له بالملعقة.

ذكَّره أبو الفوز بنفسه بعد أن عرَّفه ببقيَّة المقاتلين في الخمسين، هزَّ رأسَه، بدا أنَّه يتذكَّرُ أبا الفوز جيَّداً، ثم سحب جسده بصعوبة من تحت الغطاء حين كان الطَّبيب يغادر الغرفة وأسند رأسه إلى الجدار، طلب سيجارة فأعطيناه، دخَّن وراح يسعلُ بشدَّة، عيناه ما زالتا زائغتين، والوهن والتَّعب يسيطران على جسده.

راح يحدِّق إلى الوجوه ببطء واستغراب، سعل وجحظت عيناه، فسقاه أبو علي كأساً من الماء.

- هو الَّذي وجدك، وهو الَّذي أحضرك إلى هنا على كتفيه مخاطراً بحياته.

أشار أبو الفوز نحوي قائلاً، وأنا أتَّكئ برأسي مرهقاً على أكياس الرَّمل.

نظر نحوي بامتنان وهزَّ رأسه.

دخل خليل وميشيل وعبد الكريم، ونهضت مكرهـا لأُعـدَّ القهوة.

للمرَّة الأولى أشعر بأنَّ نضالاً مختلف، وأنَّ بيننا حاجزاً شاهقاً من الحجر، كلُّ الحرب، كلُّ اللَّيالي والأيَّام الَّتي قضيناها معا، جعلتني أعتقد أنَّنا أصبحنا أكثر من صديقين، وفجأة اكتشفت أنَّني لا أعرف شيئاً عن نضال، ربَّما أكون أنا الَّذي ألبسته العباءة الَّتي كنت أحبُّها، وأسبغت عليه الصِّفات الَّتي أريد، أو ربَّما هي وتيرة الحرب، والجنون الَّذي يخلقه هذا المكان المنعزل عن الحياة، وتشبُّثي به، وعرفاني بالجميل.

حين أخبرته بما جرى بيني وبين ليلى هزَّ كتفيه ببرود وقال:

- هذه العائلة كلُّها مشبوهة!
- كيف؟
- لا أدري.

شعرت بالإحباط.

- لكنِّي... أحبُّها... أعني... أشعر أنَّني أحبُّها...

ابتسم.....

- ألم تجدْ غيرها في لبنان؟
- هي الَّتي صادفتها في طريقي.
- وهل وجدتَ الوقت لتقع في حبِّها؟
- ألا تؤمن بالحبِّ من النَّظرة الأولى؟ ميشيل قال......
- لا تخدع نفسك، قاطعني.

هل تغيَّرَتْ الدُّنيا أم أنَّني أنا الَّذي تغيَّرت؟

كانت المرأة آنذاك بالنِّسبة لي وردة إن قُطِفتْ ماتت، لذلك كنت أعشق المرأة من بعيد وأحاول ألا أخدشها بأظافري، وربَّما كان يخيَّل لي ذلك لأنَّني لم أكن قادراً على أن أقيم علاقة سويَّة مع امرأة قطّ، هل تغيَّرت الدُّنيا أم أنا الَّذي تغيَّرت؟ رُبَّما كنتُ طوباويًّا أكثر ممَّا يجب، أو ربَّما كان الآخرون قذرين أكثر ممَّا يجب!

أخرج نضال من فمه قطعة اللِّبان الَّتي كان يلوكها بين فكَّيه ومدَّها نحوي في الهواء وهو يلوي جذعه النَّحيل:

- كُل...

نظرت إليه بدهشة وشكرته دون أن أمدَّ يدي إليها.

- هي مثل هذا اللِّبان.
- كيف؟
- هي مثل هذا اللِّبان.
- لا أفهم.
- هي مثل هذا اللِّبان.
- هل تعرفها؟
- أكثر ممَّا أعرفك، لكنَّها والحقُّ يقال تابت، منذ المجزرة لم نعد نسمع عن مغامراتها شيئاً.
- أنت تهذي.
- عليك أن تحذر منها، ومن أُمِّها، وأخيها المَشبوه.
- أنت مجنون.
- بل أنت المجنون، أنت لا تعرف عنها شيئا، هي ليست عذراء بل امرأة، هذه الفتاة مارست الجنس مع ألف مقاتل... وأمُّها أيضاً مثلها...
- هل مارستَ الجنس معها؟

هزَّ رأسه بالنَّفي.

- لكنِّي أعرف الكثيرين ممَّن فعلوا.

أحسست بالدَّم يغلي في عروقي.

- لم تكن تعجبني.
- لكنَّك معطوب.
- كان هذا قبل القذيفة.

قال وهو يُخرِجُ قطعةَ حديدٍ سوداءَ بحجم رأس الدَبُّوس من ذراعه ويقذفها بوجهي.

كان كُلَّما جلسنا معاً ينبش الرُّؤوسَ السَّوداءَ الَّتي كانت تملأُ جسده بأظافره ويُخرج قطعاً صغيرة جدَّاً من الحديد ويقذفها بوجهي:

- احتفظ بها ذكرى للزَّمن...

قذيفة أثناء الاجتياح انفجرت قربه وتناثرت إلى آلاف الشَّظايا، فاخترقت كلَّ سنتمتر من جسده، حملوه والدِّماءُ تسُحُّ من جسده حتَّى من عضوه الذَّكري، وقضى الأسابيع الباقية من الاجتياح في المشفى، ثمَّ حين تماثل للشِّفاء انتقل إلى البقاع.

كان قد ترك مقاعد الدِّراسة الثانويَّة وهو على أبواب عامه المدرسيِّ الأخير، لم يكن ثمَّة وقت للتفكير أو لوداع أحد، جاء إلى دمشق وهو لا يملك في جيبه قرشاً واحدا، بملابسه الَّتي عليه فقط، ينتعل شبشباً من البلاستيك.

حين سمع باجتياح لبنان، وضع جواز سفره في جيبه دون أن يخبر أحداً، وخرج ليلحق بالحافلات الَّتي راحت تُقلُّ المتطوِّعين وتنقلهم مجَّاناً إلى دمشق، لم يكن يأمل بالخروج من الأردنِّ، رمى بنفسه في الحافلة، ووجد نفسه بعد ساعتين أمامَ شرطيِّ الحدود، أُصيب بالدَّهشةِ والخوفِ وهو يراه يختم له جواز سفره ويسمح له بالعبور.

لحظتها فقط أدرك المأزق الّذي كان فيه، وجد نفسه يسلِّم ذاته للمجهول بلا طعام ولا مأوى ولا مال ولا سند ولا صديق.

كان قد استقلّ إحدى الحافلات الخمس الأولى الّتي سُمح لها بالعبور، قبل أن تغلق الحدود في وجه الحافلات الأخرى المليئة بالمتطوِّعين الشَّباب، وتتمّ إعادتها إلى عمّان.

استقبلته ثلَّة من الرِّجال في مخيَّم اليرموك، لم يكن يفرِّق بين تنظيم وتنظيم، سلَّم نفسه لأوَّل رجل وجده أمامه، حمله الرَّجل إلى مكتب التَّنظيم وأعطاه هُويَّة عسكريَّة وبعض النُّقود قبل أن تُقلَّه الحافلة إلى درعا.

- ستصاب يوما بالإحباط إن بقيت على هذه الحال، عليك أن تفيق من هذيانك وهلوستك، إن أردت أن تمارس معها الجنس فافعل، أحضرها إلى هنا وافعل ما تريده بها، أمَّا الحبُّ إيَّاك، أنا أفهم الشَّهوة والغرائز، أمَّا أن تقع في حبِّ امرأة مثل ليلى فستجعل من نفسك أضحوكة بين الرِّفاق.

شعرت بالتقزُّز، حتَّى الفتاة الَّتي التقيتها بعد عشرين عاما من الضَّياع أجد أنَّها عاهرة وزَّعت حبّاً على كلِّ البشر قبل أن تلتقيني.

النَّاس لا يمكن أن يفهموا لغة الرُّوح، يتكلَّمون بلغة الجسَد، لغة الجنس، لغة الإنسان الأوَّل المليئة بالإيقاع، الفارغة من الموسيقى.

الموسيقى هي الرُّوح، والإيقاع هو الجسد، لذلك كان الجنس مشاعاً حين كان الإيقاع غالباً على الحياة، كلَّما ارتفع الإيقاع فرَّت الرُّوح.

منذ طفولتي وأنا أبحث عن امرأة أعطيها مفاتيح روحي بلا تردُّد، أحبُّها كما لم يحبّ رجلٌ امرأة من قبل، أصلِّي لها، أعبدها، أذوب فيها، أتقاطع معها، أتوحَّد معها كالنَّاسك أو كالصُّوفيِّ الَّذي يعرف معنى الحبِّ كما خلقه الله بكراً، بشكله الأوَّل، ووجهه الأوَّل، ومادَّته الأولى.

كم حلمت بامرأة تضع رأسها على صدري تحت شُجيرةٍ بعيدة، وتنام!

أين أذهب بكلِّ هذا الحبِّ، وبكلِّ هذه العواطف الَّتي تكاد تتفجَّر في صدري فتفجِّرني؟ كم أشعر بالظُّلم والإجحاف!

كم بكيت من حمَّى الحبِّ، وحمَّى الظُّلم!

نضال حطَّم الحلم، حوَّله إلى آلاف الشَّظايا المتناثرة فوق التُّراب، وكان عليَّ أن أُعيد جمعَه من جديد، وترميمه ليعود كما كان.

رُبَّما كنت أشعر مثل كلِّ الرِّجال بالجفاف، ربَّما كنت أشعر بالظَّمأ لامرأة أضمُّها بين يديَّ وأعتصرها كحبَّة اللَّيمون، لكنِّي أعرف أنَّ ثمَّة ما هو أجمل من ذلك، وأعمق وأبعد وأوسع، شيء لا يمكن لنضال أن يدركه، شيء لا يمكن أن يعرفه أو يحسَّ به إلاّ الشُّعراء!

أفقت على أصواتهم تناديني، لعنت القهوة والسَّاعة الَّتي ضحكوا عليَّ فيها وأقنعوني أنَّني محترفٌ في صنع القهوة، انتبهت إلى الماء فوجدته قد تبخَّر، عدت لأملأ دلَّة القهوة، وصحت معتذراً، وأصواتهم وهم يبحثون في مستقبل الثَّورة الَّذي ضاع بعد أن غادر المقاتلون بيروت إلى تونس، والجزائر، واليمن، وسوريا، توقظني من حلمي المرِّ الطَّويل.

حملت القهوة والفناجين.

سأذهب إلى شاتيلا كي أحضرَ صورةَ عيسى الَّتي لا أمتلك سواها وأعود، سأنسى ليلى إلى الأبد.

لكنَّني حين رأيتها بعد أسابيع لم أستطع أن أقاومها. كنت الفراشة وكانت النَّار.

قادتني من يدي باسمةً في أزقَّة شاتيلا تحت المطر، دارت بي في كلِّ أنحاء المخيَّم، وأخذتني إلى مخيَّم البرج، وإلى صبرا، ثم اقتادتني عبر طرق جانبيَّة إلى مشارف بيروت.

لم أصدِّق ما رأيت!

كانت الجدران قد امتلأت بملصقات تحمل صورة عيسى، وتدعو للبحث عنه!

أيَّة فكرة مجنونة خطرت لها فجعلتها تفعل ذلك؟ وكيف استطاعت أن تقنع التَّنظيم بطباعة كلِّ هذا العدد الهائل من الصُّور؟ وكيف أقنعت من حملوها إلى كلِّ أرجاء لبنان بحملها، وإلصاقها على الجدران؟ حتَّى عيتات ذاتها نالتها مجموعة من الصُّور بعد ذلك اللِّقاء بأيَّامٍ قليلة، ربَّما يؤكِّدُ ذلك فكرة نضال عن علاقاتها الواسعة المشبوهة!

كانت مجنونة، صلبة كالحجر، شفَّافة كالزُّجاج، حادَّة مثل سكِّين، مزاجيَّة حدَّ الجنون لا يمكن لك أن تحزر ردَّة فعلها أبداً.

شعرت تجاهها بالبرود على الرُّغم من كلِّ ما فعلته من أجلي، كنت مكسوراً لأنِّي اعتقدت أنَّها ضاعت منِّي.

قضيت اللَّيالي ساهراً أحاول أن أكتب شعراً، والمذياعُ لا يفارقني وهو يصدح بصوت أمِّ كلثوم.... وهم لا يكفُّون عن التَّعليق، سمُّوني العاشق، كنت أشعر بالحزن والمقت، وأشكو من حالة السُّيولة الَّتي تتداخل فيها الأشياء وتختلط، فلا يعود من الممكن لك أن تجد فيها لحظة واحدة من الخصوصيَّة تنفرد فيها بنفسك! صرت أهرب في النَّهار إلى نبع الماء، أقضي يومي هناك، وأعود في المساء وقد هدَّني التعب، وتعتعني السُّكر، وتمكَّن منِّي الحزن، أنام ساعة أو ساعتين ثمَّ أصحو على صوت أمِّ كلثوم وهي تصدح في السُّكون:

النَّوم ودَّع مقلتي

واللَّيل ردَّد أنَّتي

يا هدى الحيران

أين أنت الآن، بل أين أنا؟....

يصحو حليم كعادته من نومه، فأفرُّ منه هارباً إلى الخارج، وأجد جورج أو سليماً أو أبا علي على حافَّة أكياس الرَّمل في نوبة حراسته اللَّيليَّة فأفرُّ بعيداً في اللَّيل، إلى حيث لا أدري.

هي الَّتي جعلتني أعرف معنى الحرمان، وحزن الرِّجال، ولغة العاشقين، وحسرة المحرومين، وحيرة التَّائهين، وجرح الحبِّ، ولعنة الحياة.

أحاول أن أكتب أيَّ شيءٍ فأفشل....

أنا ضائع لا أعرف ماذا أريد...

- ما رأيك؟..... سألتني ونحن نراقب البحر من بعيد.
- أنت مجنونة!
- ألستُ كذلك؟
- بلى... أنت كذلك.
- وبماذا ينفع العقل في زمن الجنون؟
- الجنون نعمةٌ لا يدركها المجنون! قلت وأنا أرمقها من رأسها حتَّى أخمص قدمها.

جلسنا على كرسيَّينِ متقابلين في مقهى، اللُّبنانيُّون شعب غريب، فعلى الرُّغم من كلِّ الموت والدَّمار يجدون دائماً وقتاً للحياة، يعيشون لحظتهم بعد أن أدركوا أنَّ المستقبل ما عاد يعني شيئاً منذ أن نشبت الحرب، وبات المستقبل خواءً، واللَّحظة الرَّاهنة فقط هي كلُّ المستقبل.

كنت حزيناً بعد أن سمعت عنها ما سمعت من نضال، الحياة دائما تكسرني، وتتعمَّد أن تزرع الحزن في كلِّ طريق أسلكها.

- كنتِ قاسية منذ أيَّام.

نَظَرتْ باتِّجاه البحر البعيد ولم تُجب، ثمَّ سألتني فجأة وكأنَّها لم تسمع ما قلت:

- هل كتبت للبحر؟

اعتصرتُ ذاكرتي، لم أكن قد كتبت للبحر، كلُّ القصائد الَّتي كتبتها طوال عمري لم تكن تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، كنت أعتقد أنَّني شاعر فاشل لا يمكن له أن يكون ذا شأن ذات يوم أبداً.

- كتبت أنَّ البحر صحراءُ تفضي إلى العدم، لا آثار لأقدام الرَّاحلين فوق الماء، هو طريق الذَّهاب بلا عودة.

حاولت أن أخمِّنَ ما يجول في أعماقها، لذا كان عليَّ أن أكون أكثر صبراً واحتمالاً وذكاء لسبر غورها.

- تقصد المقاتلين؟
- أقصد الغائبين، كلَّ التائهين الَّذين تشابه عليهم الماء.
- أنت مكسور مثلي.

انفتح ثقبٌ صغيرٌ في الجدار، وصار بوسعي أن أرى من خلاله بعض الضَّوء في أعماقها.

- لماذا تكرهين الرِّجال؟
- لأنَّهم كذَّابون.
- خدعوكِ؟
- حدِّثني عن البحر.
- كسروك؟ هل جرَّبت الكثيرين؟

انتفضت ونهضت غاضبة من مكانها، وبالكاد استطعت إقناعها بالعودة للجلوس، شعرت بغبائي واندفاعي، فاعتذرت.

"ما الَّذي أريده منها بعد أن عرفت كلَّ ما عرفت؟"

لم تحاول أن تتناسى سؤالي، ابتسمت بمرارة وهي تتجرَّعُ القهوة وتدخِّن، وعلى عكس النِّساء لم تنكر بعض العلاقات والتَّجارب العابرة الَّتي خاضتها.

- كان واحدا فقط، والآخرون كانوا يعبرون ويمضون بلا أثر، كنت صغيرة لا أعي الحياة... قالت باستسلام.
- ونضال؟
- نضال من؟
- الخمسين.
- لا أعرفه.

ربَّما جعلني ذلك الجواب أشعر بالرَّاحة أكثر.

- هل كنت تحبِّينه كثيراً؟
- ....
- ماذا كان اسمه؟
- ....
- أين رحل؟ إلى أيِّ بلد؟ تونس؟ اليمن؟ الجزائر؟
- مات....

سادت لحظةُ صمتٍ طويلةٍ، شعرت بأنَّني كنت قاسياً، أشفقت على خضرة عينيها الَّتي تبللَّت بالدُّموع.

"ما الَّذي يجعلها حاقدة على الرِّجال إلى هذا الحدِّ؟ هل لأنَّهم كانوا يعبرون على جسدها ثم يمضون باحثين عن سواه؟"

راحت تتحدَّث عن الثَّورة الَّتي أخرجت النِّساء من جحورهنَّ، وتركتهنَّ فريسة لكثير من الذِّئاب الَّذين كانوا يتربَّصون بهنَّ، ويعلنون عكس ما يبطنون.

ذات الرِّجال الَّذين قضوا حياتهم يستمنون خلف الجدران والأبواب المغلقة، هم من أخرجوها من بيتها وعلَّموها الخطيئة، ومارسوا معها كلَّ أنواع الشُّذوذ، والبغاء، ثمَّ اكتشفوا بعد كلِّ الخراب الَّذي صنعوه بأنَّهم ما زالوا يؤمنون بسلطة التَّاريخ، وغشاءِ البكارة، وأنَّها لا تصلح أبدا أن تكون

أُمَّـا لأبنـائهم حـتَّى لـو كـانوا هـم مـن دمَّروهـا باسـم الحـبِّ، وباسـم الوطن.

أصيبوا بصدمة الحريَّة فراحوا يتخبَّطون، أُصيبوا بالشَّراهة بعد كلِّ ذلك الجُوع المزمن الأَزليِّ، فدفعت المرأة الثَّمن، قالت إنَّ الأَوراق اختلطت لدرجة أنَّك لم تعد قادراً على إعادة فرزها من جديد، وإنَّ للحريَّة ثمناً باهظاً.

- هم أيضا معذورون، أنا لا ألوم أحداً، ألوم فقط أصحاب النَظريَّات الطنَّانة، أنت تفهمني أليس كذلك؟

ابتَسمَتْ، وعادت تقول:

- الآن نحن متساوون، إن كانت حوَّاء هي من علَّم آدم الخطيئة الأولى، فآدم هو الَّذي أغواها وأعادها إلى الخطيئة من جديد.

قلَّبتُ الأمر في رأسي، شعرت بالشَّفقة عليها.

لم أستطع أن أقاوم الشُّعورَ الَّذي اجتاحني بأن آخذها بين يديَّ، وأجعلها تخرج منها إليَّ لأحتويها، وأطير بها ونهيم في فراغ بلا حدود ولا قوانين، لكنَّها ما زالت بعيدة، بعيدة غارقة في حقد قديم، وحبٍّ ميت.

كم أحتاج من الصَّبر كي أنسيها الحبَّ القديم، وأرمِّم الرُّوح الَّتي اهترأت فيها!

أمسكت بكفِّها فلم تقاوم، شددت عليها، تلمَّست أصابعها، وأحسست بالدَّم غزيراً يتدفَّق إلى رأسي، وعضوي.

- ربَّما تحتاج الثَّورة دائما إلى ثورات لكي تستمر، ذلك التَّناقض الهائل بين الشَّكل والمضمون بحاجة إلى من يقوم بجسر الهوَّة بينهما، علينا أن نختار أن نكون على اليمين أو على اليسار، ولا يوجد أبداً منطقة محميَّة في الوسط، بعد ألف عام من

حكم معاوية المتواصل ليس بالإمكان الخروج إلى الهواء الطَّلق دون أن تصابني بصدمة الحريَّة.

تلمَّسَتْ أصابعي فشعرت بالنَّشوة، هل كنت أقول كلَّ ما أقول إرضاءً لها؟ هل وقعت في الفخِّ؟ هل آن لي أن أفجِّر كلَّ طاقات الحبِّ الَّتي اختزنتها عشرين عاماً في أعماقي؟ هل تنازلتُ أكثر ممّا يجب؟

شربنا قهوتنا ودخَّنا، ثمَّ نهضنا وسرنا عائدينِ مشياً على الأقدام ويدها تمسك بيدي، تتشبَّث بها كأنَّها وجدت فيها ملجأ من الضَّياع والموت، وعيناها معلَّقتان بشفتيَّ، وأنا أتحدَّث وأتحدَّث بلا توقّف.

* * *

ليلتها لم أنمْ من شدَّة الفرح، عدت إلى الخمسين في اللَّيل، بعد العاشرة بقليل، فوجدت جورج على برج الحراسة والبقيَّة نائمين إلاّ حليماً، فحمدت الله لأنَّني لم أكن مضطرّاً لمواجهة نظرات نضال، وتساؤلاته.

جلست مع حليم محاولاً أن أهدِّئه وأواسيه، سِرٌّ ما كان يجثمُ على صدرِ حليم كأنَّه كتلةٌ من الحديد فيجعله ينهض من نومه كلَّ ليلةٍ مثل المجنون، وهو يصرخ، ويهذي بكلمات لا يجمعها رابط، ويضع كفَّه على عنقه.

كان غارقاً في شيء ما داخله حدَّ الجنون، في البداية كان منطوياً، كئيباً، محطَّماً، لا يستطيع الخروج من عزلته على الرُّغم من كلِّ المحاولات الَّتي بذلها الجميع في الخمسين والستِّين معه.

كنَّا نهرع إليه بالماء، فيشرب، ويدخِّن، ويبقى ساهراً حتَّى الصَّباح، ثمَّ شيئاً فشيئاً بدأ الجميع يضيقون ذرعاً به، بصراخه، وسكوته، ونظراته

القلقة المتعبة ما جعل أبا الفوز يشكوه لسلطان - قائد السريَّة- طالبا منه تسليمه لفتح تنظيمه القديم فهي أولى بجنونه على حدِّ تعبيره.

ما كان بوسع أحدٍ أن يعتني به طويلاً في الحرب....

الحرب ذاتها ثقلٌ كبيرٌ يهدُّ الكتفين، فكيف إذا أُضيف إليها حملٌ آخر مثل حليم؟

صرت أشعر بالإشفاق عليه، وحين جاء سلطان، وخليل، وميشيل، وحاولوا إقناعه بالذَّهاب إلى بيروت، أو على الأقل إلى شملان، بعيداً عن القنَّاصة، والدبَّابات، وخطِّ الاشتباك، وراح يتوسَّل إليهم أن يتركوه أيَّاماً أُخرى ليتماثل للشِّفاء، ويصبح بوسعه أن يذهب إلى حيث يريد، قرَّرتُ أن آخذ العناية به على عاتقي.

قال إنَّه أطلق النَّار على الحاج إسماعيل يوم هروبه من صور، فهدَّده الحاج إسماعيل بالقتل، وربَّما لو تعرَّف إليه أحدٌ من رجال الحاج لقتله.

شعرت بالإشفاق عليه وهو يَعِدُ سلطان بأنَّه لن يزعج أحداً بعد الآن أبداً، وسيخدم نفسه بنفسه، فهو لا يحتاج إلاّ إلى وقت قصير كي يبرأ من جروحه ويصبح بوسعه السَّير على قدميه.

هم أيضاً شعروا بالإشفاق عليه....

كان خليل قد تحقَّق من شخصيَّته، وتأكَّد من صدق أقواله، وقصَّةِ هروبه من أنصار، والكمين الَّذي نصبه الجيش "الإسرائيليُّ" لهم في المختارة قبل انسحابه، وهروبه بعد أسر ثلاثة من أصدقائه واستشهاد اثنين، لم يكن يريد أن يلقي بمناضل مثله إلى الشَّارع، لذا اتَّخذ قراراً بنقله إلى الستِّين، إلاّ أنَّني أصررت على بقائه، وأبديت استعدادا للاهتمام به ريثما يشفى تماماً، ويصبح قادراً على أن يقرِّر بنفسه إن كان سيبقى أو سيغادر.

تركوا الموقع بعد أن أقنعوا أبا الفوز بالصَّبر، وإعطائه فرصة ريثما يبرأ من مرضه وجروحه، ومنذ ذلك اليوم توطَّدت العلاقة بيني وبين حليم.

أحضرت له حلاَّقاً بأجر مضاعف من قبر شمون، فقصَّ له شعره، وشذَّب لحيته، فبدا كأنَّه رجل آخر، صارت بشرة وجهه أَكثر بياضاً، وظهرت معالم عينيه العسليَّتين الصَّافيتين، ربَّما بدا يومها أَصغر بعشرين عاماً ممَّا كان عليه من قبل.

صرت أساعده على تناول دوائه، واشتريت له عكَّازاً لكي يتوكَّأَ عليه وهو يمرِّن قدميه على المشي، ويتنقَّل بين غرفة وأخرى.

لم يكن يثير دهشتي سوى ذلك الانقلاب الَّذي حدث فجأة مع أبي الفوز تجاه حليم، سألت حليماً أكثر من مرَّة إن كان ثمَّة ما جعل أبا الفوز يتَّخذ موقفاً معادياً له، لكنَّه أكَّد لي أنَّه لم يسئ لأبي الفوز أبداً.

أصبحت برودة العلاقة تثيرني بعد أن كنت أظنُّ أنَّ شخصيَّة أبي الفوز الفريدة، وروحه المرحة، وطيبة قلبه، لا يمكن أن تخلق عداوة بينه وبين أحد.

كان كالإسفنجة الَّتي تمتصُّ آلام المقاتلين ومعاناتهم، ذكيَّاً، قادراً على معرفة ما يدور في أعماقهم، وعلى أن يوجِّه دفَّة الحديث معهم حيثما يشاء.

ربَّما كانت نقطة ضعفه الوحيدة هي عدم قدرته على الاحتفاظ بسرٍّ أبداً....

فمنه عرفت عن تجارة أبي علي الخاسرة في الشَّام، وهروبه من دائنيه إلى حيث لا يمكن لأحدٍ أن يجده أبداً: إلى لبنان.

ومنه عرفت بقصَّة حبِّ جورج الفاشلة لامرأة فرنسيَّة تكبره بأعوام، حيث اكتشف بعدئذ أنَّها استخدمته جسراً إلى مكتب أبيه، المترجم الشخصيّ لعرفات الَّذي كان يرافقه في حلِّه وترحاله.

وحين سألته عن السَّبب الَّذي جعل جورج ينتمي لتنظيم يساريٍّ مع أنَّ أباه قائدٌ في فتح، قال لي إنَّ جورج لم يكن يؤمن طوال عمره سوى بالنظريَّة الماركسيَّة- اللينينيَّة لحلِّ مصائب الشُّعوب، وبذلك فهو كان مختلفاً مع أبيه منذ أن بدأ يعي الحياة.

الفرق الَّذي كنت أراه بين أبي الفوز وخليل هو أنَّ خليل كان دائم الأسئلة، لكنَّه لم يبح بسرٍّ أَحد أبداً، أمَّا أبو الفوز، فقد كان يكسب ثقة الآخرين بيسر وسهولة، ولم يكن يكلِّف نفسه عناء السُّؤال، كانت لديه قدرة عجيبة على جعلهم يفشون له أسرارهم، ويشاورونه بأدقِّ تفاصيل حياتهم دون أن يلقي سؤالاً واحداً على أحد.

أحسست أنَّ ثمَّة ما يخفيه حليم عن سرِّ علاقته مع أبي الفوز، ثمَّة ما هو مريب في هذا الانقلاب، لذلك استغللت فرصة لقائي مع خليل في صبيحة اليوم التَّالي في الستِّين، وسألته عن ذلك ونحن نستمع إلى فيروز، ابتسم.... وهمس في أذني:

- أبو الفوز لم يكن يحمل رتبة ملازم في فتح، وحين جاء للالتحاق بنا بعد الخروج ادَّعى بأنَّه كان ملازماً، وهو لا يزال بانتظار هذه الرُّتبة الآن، ولا يريد لحليم الَّذي كان مسؤولا عنه في صور أن يفضحَ أمره.... ذلك هو السرُّ الكبير! والسرُّ الآخر الَّذي عليك معرفته أنَّ الجميع باتوا ينادونك بالعاشق، ويهزؤون بك، نسوا أن اسمك سعيد، لذا عليك أن تخفِّف قليلاً من مغالاتك في الحبِّ، كي يتوقَّف أبو الفوز عن إطلاق النِّكات عليك.

كنت أعرف ذلك، وقد سمعت الكثير من النِّكات الَّتي اخترعها أبو الفوز مازحاً، لكنَّ ذلك لم يجعلني أتوقَّفُ لحظةً عن مكالماتي الطَّويلة لليلى الَّتي لم يكن يوقفها سوى الاشتباك، أو فراغ الجهاز من الشَّحن، والَّتي

كانت مثاراً لكلام الجميع، خصوصا نضال الَّذي أصبح أكثر هجوما عليَّ ما جعلني أفسِّر موقفه بالغيرة منِّي.

صرت أقضي نهاري وليلي على جهاز اللاَّسلكي متحدِّثا إليها، أو مستمعاً إلى أغاني العشق الَّتي تُبثُّ عبر عشرات المحطَّات الإذاعيَّة الَّتي تحتلُّ الموجة القصيرة.

صرت مغرماً براغب علامة، كان قد ظهر حديثاً في عالم الغناء، وعبثاً حاول نضال إقناعي بأن راغباً لا يليق بي كمقاتل، وشاعر.

الفجوة بيني وبين نضال صارت تتَّسع أكثر، وبتُّ أتجنَّب الاصطدام معه، كنت أرفض أن يصبح نضال وصيَّاً عليَّ.

هي قالت إنَّها تحبُّ راغباً، وتعتقد أنَّه سيصبح ذا شأن يوماً في عالم الغناء، فجرَّبت أن أستمع إليه، واكتشفت أنَّه يمتلك صوتاً جميلاً، وأنَّ ألحان أغانيه تسلب اللُّب، وأنَّه لا ينقصه شيء ليصبح ذات يوم عظيماً مثل فيروز، أو عبد الحليم، أو أمِّ كلثوم.

صرت أسهر حتَّى الصَّباح، وهم فرحون بذلك، لأنَّني أزحت عن كاهلهم عناء الحراسة اللَّيليَّة في البرد، فوق أكياس الرَّمل، خلف الدبَّابة المحترقة، صاروا ينامون حتَّى الصَّباح، وصرت أنام في الصَّباح، أُعفيت من مهمَّة حفر الخنادق، وجلب الماء، ولم أعد أذهب إلى الستِّين مع نضال صباحاً للاستماع إلى فيروز، أصحو عند الظُّهر لأمارس مهمَّتي الثَّانية وهي إعداد طعام الغداء، وتنظيف المقرِّ، وترتيبه.

جاءني حليم يتَّكئ على عكَّازه ذات ليلة بعد أن جفاه النَّوم.

ودَّعت ليلى وأنا أشعر بالضِّيق وقفزت إلى الأسفل، رحَّبت به وجلسنا معاً خلف أكياس الرَّمل على حجرين متقابلين، نراقب الطَّريق من فسحة صغيرة في الجدار السَّميك الَّذي كانت تصنعه تلك الأكياس.

تبادلنا حديثاً قصيراً. حاولت أن أخمِّن إن كان سيجلس طويلاً أم سيذهب إلى النَّوم، كنت قد قرَّرت أن أوقظ أحداً ما للحراسة بدلاً منِّي إن كان سيجلس طويلاً.

سألني وهو يفرك كفَّيه بعضهما ببعض إن كان لديَّ مشروبٌ أخفيه في مكان ما، يدفِّئ به جسده في هذا البرد. فكَّرت، تردَّدت، ثمَّ هززت رأسي بالإيجاب، وقفزت إلى البيت المهجور المجاور وتناولت زجاجة العرق الَّتي كنت أخفيها بين الأنقاض وعدت بها إلى حليم.

سكب حليم العرق وكسره بالماء، وتجرَّع الكأس دفعة واحدة، ثم طلب سيجارة وهو يسعل ويعود ليملأ الكأس من جديد. توارينا أكثر ونحن نشعل سيجارتين. كان التَّدخين ممنوعاً أثناء الحراسة في اللَّيل، دخَّن كأنَّه لم يدخِّن منذ سنين، وراح يكرع العرق بشراهة مثلما يكرع الماء، أحسَّ بالنَّشوة، وبدأ جسده بالارتخاء، وبدا أنَّ الهدوء عمَّ أركان روحه، راح يشكرني على كلِّ شيء فعلته من أجله، بينما أنا أسكب له الكأس تلو الأخرى لكي ينهي الزُّجاجة لعلَّه يشرب وينام، فأعود إلى ليلى.

شكا من أبي الفوز، فحاولت أن أخفِّف من وطأة الموضوع، وأخبرته بأنَّني أعرف السرَّ الَّذي جعل أبا الفوز يحاول التخلُّص منه، دهش لأنَّه لم يحدِّث أحداً بالموضوع، فأخبرته إنَّ الجميع باتوا يعرفون القصَّة بالتَّفصيل.

هزَّ رأسه كأنَّه لا يصدِّق.

- ربَّما...

بدا أكثر هدوءاً وانعتاقاً بعد أن أفرغ ما تبقَّى من الزُّجاجة في الكأس.

- لهجتك تقول إنَّك من الأردن.... قال.
- صحيح، أجبت وأنا أهزُّ رأسي...

- أنا أصلاً من الأردن، خرجت منها بعد أيلول، لذلك لا تغرنَّك لهجتي....

"كانت لهجته أقرب إلى فلسطينيي لبنان منها إلى الأردنيَّة".

فاضت به الأحزان فانفجر كالماء.....

تذكَّر خروجه من عمَّان إلى جرش، ومن جرش إلى بيروت، وعودته بعد ذلك بأعوام إلى الأردنِّ متسللاً مع مجموعة من المقاتلين الأردنيِّين إلى بيسان.

سألته عن عيسى من جديد فقال إنَّه لم يره أبدا، قال إنَّهم خرجوا فرادى وجماعات مشتَّتة ثمَّ توزَّعوا على القواعد على امتداد لبنان.

كان يلهث وكأنَّه لا يزال يعيش تلك اللَّحظات لحظة لحظة....

وضع كفَّه على عنقه....

كان مدججاً بالحلم والوهم والتَّعب والمرض والذِّكريات، حدَّثني عن الاشتباك الَّذي وقع مع بعض الجنود الأردنيِّين بعد عودتهم من بيسان، وعن مقتل ضابط بالخطأ، وعن حكمهم عليه بالإعدام.

- انتظار الموت أقسى من الموت بكثير.

قال وهو يشعل سيجارة ويعبُّ أنفاساً طويلة متلاحقة منها، ثمَّ أضاف:

- مات الضَّابط، ووقعنا في الأسر، وحُكم علينا بالإعدام، كنت أعرف أنَّهم لا ينفِّذون الحكم إلاّ في الفجر، قبل الأذان بقليل، لذلك كنت أقضي اللَّيل ساهراً، وكلَّما سمعت صوت اصطفاق باب زنزانة قلت لنفسي: ها هم في الطَّريق..... وما إن ينتشر الضَّوء حتّى أدرك أنَّه كُتبت لي حياة يوم جديد... وأَنَّ موتي قد تأجَّل إلى صباح آخر، ذلك كان هو الانتظار الَّذي يتفوَّق على الموت ذاته.

كنت قد نسيت ليلى ورحت أصغي إليه باهتمام....

- كلُّ المحاولات الَّتي بذلتها لإقناعهم بأنَّ الضَّابط قُتل بالخطأ، وأنَّه لم يكن لي يدٌ في قتله باءت بالفشل، آنذاك لم أكن أدري بأنَّ عرفات قد تدخَّل شخصيَّاً في الموضوع، والتمس من الملك العفو عنَّا، فاستأذن الملكُ أهل الضَّابط المقتول بالعفو، وأذنوا له، تنازلوا له عن حقِّهم في دمه، وأخبروه بأَنَّهم جميعاً ملك له، وفداء للبلاد.

هززت رأسي وكأنَّني لا أصدِّق ما أسمع:

- لكنَّهم كانوا أعداء...
- وهل تعتقد أنَّ الكبار لا يلتقون إذا اختلفوا؟ ألم يلتقوا في القاهرة والحرب دائرة في عمَّان؟ ألم يلتقوا بعد ذلك في الرِّباط، النَّاس البسطاء الفقراء هم الَّذين يدفعون ثمن الحرب، أمَّا الكبار فيتعاملون دائماً بالمصالح العليا الَّتي يعتقدون أنَّها أهمُّ من آرائهم الشَخصيَّة، ومن حياة البشر.

صار لسانه ثقيلاً، ووصل إلى حالة من التجلِّي، وراح يغنِّي بصوت منخفض في البداية ثمَّ ارتفع صوته ببطء ما جعلني أقفز من مكاني وأضع كفَّي على فمه كي لا يُفتضح مكاننا للعدوِّ، وحين صَمَتَ سمعنا شتيمة من جنديٍّ ساهر على الطَّرف الآخر فتجاهلناها.

- لماذا لم تبق في عمَّان؟ سألت.
- اشترطوا عليَّ المغادرة مقابل إطلاق سراحي فوافقت.

عبَّ دخان سيجارته وسأل وهو يهزُّ الزُّجاجة الفارغة:

- ألا يوجد لديك غيرها؟

فردت كفيَّ في الهواء.

- لماذا لم تذهب مع المنشقِّين؟

- كلُّهم سواسية.
- واليسار؟
- تعوَّدت على حريَّتي، لا أطيق الأحزاب الَّتي تقيِّد النَّاس بالحديد، لا بدَّ أنَّك تعرف أين يخبِّئون زجاجاتهم.
- الأحزاب؟ سألت مازحاً.
- الرِّفاق...

قال وهو يهزُّ الزُّجاجة ويبتسم على ضوء القمر بخبث مفضوح.

- سآتي بزجاجة نضال، وسنشتري له غيرها غدا.
- وأنا سأخبرك بسرٍّ كبير.

خفق قلبي وأنا أهرع إلى المبنى المجاور لإحضار زجاجة نضال، كنت أدرك أنَّ وراءه أسرارا لا حصر لها، على الأقلّ بدا واضحا من غموضه أنَّه يمتلك الكثير للحديث عنه.

عدت بعد دقيقتين أتلمَّسُ الطَّريق وبيدي زجاجة فودكا، وناولتها له فوضعها على فمه وراح يكرعها كالماءِ...

رفع سبَّابته في الهواء والزُّجاجة لا تزال أمام فمه، وكأنَّه يريد أن يقول شيئاً...

أشعل سيجارة بحذر لم يتوافق مع حالة سكره لحظتذاك وهو يبعد الزُّجاجة عن فمه، عاد يلوِّح بسبَّابته...

- فكَّرت طويلا، نحن هنا مشاريع موتى، لذلك لم أجد غيرك أفضي له بالسرِّ الَّذي يكسر ظهري لعلَّك تحمل جزءاً من العبء عنِّي، وإذا متُّ سأموت مطمئنًا لأنَّني لم أدفن وسرِّي معي.
- هل تشرب؟

سألني وهو يمدُّ الزُّجاجة نحوي، فتناولتها منه ورحت أشرب من فوَّهتها، تنبَّهت حواسِّي، واقتربت منه، صار أكثر جديَّةً، وصار صوته أكثر تماسكاً، ما جعلني أوقن أنَّه مدمن على الكحول، وأنَّه لا يهذي.

شعرت بالدِّفء، ورحت أدخِّن دون حذر، فذكَّرني بالجنديِّ القريب الَّذي شتمنا منذ قليل.

- كان لي صديق في أنصار اسمه زيَّاد.... قال، ثمَّ وضع الزُّجاجة على فمه وجرع الفودكا، وناولني الزُّجاجة وأضاف:

- هرب معنا لكنَّه قُتِل في المختارة، أخبرني عن لفافة قديمة ورثها عن أبيه الَّذي ورثها بدوره عن جدِّه الَّذي حصل عليها من رجل كنيسة لا أذكر اسمه، كان في القدس قبل سقوط فلسطين، لا أعرف بالضَّبط كيف حصل عليها، لكنَّه قال لي إنَّهم أخفوها في كنيسة مار جرجس في زحلة، تحت المزار، وكرَّر كلمة قمران أكثر من مرَّة، مؤكِّدا عليَّ ألاَّ أنساها.

شعرت بالفضول.

- قمران؟

- نعم، حفظت الاسم كاسمي.

- أتعتقد أنَّها لا تزال مدفونة هناك؟

- لا أدري.... أظنُّ هذا، ربَّما يتسنَّى لنا الذَّهاب إلى البقاع، وترتيب طريقة للوصول إلى زحلة، كان زيَّاد يتكلَّم كثيراً عنها ويقول إنَّها كنز سيغيِّر وجه العالم.

- هل تعرف موقع الكنيسة؟

هزَّ رأسه بالنَّفي.

- سنسأل....

- سأسأل ميشيل، لا بدَّ أنَّه يعرف.

- ولكـن دون أن تشـعره بالموضـوع، أرجـو أن يظـلَّ السـرُّ بيننـا ريثما نعرف ماذا تعني تلك اللفافات، إن عرف التَّنظيم بأمرها سنفقدها إلى الأبد، أنت تعرف، سيأخذونها ولن نعرف عنها شيئاً بعد ذلك.
- سرُّك في بئر.

* * *

لكنِّي سرعان ما أفشيت السِّر، تنبَّهت كلُّ حواسِّي، واستيقظ العشق الكامن في أعماقي للأساطير القديمة والتَّاريخ، أجَّجت اللفافات النَّار في رأسي، وجعلتني أستأذن أبا الفوز بالذَّهاب مع ميشيل إلى بيروت، للحصول على أيِّة معلومة تتحدَّث عنها.

اشتريت عشرات الكتب، ولم أجد كتاباً واحداً يتحدَّث عنها بالتَّفصيل.

صرت أعرف أنَّها تُسمَّى لفافات قُمران، وأنَّ البَدو وجدوها في مغاور قديمة قرب البحر الميِّت، وأنَّ فريقاً من علماء اللاَّهوت والتَّاريخ ما زالوا يعملون على فكِّ طلاسمها، وأنَّهم قد أخفوا الكثير منها، وأخفوا معلومات قد تغيِّر وجه التَّاريخ كلِّه إن عُرفت، وأنَّ الكثير من الباحثين والمؤرِّخين قد أقاموا ضجَّة مطالبين بحقِّهم في الاطِّلاع على تلك الوثائق، وما زالوا ينادون بذلك، وعليه فقد حرص الفاتيكان على أن يتابع الموضوع بنفسه بطريقة غير مباشرة، ويموِّل كلَّ الأعمال المتعلِّقة بالبحث في اللفافات بسريَّة تامَّة، وكلُّ ذلك يتمُّ بالتَّنسيق مع الحكومة "الإسرائيليَّة" المتواطئة، الَّتي تحاول أن تقصي أيَّ شيءٍ يضرُّ بزعمها التاريخيِّ بامتلاك أرض فلسطين، وبلغت أهميَّة اللفافات بالنِّسبة للفاتيكان أن قايض بها

حكومة "إسرائيل" بالسُّكوت عن احتلالها للضفَّة الغربيَّة عام 1967 مقابل إعطائه الحقَّ بالسَّيطرة على كلِّ ما يخصُّ متابعة دراستها.

صرت أعرف أنَّ تلك اللفافة قد تساوي ملايين الدُّولارات، وأنَّها تعود إلى ما قبل المسيح، وأنَّ المطران صموئيل، مطران الكنيسة السِّريانيَّة في القدس كان قد حصل على مجموعة من اللفافات من البدو التَّعامرة، وهرب بها بعد سقوط فلسطين إلى لبنان، ثمَّ إلى أمريكا، لكنَّه ترك واحدة فقط في لبنان دون أن يعلم أحد بذلك، ربَّما كضمانة لحياته الَّتي أحسَّ أنَّها مهدَّدة بسبب تلك اللفافات.

عدت إلى شاتيلا مع ميشيل حاملاً كتبي، تركته في مقرِّ التَّنظيم وخرجت مع ليلى إلى بيتها، دعتني دلال إلى الدُّخول، جلست في ذات الغرفة الَّتي جلسنا أنا وأبو الفوز فيها من قبل. جاء أحمد، صافحته، ثمَّ جاءت ليلى بالقهوة وجلست.

تصفَّحا بعض الكتب، ألقى أحمد بكتابٍ على الطَّاولة دون اهتمام.

- أراك مهتمَّاً هذه الأيَّام بالتَّاريخ...
- كنت طالباً في كليَّة التَّاريخ في جامعة دمشق...
- وهل ستعود للدِّراسة؟
- آمل ذلك...

أحمد بدا لي منذ اللِّقاء الأوَّل غامضاً، محيِّراً، متقلِّباً، تماماً كليلى وأمِّها، فمرَّةً يكون حيويَّاً نشيطاً، متلهِّفاً مقبلاً على الحياة، ومرَّةً تجده متعباً يائساً فاقداً الرَّغبة في كلِّ شيء.

بدا لي أنَّ رأي نضال بالعائلة كان في مكانه!

آراء أحمد كانت تتراوح ما بين أقصى اليمين وأقصى اليسار، تبعاً لمزاجه الَّذي يتحكَّم بكلِّ ما يقوله، ابتسم باستهزاء وهو لا يزال يقلِّب الكتب ويقرأ عناوينها.

- التَّاريخ دليل الأغبياء.

شعرت بالإهانة، ابتلعت لعابي، وصمتُّ على مضض، ورحت أحدِّق إلى ليلى الَّتي وضعت الكتاب جانباً ونظرت إلى أخيها بغضب.

أشعل أحمد سيجارة وراح يعبُّ دخانها بنهم، ويلاحق بفمه الدُّخان المتكوِّر في الهواء، ثمَّ سألني فجأة بلا مقدِّمات:

- هل تملك جواز سفر أردنيٍّ؟

أجبت بالإيجاب دون أن أدري ما العلاقة بين التَّاريخ وجواز السَّفر.

- هل يمكن أن أراه؟

- أخذوه في دمشق، قلت وأنا أفكِّر: "ذات السُّؤال الَّذي طرحه أبو الفوز منذ أسابيع".

- ضحكوا عليك، سيقولون لك حين تطلبه بأنه ضاع.

- وهل جواز السَّفر أهمُّ من الحياة؟ إن كنت قد أعطيتهم حياتي فلماذا عليَّ أن أقلق بشأن جواز السَّفر؟

- لأنَّك لم تجرِّب الوثيقة الزَّرقاء، هل جرَّبت أن تسافر بوثيقة زرقاء؟ جرِّب وقل لي بعد ذلك إن كان أكثر أهميَّة من حياتك أم لا، جرِّب وقل لي رأيك، هل جرَّبت يوماً أن تقف على الحدود كمتَّهم فقط لأنَّك تحمل الوثيقة الزَّرقاء؟ هل جرَّبت الذلَّ والإهانة المتعمَّدة فقط لأنَّك فلسطينيٌّ تحمل البطاقة الزَّرقاء؟ نحن دائماً متَّهمون حتَّى تثبت براءتنا، ومطلوبون على كلِّ حدود في هذا العالم، أنتم في الأردنِّ محظوظون!

انفجر في وجهي وكأنَّني أنا المسؤول عن وثيقته الزَّرقاء، كان يكرهني دون أن أعرف السَّبب، كنت أشعر بذلك واضحاً في كلِّ كلمة يفحُّ بها في وجهي.

تنفَّست الصُّعداء حين خرجت بصحبة ليلى أخيراً من المنزل، وقرَّرت في أعماقي ألاّ أعود إليه أبداً ما دام أحمد فيه، شعرت به صخرة

ثقيلة تربض على صدري، فتقطع أنفاسي، وبالكاد استطعت أن أمسك نفسي من الانفجار في وجهه إكراماً لليلى، وأمِّ ليلى.

المطر صار ينهمر بغزارة ما جعلنا نلوذ بجدار متهالك محاولين أن نتَّقي البلل، ثمَّة رجلٌ وقف إلى جانبي تماماً بثيابه المهلهلة وحذائه المهترئ الَّذي تسرَّب إلى داخله الماء.

مدَّ لي إصبعين أصفرين في الهواء طالباً سيجارة فأشفقت عليه، كان شعره طويلاً، أشعث، وقد غزاه الشَّيب، وشارباه أبيضان كثيفان كانا يتهدَّلان على فمه، والتَّجاعيد ملأت أسفل عينيه، وتغضَّن جبينه، ولحيته نبتت بشكل عشوائيٍّ وكأنَّها حديقة مهملة.

وقف يتأمَّل وجهي، أخرجت علبة التَّبغ وأعطيته واحدة أشعلتها له، ثمَّ دسست أخرى بين شفتيَّ وأشعلتها.... ورحت أنفث دخانها تحت المطر....

كان مظهره مثيراً للشَّفقة ما جعلني أقترب منه أكثر حتَّى كدت أن ألتصق به، فأثارتني رائحة جسده النَّتنة، وقفت ليلى إلى جانبي تراقب المشهد، وأشارت بكفِّها خلسة إشارة جعلتني أفهم أنَّ الرَّجل ليس سويَّاً تماماً.

- ما اسمك؟ سألته وأنا أنظر في عينيه الزَّائغتين.
- رجب....
- من أين؟
- من هنا...
- أصلاً من أين؟
- من هنا...
- أين تسكن؟
- هناك.... قال وهو يشير نحو البيوت الكثيرة المتراصَّة.
- كم عمرك؟

- سنة.

ابتسمت...

- سنة واحدة؟
- سنة واحدة.

عاد يشير بسبَّابته إلى علبة التَّبغ في جيبي، أخرجتها وأعطيته سيجارتين اثنتين، ففرح، نظرت إلى ليلى، وسألتها:

- أين أهله، لماذا لا يشترون له حذاء يقي قدميه ماء المطر، والبرد؟
- لا أهل له، هكذا عرفناه منذ أن جئنا إلى المخيَّم.
- وأين يسكن؟
- في كلِّ مكان.
- من أين أنت يا رجب، أصلاً من أين؟

صحت محاولاً أن أتغلَّب على صوت حبَّات المطر الَّذي راح يضرب الأرض بعنف وكأنَّه يحاول أن يحفرها، بدا أنَّه لم يفهم سؤالي، ارتبك قليلاً، وضع السِّيجارة بين شفتيه وطلب أن أشعلها له، ثمَّ تذكَّر أنَّ السِّيجارة الأولى ما زالت مشتعلة في يده.

أخرجت من جيبي خمسين ليرة وناولتها له فتلقَّفها سعيداً من يدي وراح يعدو تحت المطر، صحت محاولاً أن أسمعه صوتي:

- اشترِ بها حذاء.

لكنَّه لم يلتفت خلفه أبداً، غيَّبته البيوت والأزقَّة، قالت ليلى ونحن نخرج إلى الشَّارع بعد أن هدأ المطر قليلاً:

- لا يشتري إلاّ السَّجائر، حتّى لو أعطيته مال قارون، فلن يشتري به إلاّ سجائر.

* * *

الشَّـارع، ورذاذ المطـر، وليلـى، والبحـر، والانفجـارات البعيـدة، وأصوات الرَّصاص، وحذاء الرَّجل المجنون، كلُّ تلك الأشياء لم تستطع أن تنسيني أحمد، والكآبة الَّتي تركها لقائي معه في صدري.

جلسنا في ذات المقهى، وضعت كتبي على كرسيٍّ إلى جواري، ولم أقاوم فضولي بالسُّؤال عنه، سألتها عن سرِّ تلك الثُّقوب الزَّرقاء الَّتي تملأ ذراعيه، فأخبرتني إنَّه مدمن على المخدِّرات، ميئوس منه، وقد سجن في سجون المقاومة أكثر من مرَّة بلا فائدة، وأَنَّه في الماضي باع كلَّ أثاث المنزل بعد معارك طاحنة معها ومع أمِّهما الَّتي تتستَّر عليه كثيراً خوفاً عليه، بعد أن فقدت أباه وأخاه في الحرب، ولم يتبقَّ لها أحد سواه.

كانت تتحدَّث عنه بحقد كبير، ولم تُخفِ تلك الرَّغبة الكامنة في أعماقها بقتله، لولا خوفها على أمِّها من بعده.

كنت أدرك من خلال المحاضرات والدُّروس الَّتي قرأها لي وحيد، ومن بعده خليل، أنَّ المدمن هو أكثر النَّاس عرضة لأن يسقط في براثن المخابرات، ويعترف، ويعمل لصالح العدوِّ مقابل تزويده بالمخدِّرات، سألتها إن كانت أوضاعه الماديَّة جيِّدة، فأخبرتني أنَّه صار يمتلك آلاف الدُّولارات، اعترف بذلك أخيراً أمام أمِّه بعد أن وجدت بعضاً من تلك الدُّولارات مخبَّأة بين ثيابه، لكنَّها حرَّمت تلك الدُّولارات على نفسها، وعلى البيت، لأَنَّها تعتقد أَنَّها ملوَّثة بالدِّماء.

أدركت أنَّني أمسكت برأس الخيط، ورحت ألاحقه إلى أبعد ما أستطيع، قرأت هي ما يجول في ذهني، واستحلفتني ألاّ أخبر أحداً بما قالته لي، كي لا تفقد أمَّها معه.

قالت إنَّها أشدُّ النَّاس شوقاً للتخلُّصِ منه، فهي الَّتي تدفع ثمن وجوده اليوميِّ في المنزل، لكنَّها، مع ذلك، إكراماً لوالدتها مضطرَّة للتعايش معه كيفما اتَّفق.

عرفت يومئذ أنَّ أحمد حاول السَّفر إلى السُّويد مرَّتين، وأنَّه فشل في الأولى، ونجح في الثَّانية، لكنَّهم طردوه بعد أشهر حين اكتشفوا إدمانه على المخدِّرات، وأعادوه على نفقة الدَّولة السُّويديَّة إلى لبنان مع أوَّل سفينة مغادرة.

وعرفت أيضاً أنَّه مستعدٌّ لدفع كلِّ ما يملك لقاء جواز سفرٍ محترم، مع أنَّه في الحقيقة أصبح يمتلك أربعة جوازات سفر، لكنَّه يبدو مصاباً بداء هذه الوثيقة.

بقينا جالسين معاً حتَّى المساء، شربنا بيرة على الرُّغم من برودة الجو، ما جعلنا أكثر انفتاحاً وحيويَّة، حدَّثتها باندفاع عن حليم، وقمران، والوثائق، وسألتها إن كانت تعرف موقع الكنيسة السِّريانيَّة في زحلة فأجابت بالنَّفي.

لم تُبدِ اهتماماً كبيراً بالموضوع مثلما توقَّعت، واعتقَدَتْ أنَّها ربَّما مجرَّد خرافات، غنَّينا معاً ونحن عائِدَينِ إلى شاتيلا أغاني كثيرة، ثمَّ ودَّعتها والدُّنيا لا تتَّسع لفرحتي، وطرت إلى مقرِّ التَّنظيم حيث كان ميشيل بانتظاري.

(8)

شهيق... وزفير....

عشرة كيلومترات تفصل بين صور ونهاريا، مشبعة بالدَّم، مسكونة بالبارود.

كان الفشل يعني أكثر من الموت.

أمضينا أكثر من شهر في تدريب سريٍّ مرٍّ شاقٍّ طويلٍ استعدادا لتلك العمليَّة الَّتي حشدوا لها جيشاً من المقاتلين.

انطلقنا عشرين مقاتلاً في منتصف ليلة ظلماء كي لا يفضحنا ضوء القمر.

كان الشَّاطئ في تلك اللَّيلة مقفراً من الصيَّادين ما أثار شكوك وحيد الَّذي همس في أذني قائلاً إنَّه فكَّر بتأجيل العمليَّة، لكنَّه عاد فعدل عن رأيه خوفاً من أن تكون هواجسه مجرَّد أوهام.

كان يدرك تماما مدى أهميَّة العمليَّة التي سينفِّذُها.

أصرَّ على اختيار المقاتلين والذَّخيرة والزَّوارق والتَّوقيت دون تدخُّلِ أحدٍ لأنَّه كان يعرف أنَّ الثَّورة مخترقة حتَّى العظام.

تعانقنا قبل صعودنا إلى الزَّوارق، وانطلقنا في العتمة بهدوء، توغَّلنا في البحر، ثم بدأنا بالالتفاف نحو رأس النَّاقورة، بعد أن أطفأنا محرِّكات الزَّوارق ورحنا نجذِّف في العتمة اتِّقاء للرَّادارات الَّتي تنتشر على طول الحدود.

ظلَّ وحيد طوال الطَّريق ممسكاً بمنظاره الليليِّ يحدِّق إلى العتمة بحذر في كلِّ الاتِّجاهات، كنَّا نسمع صوتاً ما، ولكنَّنا لا نرى أحداً.

أحسست بالحيرة والخوف... ماذا يخبِّئ الظَّلام في أحشائه؟ ابتعدنا قليلا عن الزَّوارق الأخرى، توقفنا لحظات راح خلالها وحيد يحدِّق إلى الظَّلام، وقبل أن يُنزلَ المنظار عن عينيه كان أحد الزَّوارق ينفجر ويتطاير أشلاء في السَّماء وتندلع فيه ألسنة النِّيران.

مات الرِّفاق الَّذين على متنه جميعاً، وتطايرت أشلاؤهم في السَّماء، انهمر الرَّصاص علينا دفعة واحدة وسط المفاجأة والدَّهشة الَّتي أخذت الجميع لحظة ثمَّ ما لبثنا أن استفقنا، ورحنا نطلق الرَّصاص بعشوائيَّة باتِّجاه مصدر إطلاق النَّار.

صرخت سارة وسقطت على أرض القارب...

أمرنا وحيد بالتَّوقف، ثم أمرَ الدَّليل بتشغيل المحرِّك والانطلاق نحو البَحر، التففنا حول مصدر النِّيران، ساد الصَّمت والتَّرقب لحظات طويلة استطعنا خلالها أن نكتشف أربعة زوارق مجهولة الهُويَّة ما زالت تفتِّش عنَّا في العتمة، بدا واضحاً أن الزَّوارق قد أضاعتنا، عاد وحيد يلتفُّ من جديد حول الزَّوارق هارباً من قنابل الإنارة التي تعلَّقت في تلك اللَّحظة في السَّماء وأَضاءت البحر.

كان عليه أن يتَّخذ قراره بالاشتباك أو الفرار....

كان الاشتباك يعني الهلاك وفشل العمليَّة التي جئنا من أجلها، فقرَّر أن يفرِّ إلى البحر، أشار إلى الدَّليل بالانطلاق، كان علينا أن نبتعد بأسرع ما يمكن خوفاً من حضور المروحيَّات الإسرائيليَّة الَّتي كانت حتماً ستعثر علينا بسهولة وسط البحر.

تبعتنا الزَّوارق الأخرى نحو البحر بعد أن دعا وحيد الجميع إلى ذلك عبر اللاَّسلكي.

كان الجميع قد انتقل إلى موجة جديدة على اللاَّسلكي متَّفق عليها سلفاً خوفاً من أن تكون الموجة مخترقة.

انحنيت فوق سارة الَّتي كانت غارقة بالدِّماء، ممدَّدة على أرض الزَّورق اللَّزجة، وضع وحيد كفَّه على عنقها ثم رفع رأسه إليَّ، وبالكاد تبيَّنت ملامح وجهه في العتمة.

هززت الجثَّة وكأنِّي أحاول إيقاظها.

كان يمكن للقدر أن يكون أكثر رحمة وإشفاقاً.

بكينا جميعاً في العتمة والصَّمت.

من أين يأتي الفشل؟ وكيف يتلازم الحظُّ العاثر مع النَّاس؟ أهي المصادفة أم القدر؟

كان الدَّليل يبكي في مكانه خلف المقود والرِّيح تصفع وجهه وعنقه.

الآن ينفتح البحر على كلِّ احتمالات الموت والفشل والغربة والضَّياع.

الآن بتنا نشعر ببرودة الهواء، وبرودة الموت...

بكينا الرِّفاق الَّذين سقطوا بلا مقابل، وبكينا خوفنا، وأنفسنا المكسورة الضَّائعة وسط البحر، وسارة الممدَّدة أمامنا بلا حراك.

سرنا فوق الماء ساعتين، وحين أيقنَّا أنَّنا قد ابتعدنا بما يكفي، أطفأنا المحرِّكات، وجلسنا على المقاعد المتقابلة، كنَّا جميعاً مصرِّين على العودة والوصول إلى فلسطين مهما كلَّف الأمر.

ساد صمت طويل كنَّا نفكِّر خلاله في كلِّ الاحتمالات الممكنة، كنَّا نعرف أن العودة باتت أصعب، وأنَّها محفوفة بموت شبه أكيد، خصوصاً إن كانت تلك الزَّوارق المجهولة زوارق "إسرائيليَّة"، لكنَّنا مع ذلك كنَّا ندرك أن العودة إلى لبنان، بكلِّ تلك الهزيمة، وبكلِّ تلك الخسارة، وبدون تحقيق الهدف، شيء مستحيل.

- لا بـدَّ أن المروحيـات الإسـرائيليَّة سـتحاول البحـث عنَّـا.... قلت.

هزَّ وحيد رأسه موافقاً.

- لكنَّ الزَّوارق لا تحمل أعلاما، قال الدَّليل.
- ربَّما كانت لجيش سعد حدَّاد...

كانـت العيـون لا تفتـأ تفـتِّش وسـط الظُّلمـة لا شـعوريَّاً عـن تلـك الـزَّوارق خوفـاً مـن أن تفاجئنـا مـن جديـد، سـرنا بغـير هـدى زورقـاً وراء الآخـر، لم يكـن ثمَّـة شـهيَّة لـدى أحـد للطَّعـام في الصَّـباح، مضـى الوقـت بطيئاً وتسلَّل الهواء البارد إلى أجسادنا، وأصيب الدَّليل بدوار البحر، وفقد وعيه لساعات، وحين أفاق واستعاد قدرته على قيادة الزَّورق دار حول نفسه مرَّتين ما جعل وحيداً يعود ليتسلَّم دفَّة القيادة منه.

في المساء بدت أضواء المدينة المجهولة تلوح في الأفق البعيد، كنَّا قد أطفأنـا المحرِّكـات منـذ وقـت طويـل، وبـدأنا بالتَّجـذيف، الـدَّليل الضّـائع لم يكـن متأكِّـداً مـن هويَّـة المدينـة تمامـاً، لكـنَّ وحيـداً أكَّـد أكثـر مـن مـرَّة أنَّهـا نهاريا.

(9)

يومَ وَداعِ حليم، لم أجد ما أهديه له سوى رصاصة كلاشنكوف نقشت عليها ببراعة ورويَّة اسمينا معاً، وكتاباً عن تاريخ اليهود في فلسطين.

كتبت إهداء يفيض بالحبِّ والثَّناء، فرح حليم بالهديَّة وأهداني بالمقابل سلسلة ذهبيَّة تتدلَّى منها خارطة فلسطين، وأخبرني بأَنَّ تلك السِّلسلة هي كلُّ ما تبقَّى له من أُمِّه التي فارقت الحياة منذ سنين طويلة، وأَنَّه لن يجد من هو أحقُّ بها منِّي، علَّقتُ السِّلسلة في عنقي ورحت أتأمَّلها بفرح وسرور وسط حسد الجميع.

كان حليم قد بدأ يتعافى، تخفَّف من عكَّازه وصار بوسعه المشي على قدميه دون مساعدة من أحد، وكانت تلك ذكرى ميلاده، ووداعه في آن واحد.

خرقنا ليلتها قانون منع الشُّرب، واحتفينا به.

حليم يغنِّي...

ونحن انتماء الرَّصاص إلى سدرة المنتهى

وَحليم يغنِّي...

ونحن اشتياق الكلام إلى جثث الشُّهداء الَّذين مضوا دون أيِّ وداع...

شربنا ومتنا، شربنا وعدنا، شربنا، ثملنا، وغنَّيت غنَّيت حتى أتى الصُّبح، كيف السَّبيل لليلى الَّتي أشرقت في الكلام كحبَّة قمح غدت

يا حبيبيَ سنبلتين اثنتين، أنا والحبيبة، كيف السَّبيل إلى من أضاعوا الكلام وماتوا؟

ونحن نغنِّي....

نغـنِّي لمـن لا يعـودون مـن حسـرة الـذِّكريات، لنـا... للمتاهـة... للطُّرقات الغريبة عنَّا، لبيروت وهي تضيء الشُّموع كما عودتنا لتمحو ظلَّ الكآبة فوق الشَّوارع...

غنَّى حليم... وليلى أتت فوق مهر وغنَّت مواويل حبٍّ عتيق...

كأنَّ المكان اكتمال النَّهار، الشِّتاء، التُّراب، الثُّلوج الَّتي أَسرفت في الهطول.

شربنا، ثملنا، وغنَّى حليم، وبيروت كانت كما عوَّدتنا تضيء بنار الشُّموع، الشَّوارعَ.... كنَّا سكارى... لذا لم نمانع بأن نتبادل مع ثُلَّةٍ من جنود العدوِّ التَّحياتِ، كانوا سكارى، وكنَّا سكارى... وقلنا غدا نلتقي، فلنؤجِّل قليلا حديث الرَّصاص فلا بدَّ من هدنة للهروب من الخوف، مِنَّا، ولا بدَّ للحرب من منتصر.

تعبتُ كثيراً، ونمتُ، حلمت كثيراً....

حلمت بأَنِّي أحلِّق مثل الطُّيور وأهوي لأنِّي لبست جناحين من ورق في الحريق.

حلمت بأنِّي أُقادُ إلى حائط الموت بين البنادق، كيف اشتهيت قبيل اندلاعيَ إيوان كسرى وكيف التقيتُ بوجهي غريباً يلمُّ نثاري عن الطُّرُقاتِ؟

حلمت بليلى تهزُّ البِلاد الَّتي أُشرعتْ كالسَّكاكين في ليلنا المستدير.

أجَّلنا الحرب، وأجَّلنا الموت قليلا حتَّى الصَّباح، كان الثَّلج يغطِّي الأرضَ، والبرد قارساً، ولم يكن ثمَّة من بات ليلته يحرس المكان، الجميع كانوا سكارى، والجميع ناموا متعبين، استيقظنا في الصَّباح الباكر

مهدودين، الجدران كانت مليئةً بالشِّعارات والرُّسومات الَّتي رسمناها أثناء اللَّيل بلا وعي، والأرض كانت نتنة قذرة من أثر استفراغنا طوال اللَّيل، ودَّعَنا حليمُ ومضى دون أن يخبر أحداً إلى أين يمضي باستثنائي، فقد اتَّفقنا على أن نلتقي بعد ثلاثة أيَّام.

شرعنا بعد خروجه بتنظيف المكان، مسحنا ما خطَّته أيدينا على الجدران، وغسلنا الأرض، والثِّياب، وتحلَّقنا حول موقد الحطب نشرب القهوة وندخِّن، ونستمع إلى أخبار بيروت الَّتي كانت قد انتفضت ضدَّ اتِّفاق أيَّار، ورؤوسنا تكاد تنفجر من أثر الخمر.

جاء خليل ومعه إدريس وأبو حميد، وراحوا يتحدَّثون عن حليم، وما خلَّفه من أثرٍ لا يمكن لرجلٍ أن يتركه خلال أيَّام قليلة، بعض الرِّجال لا يترك خلال عمرٍ بأكمله ما يجعلك تذكره، وبعضهم لا يمكن لك أن تنساه بمجرَّد أن تراه.

خرجنا أنا وسليم ونضال كي نحتطب لإشعال النَّار الَّتي كادت تخبو، ورحنا نتقاذف كرات الثَّلج مسرورين، كانت الأرض كلُّها قد اتَّشحت بالبياض، دوَّى صوتُ رصاصةٍ في الفراغ، فصرخ نضال متأوِّهاً، ثمَّ سقط متكوِّماً على نفسه، ودمه يسيل فوق الثَّلج.

ساد الصَّمت والذُّهول....

ركضت نحوه، وتبعني سليم، ثمَّ توقَّفنا في منتصف الطَّريق، عشر خطوات تفصلنا عنه والقنَّاصة يقفون خلف الشَّبابيك متربِّصين.

الشَّجر صامت تماماً، والأرض بيضاء، والثَّلج قد توقَّف عن الهطول.

لم يكن يقطع الصَّمت سوى أنين نضال الَّذي تحوَّل إلى صراخ بعد حين. فهزَّ الأرض والفضاء وتردَّد صداه في كلِّ عيتات.

هل كان ثمَّة متَّسع من الوقت لأشعر بذلك الألم الَّذي كان يشعر به؟

كـان الـدَّم يسـيل كجـدول صـغير فيمتصُّـه الـثَّلج، ويتصـاعد منـه البخـار، وأنـا لا أزال واقفـاً، مبهوتـاً لا أَصـدِّق مـا يجـري، وعينـا نضـال معلَّقتان بي، ويده ممدودة نحوي في الهواء، وأنا أَقف كأَيِّ جبان على هذه الأرض وأَصرخ....

اتَّسـعت دائـرة الـدَّم حولـه فصـبغت رقعـة واسـعة مـن بيـاض الـثَّلج وأذابتهـا، مـاذا يمكـن لي أَن أفعـل؟ جرَّبـت أَن أَقـترب منـه فـدوَّى صـوت رصاصة في الفراغ انطفأت بين قدميَّ.

هي لُعبة القطِّ والفأر، لعبة العذاب، لعبة النَّزيف حتّى الموت، الموت أحياناً وحده لا يكفي لكي يشفي الحقد المتغلغل في الصُّدور.

ظللت مذهولاً، مقيَّداً، لا أَعرف ماذا يتوجَّب عليَّ فعله حتَّى أَفقت على صوت وقع أَقدام الرِّفاق خلفي، التفتُّ، كان الجميع يركضون نحونا، وقف خليل قبالته وطلب منه أن يحاول الزَّحف باتِّجاهنا، لكنَّه ما إن تحرَّك من مكانه حتَّى دوَّى صوت رصاصةٍ أخرى بالقرب منه، اخترقت الأرض.

خليل لم يبد انفعالاً هائلاً مثلي، لم يفقد البوصلة لحظة التَوتُّر، كان هادئاً تماماً كأَنَّه يلعب الشَّطرنج، فأَدركتُ بعدها أنَّ النَّاس لحظة التَوتُّر ينقسمون إلى قسمين: الأوَّل مثلي يفقد كلَّ قدرة على التَّركيز، والآخر مثل خليل، تشحذ لحظة التَوتُّر قدراته حتَّى تصبح حادَّة كالسكِّين.

كم لعنت تلك الصِّفة الَّتي لم أَستطع أَن أَتخلَّص منها طوال حياتي أبداً!

التقط خليل جهاز اللّاسلكي وراح يتحدَّث إلى المواقع كافة طالبا الإسناد لسحب الجريح، ثمَّ أمر الجميع بالإسراع إلى السِّلاح، وما هي إلاّ لحظات حتى انفجر محور عيتات- سوق الغرب، انهال الرَّصاص في كلِّ اتجاه، ودوَّى هدير الدبَّابات، وقذائف الهاون، وال بي سفن، زحفت نحوه بعد أن تساوت في ذهني حالة الموت وحالة الحياة، التقطته من كتفيه

وسحبته نحوي مسرعاً، لم أكن قادراً على رؤية دمه أكثر، قذفتُ بهِ فوقَ كتفي، ورحت أركض مسرعاً عبر الأنفاق إلى نبع الماء، حيث كانت عربة اللّاندروفر واقفة بالانتظار.

ما إن ألقيت به في مؤخّرة العربة ورميت بنفسي خلفه حتّى انطلق السّائق كالمجنون، كان الدَّم يتدفَّق غزيراً من صدره، وبدأ يفقد وعيه، تحسَّست مكان الجرح، ثمَّ خلعت قميصي وقددته وربطْتُ به الجرح محاولاً وقف نزيف الدِّماء، وأنا ألهث وأبكي.

- ستعيش.... إصابتك ليست قاتلة.... همستُ في أذنه.

لم أكن طبيباً، ولم أعرف بالضَّبط آنذاك إن كانت إصابته قاتلة أم لا، لكنَّني كنت أعزِّي نفسي قبل أن أعزِّيه، كنت أعرف فقط أنَّ إصابته ليست في الرَّأس، لذا قد ينجو.

كانت ثيابنا غارقة بالدَّم والماء، شعرت بالبَرد ينخر عظامي، ورحت أرتجف، لم أكن أدري إن كان قد همس شيئاً أم لا، كنت مثله فاقد الوعي، رميت بنفسي فوقه وضممته بقوَّة، كانت الدُّنيا تدور، والغيم يبكي، والشَّجر يبكي، والأرض تبكي، ونضال ينتفض ويهذي....

- ستعيش... همست، وانتحبت.

لكنَّ نضالاً كان قد أدرك كلَّ شيء، وكأنَّه كان يستعرض شريط حياته الممزَّق القصير، كان يدرك في تلك اللَّحظة أنَّه يطوي خلفه الحياة بكلِّ تفاصيلها الدَّقيقة... ويموت.

كانت أُمِّي تقول كلَّما ضحكنا كثيراً في ليالي الشِّتاء: استعيذوا بالله من هذا الضَّحك، وادعوه أن يقينا شرَّه.

وكأنَّ الأحزان مكتوبة في لوحِ القدر، كأنَّ الحزن هو الأصل، والضَّحك مجرَّد فأل سيِّئ.

منذ طفولتي تعلَّمت أن أخاف الفرح، ما فرحت يوماً إلاّ وحزنت كثيراً، وكأنَّ عليَّ دائماً أن أدفع فاتورة الضَّحك الباهظة.

السَّالب والنَّاقص، التَّوازن، التَّضاد، الأبيض والأسود، ولكن أيُّهما يغلب على الآخر؟ تلك كانت المسألة، وذلك كان هو السُّؤال.

التَّوازن لم يكن يعني أبداً التَّساوي، فالتَّساوي هو مجرَّد فشل في النَظريَّة والتَّطبيق.

للفرح ضريبة على كلِّ الَّذين لم يتعوَّدوا عليه أن يدفعوها!

كان نضال موجوداً في كُلِّ ركن في الخمسين، في السَّاحة، والخندق، والحديقة، وعلى الشُّباك، وفي الصَّالة، وغرفة النَّوم، وفوق السَّرير، ومع زقزقة العصافير، وبندقيَّته ظلَّت تستند إلى الحائط، ورائحة ملح البارود ما زالت تفوح منها، وكأنَّها لا تزال تنتظر عودته من سفره الطَّويل، البندقيَّة أيضاً كالخيل يمكن أن تبكي إذا مات صاحبها، وتموت.

ضممت البندقيَّة إلى صدري وقبَّلتها، كانت تختزل صورة نضال، وتعبق رائحته بها، منذ أن وطئت قدماي لبنان لم نفترق لحظة، حاربنا معاً جنباً إلى جنب، هو الَّذي علَّمني كيف أهرب من الموت، علَّمني كيف أحارب وجهاً لوجه، وكيف ألتحم بالسِّلاح الأبيض إذا اقتضى الأمر، وكيف أفرُّ محافظا على حياتي حين يجب عليَّ أن أحافظ عليها، كان قويَّاً، صلباً، شُجاعاً، على الرُّغم من جسده النَّحيل.

كم مرَّةٍ أنقذني من الموت!

لماذا عليك أن تفقد أجمل الأشياء دون خيار؟

ثمَّة العشرات غيره كانوا يستحقُّون الموت أكثر منه، لكنَّهم بقوا، وهو مات، شعرتُ بالنَّدم لأنَّني حمَّلته في الأيَّام الأخيرة أكثر ممَّا يحتمل، ونقمت عليه ناسياً كلَّ ما كان بيننا طوال الشُّهور الطَّويلة السَّابقة لمجرَّد أنَّه عبَّر عن رأيه بامرأة أحببتها.

ثمَّة سببان فقط لكسر علاقات الرِّجال بالرِّجال: المال، والنِّساء!

حمدت الله في سِرِّي لأنَّني لم أبح له بشيء ممَّا كان يدور في بالي، ولم أجرحه، ظللت فقط مصمِّما على علاقتي بليلى دون أن أبدي اهتماما بآرائه.

كم كنت قاسياً، ومجنوناً!

كان كُلَّما جلسنا معاً ينبشُ الرُّؤوسَ السَّوداء الَّتي كانت تملأ جسده بأظافره ويُخرج قطعاً صغيرة جدَّاً من الحديد ويقذفها بوجهي:

- احتفظ بها ذكرى للزَّمن...

وكأنَّه كان يعرف أنَّه سيموت.

وكأنَّه جاء إلى قدره لكي يموت!

دفنَّاه في مقبرة الشُّهداء وعدنا إلى الخمسين...

أقسى ما في الموت أنَّك تطوي خلفك كلَّ ما كنت تعرف، كلَّ شيء، منذ الولادة حتَّى لحظة الموت، هل كان الموت أقسى من الحياة؟ وأمُّه الَّتي لم تودِّعه عند الرَّحيل، ولم تره منذ سنتين، أمُّه الَّتي ما زالت تبكي فراقه وتنتظر لقاءه، ماذا سأقول لها إن قُدِّرت لي الحياة والتقيتها؟ هل سأسألها أن تبكيه أكثر، أن تغسله بالدُّموع كما غَسَلتُهُ أنا قبلها؟

كم مرَّة سألت نفسي ونحن نركض جنباً إلى جنب بين القذائف والرَّصاص من منَّا سيموت أوَّلاً، كم مرَّة رسمت سيناريو موت نضال وبكائي عليه! ألم تكن تلك خسَّتي الَّتي ستطاردني إلى الأبد؟

لماذا أحسُّ بفقدانه أكثر من الآخرين؟

ما أقسى المقاتلين! ثمَّة مواقف لا تحتاج إلى العقل، تحتاج إلى العاطفة فقط، لأنَّك حين تُعمل العقل فيها تفسدها.

لم يكن ثمَّة إلاّ أبو الفوز في الخمسين حين عدنا من المقبرة، ورجلٌ غريبٌ، أصلع الرَّأس، نحيل كعود الخيزران، يبدو قد تخطَّى الثَّلاثين بقليل،

يلبس كنزة حمراء، وبنطال جينز أزرق، وينتعل حذاء رياضيَّاً يجلس في الصَّالة معه، عرَّفنا أبو الفوز إليه قائلاً:

- أبو عبدالله، صحفيٌّ جاء من ألمانيا ليكتب كتاباً عن الحرب الفلسطينيَّة في لبنان، وهو أصلاً من سوريا، مهاجرٌ قديم.

ثمَّ راح يعرِّفه إلينا واحداً وراء الآخر.

رحَّبنا به وجلسنا صامتين، بينما راح هو يواسينا ببعض الكلمات، ويعتذر عن حضوره في مثل ذلك الوقت العصيب، ويضع اللَّوم على حظِّه.

خرج سليم فتبعته، سرنا صامتينِ حتَّى وصلنا الستِّين، ظننت أنِّي أهرب من الحزن، فوجدت الحزن بانتظاري، شربنا القهوة وبقينا نتحدَّثُ عنه حتَّى جاءت سيَّارة التَّموين في الظَّلام تحمل ملصقاً له، ونعياً، حمل عبدالكريم وأبو حميد الملصقات وراحا يوزِّعانها على بقيَّة المواقع الَّتي جاءت جميعها في اللَّيل إلى الخمسين معزِّية بنضال.

بقينا ساهِرينَ حتَّى الصَّباح، وأبو عبدالله، الوافد الجديد، رفض رفضاً قاطعاً أن ينام في سرير نضال، قال إنَّه يخاف من النَّوم في أسرَّة الموتى، وإنَّه لو تمدَّد فيه لقتلته الكوابيس، لذا كان عليَّ أن أرث فراش نضال، وأن أتنازلَ عن فراشي لأبي عبد الله الَّذي قبل الفراش مسرورا، بعد أن استأذنني بترك الكتب الَّتي كانت تفترش السَّرير لكي يطَّلع عليها، فأذنت له.

(10)

للمـرَّة الأولى أشـعر بـأنَّ كمـال متلهِّـف لـرؤيتي كثـيراً، لم ينتظـر أن أدخل مكتبه مع الحارسين اللَّذين اقتاداني إليه، بل خرج بنفسه ليستقبلني عند الباب وهو يفرك كفَّيه بعضهما ببعض، وما إن رآني حتَّى أسرع إلى الدَّاخل يهيِّئ لي مقعداً، وكأنَّنا صديقان قديمان.

منذ أن بدأ التَّحقيق معي شعرت بالرَّاحة، ما عاد ثمَّة من يعذِّبني ويشتمني ويجبرني على أن أقضي أيَّامي بلا نوم.

أجلسني الحارسان حيث أمر وانصرفا بإشارة منه.

كم غيَّر سقوط الاتِّحاد السُّوفييتي المدوّي هذا العالم، وكم أسقط أقنعة ووجوهاً! أحد الحرَّاس حاول أن يقنعني بعد نقاش طويل دار بيننا خِلسةً، بأهميَّة فكِّ الارتباط بين الضفَّة الشرقيَّة والضفَّة الغربيِّة نزولاً عند رغبة الفلسطينيِّين، لكنَّه غضب حين أخبرته بأنَّ الضفَّة الشرقيَّة لا يمكن لها أن تفكَّ ارتباطها بالضفَّة الغربيَّة، وأنَّ المسألة ليست مجرّد قرار سياسيٍّ، لأَنَّ العلاقة بين الشَّعبين لا تنفصم عراها، فهم دائماً كانوا شعباً واحداً حتَّى قبل تأسيس المملكة بكثير، انحدروا من ذات الآباء والأجداد، وإن كان المعنيُّون مصرِّينَ على قرارهم، فعليهم إعادتها أوَّلاً، لأَنَّهم ببساطة هم من فقدوها.

اتَّهمني بالردَّة والعمالة وانهال على وجهي بصفعة دوَّت في الصَّمت:

- اخرس....

فسكتُّ.

كيف استطاعوا أن يقنعوا النَّاس بأنَّ الانقسام بينهم عموديٌّ وليس أفقيَّاً؟ أليست تلك هي إحدى الطُّرق الَّتي تنصَّلت بها الأنظمة من القضيَّة الَّتي شَعَرتْ بها تثقل كاهلها، وتفقدها مكاسبها بعد أن أصبحت الكفَّة تميل كلُّها باتِّجاه أمريكا؟

ثمَّة من يعمل على ذلك من الطَّرفين، وله مكاسب من كلِّ ذلك.

كانت تلك هي الجلسة العاشرة الَّتي تجمعني بكمال.

بدا متوتِّراً ومحموماً، وسألني بلا مقدِّمات:

- ما علاقتك ببيريز؟

عاد يكرِّر السُّؤال من جديد، وهو ينقر بإصبعه على الطَّاولة:

- ما علاقتك ببيريز؟ نحن ما زلنا نتحدَّث كأصدقاء، صدِّقني، الموضوع بات يخرج من يدي، صار مثل كرة الثَّلج، يكبر، ويكبر، ويكبر، حتَّى أصبح أكبر منِّي بكثير..... لماذا يهتمُّ بك بيريز إلى هذا الحدِّ؟ ولماذا هو مصرٌّ على أنَّك سعيد؟ ما الَّذي بينكما؟ ما اسمك؟ من أنت؟... من أين يعرفك؟ ما اسمك الحقيقيُّ؟ وما علاقتك به؟

- اسمي سعيد، وعلاقتي ببيريز أنت تعرفها، هو ليس أكثر من عدوٍّ... أعني...

قال يقاطعني:

- تلك فقط بداية الحكاية، بيريز مهتمٌّ بك شخصيَّاً دون سواك، مهتمٌّ حدَّ الجنون، لماذا؟

- لا أعرف، ربَّما لأنَّني حاولت اغتياله..

- ليس ذلك هو السَّبب، هناك شيء آخر، أنت تعرفه من قبل، صحيح؟

- رأيته عرضاً ذات مرَّة.
- أين التقيتما؟
- في فلسطين.
- متى؟
- منذ عشرة أعوام.
- وماذا كنت تفعل هناك؟
- كنت في السِّجن.
- في عسقلان؟
- نعم.
- تلك العمليَّة؟
- نعم.
- ماذا كان الهدف؟
- خطف عالمٍ إسرائيليٍّ وضبَّاط وجنود.
- لماذا؟
- لمقايضتهم باللفافات؟
- أيَّة لف.....

ضرب بكفِّه على جبينه وقفز من مكانه كالملسوع، وتركني وراح يعدو في الممرِّ الطَّويل وبقيت أنتظر عودته، لكنَّه لم يعد، جاء حارسان واقتاداني من جديد إلى زنزانتي.

(11)

في اليوم الثَّالث لم يحضر حليم....

انتظرت من الواحدة ظهراً إلى ما بعد الرَّابعة بقليل، شعرت بالقلق، درت حول المكان كثيراً، عبثاً فتَّشت البيوت المهجورة المجاورة لعلَّه يكون قد أخطأ وراح ينتظر في أحدها، لم يكن له ثمَّة أيُّ أثر.

تساءلت في سِرِّي إن كان قد حصل له مكروه، ثمَّ تساءلت إن كان قد نسي الموعد، ثمَّ تساءلت إن كان قد وجد له شريكاً آخر غيري في اللفافات، وتساءلت إن كان حليم قد علم بموت نضال، لا بدَّ أنَّه قد رأى الملصقات على الجدران، فما الَّذي يمنعه إذن من الحضور؟

"ربَّما غيَّر رأيه وقرَّر أن يحصل على اللفافات وحده، يبيعها، أو يقايضها بعمل، وجنسيَّة، وجواز سفر في أيَّة دولة من دول أوروبّا....".

"لكنَّ حليماً ليس كذلك...."

"وماذا تعرف أنت عن حليم؟"

"أعرف أنَّه نظيف"

"لأنَّك غبيٌّ لا تعرف البشر"

"لو علم حليم بموت نضال لحضر حتماً، كيف لم ير الملصقات الَّتي تملأ جدران البلاد؟"

"أيكون قد أصابه مكروه؟"

صعدتُ الطَّريق إلى السِتِّين بعد أن فقدتُ الأمل بحضوره، كنت قد رويت لخليل كلَّ ما جرى بيني وبين ليلى على الرُّغم من الوعد الَّذي قطعته لها بألاّ أخبر أحداً بذلك، لكنَّني كنت أعتقد أنَّ الموضوع أكبر من أن يُسكت عنه، وأكبر من عواطف دلال تجاه وحيدها أحمد، فربَّما يكون قد باع شيئاً لا يتخيَّله العقل مقابل جرعات المخدِّر، والدُّولارات الَّتي صار يملكها.

أبدى خليل اهتماماً كبيراً بالموضوع، وكأنَّه وقع على كنز ثمين، اتَّفقنا على أن نلتقي مساء في السِتِّين.

صَعَدتُ الدَّرب بين البيوت والأشجار الَّتي اتَّشحت بالبياض متَّكئاً على عصا انتزعتها من إحدى الأشجار، كان الظَّلام قد بدأ يرخي سدوله، والجوُّ بارداً، ولم أكن أسمع ثمَّة إلاّ صوت الصَّراصير، والرِّيح، وحفيف أوراق الشَّجر، تجمَّدتُ فجأة في مكاني حين سمعت صوتاً يناديني، أدرت ظهري، وجدت أبا طلال يجلس على كرسيِّه أمام الدَّار، كنت أسمع عنه لكنَّني لم أكن أعرف بيته، ولم أكن قد قابلته من قبل، لكنَّني كنت أعرف أنَّ بيته يقع في هذه النَّواحي، وأعرف ملامحه دون أن أراه من خلال ما كان يرويه لي إدريس عنه، كان أكثر من أسطورة تدور كلَّ يوم في كلِّ أنحاء عيتات.

التَّفكير بحليم ونضال أعماني، مررت به دون أن أراه، عدت أدراجي، اعتذرت، سلَّمت، وعرَّفته بنفسي، وأشرت بسبَّابتي متسائلاً:

- أبو طلال؟
- نعم.

هزَّ رأسه مؤكِّداً لي أنَّه يعرفني، ويعرف كلَّ من في عيتات.

لم أكن أتوقَّع أنَّ رجلاً مثل أبي طلال قد يوليني يوماً أيَّ اهتمام.

وقفت أتأمَّلهُ على ضَوء الفانوس وبقايا ضوء النَّهار، كان شكله أسطوريًّا، وكأنَّه عاد من القرون الوسطى، للمرَّة الأولى أرى وجهه، لكنَّني، على الرُّغم من كلِّ ما سمعته عنه من إدريس، لم أتوقَّع أبداً أن يكون بهذا الشَّكل.

كان ضخماً، عريض المنكبين، طويل القامة، شعره الأبيض يتدلَّى على كتفيه بلا تنسيق، ولحيته البيضاء تستند إلى صدره، ووجهه محروق من أثر الشَّمس الَّتي لوَّحته سنينَ، وعيناه غائرتان في وجهه لكنَّهما تشبهان عينَي الصَّقر، وحاجباه كثيفان أَبيضان يغطِّيان جزءاً من العينين.

دعاني للجلوس فشكرته معتذراً، سحبني من يدي وأجلسني على الكُرسيِّ المقابل له فأحسست لحظتذاك بالقوَّة الَّتي يمتلكها ذلك العجوز.

جلستُ، فسكب لي كأساً من العرق.

كنت أعرف أنَّه فقد زوجته وأولاده الثَّلاثة في الحرب.

زوجته قتلت بين يديه، وأولاده استشهدوا في معارك الجبل واحداً وراء الآخر، فاستقال من الحرب منذ ذلك اليوم، وأخذ ينفق الرَّاتب الَّذي يتقاضاه كلَّ شهر من الحزب الاشتراكيِّ على العرق، كان لا يفارق الشُّرفة الحجريَّة الباردة طوال النَّهار، يشرب العرق ويدخِّن نرجيلته، حتَّى إذا فقد الإحساسَ بكلِّ ما حوله، نهض ونام.

راح يحدِّثني عن ذلك اليوم الَّذي نفذت فيه ذخيرته أثناء المعارك، وكيف شقَّ رأس مقاتلٍ بالسَّاطور إلى نصفين، وكيف استولى على بندقيَّة م16 منه، وواصل القتال.

كنت قد سمعت القصَّة من قبل، لكنَّ أبا طلال، لكي يؤكِّد لي روايته تناول من خلفه السَّاطور، كان الدَّم لا يزال على أطرافه وقد جفَّ، أكَّد لي أنَّ ذلك هو دم القتيل، ثمَّ سحب بندقيَّة ال م16، وراح يريها

لي، ويشرح الفرق بينها وبين الكلاشنكوف، ولماذا تفضِّل الجيوش بندقيَّة الـ م16، بينما يفضِّل الثُّوَّارُ بندقيَّة الكلاشنكوف.

بعد الكأس الثَّالثة نسيت موعدي مع خليل، ونسيت حليماً، واللفافات، كان أبو طلال على الرُّغم من كلِّ المآسي الَّتي حلَّت به كثير المزاح، لكنَّ لهجته الدُرزيَّة القَديمة كانت صعبة الفهم في بعض الأحيان، فكنت مضطرَّاً لأن أجاريه، وأضحك، حتَّى لو لم أفهم ما يقول، حدَّثتُه عن نضال، وعن ليلى، فحدَّثني عن مغامراته مع النِّساء حين كان شابَّاً في مثل سنِّي، والظُّروف الَّتي جعلته يتزوَّج من أمِّ طلال.

ضحِكتُ على الرُّغم من كلِّ الحُزن الَّذي كنت أشعر به، واكتشفت أنَّني لم أضحك منذ يومين.

كنت أعرفُ أنَّه لا يرى فيَّ سوى طفلٍ غرٍّ لا يعرف شيئاً عن الحياة، لكنِّي كنت أدرك أيضا أنَّه يعتقد بأنَّه يملك العالم، في الوقت الَّذي لم يكن يملك فيه حتَّى نفسه، فشكرت الخمر الَّتي جعلت أبا طلال يظنُّ ما يظنُّ، لأنَّه لو أدرك الحقيقة لمات قهراً وكمدا.

حضر إدريس فتذكَّرت موعدي مع خليل، كان لا يزال يحتفظ بجسده الرياضيِّ وعضلاته المفتولة، سألته ذات يوم عن سرِّ انجذابه للثَّورة، وهو المغربيُّ البعيد، الرِّياضيُّ المرفَّه الَّذي مثَّل المغرب في بطولات كثيرة في سباق المسافات الطَّويلة عربيَّاً وعالميَّاً، فأخبرني كيف شارك ذات يوم في بطولة في فرنسا، وكيف وقع ضحيَّة تآمرٍ فرنسيٍّ – "إسرائيليٍّ" قذر، حين وضعوا له في الطَّعام مادَّة مُسهلة جعلته يترك الميدان جرياً إلى الحمَّام، وسط تصفيق الجمهور الَّذي راح يهتف هازئاً منه.

– إنَّهم يكرهون كلَّ العرب، لا يفرِّقون بين عربيٍّ وفلسطينيّ، قال... ثمَّ أضاف:

- أنا لم أسمع ذات يوم يهوديَّاً يهتف ضدَّ فلسطينيّ... سمعت اليهوديَّ يهتف دائماً ضدَّ العرب، وأنا شخصيّاً لم أُسئ ذات يوم لليهود، لكنَّني مع ذلك وجدتهم يناصبونني العداء.

جلس بعد أن صافحنا، رفع رأسه وهو يسكب البيرة الباردة الَّتي لم يكن يشرب سواها وأخبرني أنَّ خليلاً قلب الدُّنيا وهو يبحث عنِّي، قفزت من مقعدي كالملسوع واستأذنت وخرجت مسرعاً إلى السِتِّين.

كان ميشيل وعبد الكريم منغمسين في تنظيف السِّلاح، وخليل يلعب الشَّطرنج مع أبي حميد، رحَّب بي مستهزئاً وهو غارق في التَّفكير، وطلب منِّي أن أعدَّ القهوة....

سكبت القهوة للجميع، ثمَّ جلست أتابع لعبة الشَّطرنج.

أبو حميد كان مولعاً بها، ولم يكن ثمَّة من هو قادر على هزيمته، جرَّبت حظِّي ذات يوم معه فهزمني بعد دقيقتين فقط...

وحده خليل كان قادراً على الصُّمود أمامه، كان يقاوم حتَّى الرَّمق الأخير، وكلَّما خسر جولة أصيب بالغيظ، وصار أكثر تصميماً على هزيمته.

حذراً كان، كثير التَّفكير كأنَّه يخوض معركة حقيقيَّة نهايتها موته أو حياته.

- أين كنت؟.... سألني وهو سارح في الرُّقعة.
- كنت مع أبي طلال.

ابتسم هازئاً.

- متى اهتديت لأبي طلال، ألا يكفينا إدريس؟
- أجبرني على الجلوس معه قليلاً.
- أسقاك عرقاً؟
- ....

-	الرَّائحة تفوح من فمك.

-	....

حرَّك أبو حميد القلعة إلى الأمام وابتسم...

-	كش... مات....

لم يصدِّق خليل كلامه، ظلَّ يحدِّق طويلاً في الرُّقعة وحين أدرك أنَّه قد هزم وضع اللَّوم عليَّ، وعلى رائحة العرق الَّتي تفوح من فمي، قلب الحجارة بيديه غاضباً فسقط بعضها على الأرض، وراح أبو حميد يلملمها، ويعيدها إلى صندوقها وهو يبتسم بخبث.

التفت خليل إلى ميشيل، وقال:

-	غداً ستذهب باكراً إلى صيدا....

هزَّ ميشيل رأسه....

كان أكثر المقاتلين فائدة في كلِّ الظُّروف، فهو مسيحيٌّ مارونيٌّ، يضع هُويتَّه الشَّخصيَّة في جيبه الأيمن، وهُويَّة التَّنظيم في جيبه الأيسر، فإذا أوقفه حاجز للقوى الوطنيَّة أو السُّوريين أخرج هويَّة الجيب الأيسر، وإذا أوقفه حاجز للقوى المسيحيَّة أو "الإسرائيليين" الَّذين كانوا لا يزالون يسيطرون على الجنوب آنذاك، أخرج الهُويَّة من الجيب الأيمن.

كانوا يرسلونه بالتَّعليمات والرَّواتب أحياناً إذا سُدَّت الطُّرق إلى المخيَّمات، وكانت التَّنظيمات الأخرى تطلبه للمساعدة كلَّما احتاجت إليه، فكَّرت أن أطلعه على سرِّ اللفافات، إلاّ أنَّني عدلت عن رأيي، فقد كنت أعرف أنَّ ميشيل هو ذراع خليل الأيمن، وما يعرفه ميشيل سيعرفه خليل بالضَّرورة، وما يعرفه خليل سيعرفه التَّنظيم، فإذا عرف التَّنظيم بقصَّة اللفافات لن نرى منها شيئاً، وسنصبح أنا وحليم فجأة خارج الموضوع.

دخَّن خليل، ثمَّ بدا مستغرقاً في التَّفكير، كان يدير شبكة واسعة من الرِّجال في كلِّ مكان في لبنان، وكان يشعر بنفسه ترزح تحت وطأة أشياءٍ

كثيرة لا يستطيع أن يفصح عنها لأيٍّ أحد، ما يجعل حمله دائماً مضاعفاً.

- كيف حال علاقتك بليلى؟
- جيِّدة..... أجبت.
- أريدك أن تنسى ليلى قليلاً وتركِّز على أحمد....

شعرت بالغثيان...

- أحمد؟
- أحمد قد يكشف ألغازاً تحيِّر الكثيرين في بيروت، أعتقد أنَّه خيط مهم سيقودنا إلى مكان ما، عليك أن تعلن عن رغبتك بالسَّفر أمامه، وعليك أن تصرِّح بصورة غير مباشرة أنَّ علاقتك مع المهندس قويَّة وبوسعك أن تنال منه ما تريد.
- لكنَّني لا أعرف المهندس أصلاً ولم أره، ولم أسمع به من قبل إلاّ منك.
- اقرأ هذه الورقة وستجد فيها كلَّ ما تريد.

قال وهو يناولني ورقة مطويَّة، ويطلب منِّي أن أجلس في ركن بعيد وأحفظ ما فيها ثمَّ أحرقها، رحت أقرأُ الورقةَ بتمعُّن محاولاً أن أحفظ ما فيها عن ظهر قلب، وأنا أشعر بالرِّضا والحبور في أعماقي لأنَّني بتُّ مهمًّا في نظره إلى هذا الحدِّ، كان ذلك هو الامتحان الأوَّل الَّذي رسبت فيه بجدارة، ففتح أمامي أبواب الجحيم.

* * *

خليل شيطان يعرف من أين تُؤكل الكتف....

ربَّما أتاحت له الفلسفة الَّتي درسها أن يغوص في بواطن الأشياء، لا أن يظلَّ متعلِّقاً بظواهرها، فأصبح أكثر الرِّجال قدرة وتأثيراً.

كنت مخطئاً حين اعتقدت أنَّ مهمَّتي الجديدة هي أكبر فرصة لي للبقاء قريباً من ليلى، ذهبت بعد أيَّام إلى شاتيلا وحدي، الطُّرق أَصبحت آمنة بعد انسحاب الجيش وسيطرة القوى الوطنيَّة عليها، ووجدت نفسي فجأة أعزف على أجمل وتر يطرب له أحمد.

انقلب أحمد فجأة إلى رجلٍ آخر، ما عاد يتهكَّم عليَّ ويستهزئ بي، ما جعلني أؤمن بأنَّ نظريَّة خليل الَّتي بنى عليها تخميناته صحيحة.

راح يحدِّثني عن رحلته إلى السُّويد، ثمَّ عودته، ثمَّ رحلته الأخرى، وكيف استطاع إقناع الحكومة السُّويديَّة بإعطائه حقَّ اللُّجوء.

أنكر أنَّهم طردوه، وقال إنَّه عاد من تلقاء نفسه، بعد أن وعده المحامي باستدعائه إلى جلسات المحكمة الَّتي ستعقد عمَّا قريب، وإنَّ كلَّ ما يشاع عنه هو مجرَّد أقاويل باطلة، وأكاذيب تروِّج لها شقيقته ليلى.

كان يعرف أنَّها تكرهه، بدا أنَّ هناك ما يخفيانه ولا يريدان لأحد أن يعرف به، من أين جاء كلُّ ذلك الحقد الَّذي ملأَ صدرها تجاهه؟ هل هو جزء من كرهها للرِّجال؟

فكرة جهنَّميَّةٌ خطرت بباله...

سلَّم نفسه لطبيب نفسيٍّ بعد أن ادَّعى الاكتئاب، الطَّبيبُ قضى شهراً وهو يعالجه في مصحٍّ للأمراض النفسيَّة، ثمَّ أطلقه في غابة ملحقة بالمشفى، قال له: اصرخْ فصرخ، قال له: اصرخْ أعلى فصرخ أعلى، ثمَّ تركه بعد أن أخبره أنَّ علاجه هو الصُّراخ، تماماً كطرزان، طلب منه الصُّراخ قبل الأكل وبعد الأكل، قبل النَّوم وبعد النَّوم، في الصَّباح والمساء، قال له: لا تتوقَّف عن الصُّراخ حتَّى لو بُحَّ صوتك، فظلَّ يصرخ

شهراً بأكمله ثمَّ حملوه إلى ذات الطَّبيب الَّذي فحصه وكتب تقريراً، أكَّد له المحامي أنَّه سيحصل على الجنسيَّة بمجرَّد أن تراه المحكمة.

- ما الَّذي كتبه في التَّقرير؟
- لا أدري، لم يقل لي المحامي الكثير، وأنا لا أعرف لغتهم، كان تقريراً طويلاً يتألَّف من عشرين صفحة على الأقل، ذكر فيه أنَّني تعرَّضت لاضطهاد قسريٍّ.

اختتم حديثه بالسُّؤال عن علاقتي بالمهندس، وإن كان مستعدَّاً لتزوير بعض جوازات السَّفر، والبطاقات الشَّخصيَّة مقابل المال، مقابل مال كثير، فأجبته بالإيجاب.

ما لم يكن بالحسبان أبداً هو ردَّة فعل ليلى، كنت أعتقد أنَّ تلك المهمَّة ستجعلني قريباً منها، فإذ بي أجدها تهرب منِّي.

كنت أدرك أنَّها تكرهه لكنِّي لم أعرف أنَّها تكرهه إلى ذلك الحدِّ، كم مرَّة حاولت أن أعرف السَّبب، وأن أصلح بينهما، بلا فائدة، كان أحمد بارداً تجاهها، بدا أنَّه لا يكرهها ولا يحبُّها، لكنَّها كانت تختزن براكين من الحقد عليه انفجرت كلُّها في وجهي دفعة واحدة.

خليل كان يعرف تلك النَّتيجة وربَّما رتَّب لها متعمِّدا دون أن يشعرني بذلك.

لم أكن أدري لماذا كان الجميع مصرِّين على أن أبتعد عن ليلى، هل كان لهم وجهة نظر نضال ذاتها؟ هل كانوا يعرفون ليلى؟ هل كنت أنا الوحيد الَّذي لا يريد أن يرى بعينيه وإنَّما بقلبه؟ كلَّما ابتَعَدتْ أكثر عنِّي تذكَّرت نضالاً الَّذي لم يترك جهدا ليقنعني بأنَّها ليست صالحة لي.

وحدها دلال بدأت تعتقد أنَّ بوسعي أن أَجعل ليلى تبدِّل ثيابها السَّوداء، وتشجِّعني، وتشدُّ على يدي، من يدري، لعلَّها كانت تسعى إلى

زواجنا لأنَّها كانت تعتقد أنَّ بوسع هذا الزَّواج أن ينتشلهما معا من عذاب وفقر شاتيلا بعد أن تستقرَّا في عمّان!

- دلِّلها، ناغشها، النِّساء يطرن بالكلام الحلو المعسول، اكذب عليها، هل سأعلِّمك يا عرص ما عليك فعله؟
- قلت لها شعراً يحرِّك الصَّخر، هل يوجد أكثر من هذا؟
- يا قوَّاد، ليس بالشِّعر وحده تحيا النِّساء، هناك أشياء أخرى يجب أن تفهمها، أخٍّ لو كنت رجلاً، قالت وهي تكزُّ على أسنانها.

لم أكن قادراً على أن أدرك ما هي الأشياء الأخرى، ولم أسألها.

أبو الفوز لم يستطع أن يعترض على غيابي المتكرِّر عن الخمسين، لأنَّه كان يعرف أنَّني مكلَّف بمهمَّة من قبل خليل، مسؤوله العسكريِّ، وللمرَّة الأولى بذل مجهوداً كبيراً لمعرفة تلك المهمَّة لكنَّه فشل أمام صمتي، ما أثار فضوله وغيظه.

كان يخاف خليلاً مثل كلِّ المقاتلين الآخرين، ويحسب له ألف حساب، لذلك آثر أن يبحث بهدوء وصمت، لأنَّه كان يعرف أنَّ أبسط الأشياء تثير انتباه خليل، وغضبه.

صرت دائم الذَّهاب إلى شاتيلا، لكنَّ ليلى أصبحت تهرب منِّي على الرُّغم من تدخُّل أمِّها بيننا بين الحين والآخر، ما عادت كما كانت في السَّابق تقضي السَّاعات معي على جهاز اللاَّسلكي، وحين أدخل البيت كانت تغادره بحجَّة العمل، وحين ألحق بها إلى مقرِّ التَّنظيم في شاتيلا كانت تعتذر منِّي كأيِّ رجلٍ غريب، وتنهمك في العمل بلا توقُّف.

فكَّرتُ أن أُخبرها بالحقيقة، وأعتذر عن تلك المهمَّة الَّتي جعلتني أخسر علاقتي بها، فكَّرتُ، لكنِّي كنت خائفا من ردَّة فعل خليل الَّذي سيقول لي حتماً إنَّ مصلحة الوطن والتَّنظيم فوق كلِّ المصالح، لذا آثرت

أن أكمل مهمَّتي بصمت، دون أن أعرف أنَّ ارتداد ليلى عنِّي لم يكن سببه علاقتي بأحمد أبداً.

* * *

صارت ليلى أكثر برودة من الثَّلج، وانفتحت بيننا فجوة كانت تزداد اتِّساعاً كلَّما اقتربت من أحمد أكثر، وسط شعور دلال بالخسارة ومحاولاتها الحثيثة لرأب الصَّدع الَّذي كان يزداد اتِّساعاً يوماً بعد يوم.

حاوَلَتْ أن تصطحبها معنا حينَ دعتني للذَّهاب إلى العرَّافة حليمة، إلا أنَّها رَفضتْ، لم أكن مؤمناً بالفكرة أصلاً، ولا بحليمة، لكنَّني وافقت لأنَّني كنت أعتقد أنَّ ليلى ستكون معنا، وحين رَفَضَت الحضور لم أكن قادراً على أن أغيِّر رأيي.

ظلَّت دلال طوال الطَّريق تحدِّثني عن قدرات حليمة، قالت إنَّها فكَّت عقد الكثيرين، رجالاً ونساءً، وكشفت أسراراً، واكتشفت لصوصاً، وطلَّقت، وزوَّجت، وجعلت نساء لم يحلمن يوماً بالإنجاب ينجبن، ونساءً لم يحلمن يوماً بالزَّواج يتزوَّجن.

قالت إنَّ عرفات بنفسه كان يستدعيها بين الحين والآخر عندما كان في بيروت، ليستشيرها في بعض الأمور.

– هناك شابٌّ معروف لا بدَّ أنَّك رأيته أو سمعت به، موسى الكسيح، أتعرفه؟

هززت رأسي نافياً.

– فقد قدميه من قذيفة هاون، وصار يتنقَّل على عربة "بيليا" في السُّوق، الكلُّ يعرفه، سُدَّتْ كلُّ طرق الزَّواج بوجهه، وحين لجأ إليها زوَّجته من فتاة من مخيَّم البدَّاوي.

- كيف؟
- النِّساء لسن كالرِّجال، النِّساء أكثر صبراً من الجمال، تعيش المرأة مع الرَّجل حتَّى لو كان مجنوناً أو مكسوراً أو أعمى أو أطرش، النِّساء أكثر إخلاصاً من الرِّجال.
- صحيح.
- لكنَّهم والحقُّ يقال، خدعوها، تزوَّجته على الصُّورة بعد أن عمل توكيلاً لأبيه، قالوا لها إنَّه في أمريكا، وفوجئت به ليلة الدُّخلة، فأغمي عليها، لكنَّها عادت ورضيت بالأمر الواقع، كانت يتيمة بلا سند.
- هذا خداع.
- ألم أقل لك إنَّ النِّساء أكثر صبراً من الجمال؟
- صحيح، لكنَّ العقد باطل لأنَّه بني على الغشِّ.

قهقهت....

- العقد هو ما صار واقعاً، فقط ما صار واقعاً.... وهنا يحكمنا العرف لا القانون.... ومنطق القوَّة أنت تعرف، أليس كذلك؟

هززت رأسي.

- لكن ما دخل حليمة بالموضوع؟
- كانت فكرتها أن يخرج إلى خارج المخيَّم، فهنا لن يزوِّجوه.... قالت له: نصيبك في البدَّاوي، فذهب إلى البدَّاوي، وقالت له: ستتزوَّج على الصُّورة، فتزوَّج على الصُّورة.
- ما شاء الله.... لعنة الله عليها وعلى منطقها... هذه نصَّابة محترفة وليست عرَّافة..
- لا تلعنها فتحلَّ بك اللَّعنة، إنَّها مباركة...

رفعت حاجبيَّ مدهوشاً.

- وهل تؤمنين بذلك؟
- طبعاً....

تساءلت في سرِّي: ما الَّذي يمكن أن يغيِّره اليسار، والأفكار الثَوريَّة، والتَقدميَّة، في هؤلاء البسطاء؟ ربَّما ما زال الطَّريق أَمامنا شاقّاً وطويلاً، ليست تلك هي المسألة، السُّؤال هو: هل ندرك هذا كما قال وحيد، أم لا؟

كانت سريعة الخطى، تلهث، وأنا أكاد أركض حتَّى ألحق بها، تقفز من زقاق إلى زقاق ومن شارع إلى شارع وهي رافعة طرف ثوبها محاولة أن تتفادى برك الماء الَّتي تجمَّعت في الطُّرقات، لم تكن حركتها تناسب قدراتها المرسومة في رأسي.

ظهر رجب فجأة من أحد الأزقَّة، وحين رآنا هرع إلينا، اقترب منِّي، بدا أنَّه يتذكَّرني كما هُيِّئ لي، طلب سيجارة فأعطيته، علَّقها على أذنه وطلب واحدة أخرى فأعطيته، وضعها بين شفتيه وطلب أن أشعلها له، نهرته دلال فراح ينفث الدُّخان في وجهها كأنَّه يتحدَّاها، وهي تشتمه، وتضحك، دسَّت يدها في صدرها وأخرجت عشر ليرات وناولتها له، أخذها وراح يعدو مبتعدا.

- ذلك هو المفتاح السِّحريُّ الوحيد للتخلُّص منه، قالت، ثمَّ أضافت وكأنَّها اكتشفت شيئاً:
- ألا ترى أنَّه يشبه أخاك!

ضحكت، وردَّدت مازحاً:

- جميل، يمكن أن أعود به غداً إلى عمَّان وأقول لأمِّي وجدت ابنك، وأتخلَّص من هذه المهمَّة الثَّقيلة، من يستطيع أن يثبت العكس؟

- منذ أن عرفناه وهو وحيد، ينام في الشَّوارع، لا أهل له، لا أحد...
- والتَّنظيمات؟
- ماذا ستفعل له التَّنظيمات؟ يطعمونه، ويسقونه، لكنَّه لا يطيق البقاء في مكان واحد شأن كلِّ المجانين.

قرَّبت فمها من أذني:

- يقولون إنَّه كان مع فتح.
- معقول؟

هزَّت رأسها....

- ويقولون إنَّهم ضربوه بأعقاب البنادق حتَّى أغمي عليه، ثمَّ حين أفاق كان على هذه الحالة.... هكذا سمعت، هناك من يقول إنَّه كان قائد فصيل...
- لماذا ضربوه؟ سألت وأنا ألهث.
- لا أدري...
- لا بدَّ أنَّ وراءه سرًّا كبيرا....
- ربَّما، في العام الماضي كاد أحدهم يقتله.

قهقهت، كانت على الرُّغم من أعوامها الخمسين تبدو وكأنَّها تحمل طفلة في أعماقها، قرَّبت فمها من أذني من جديد.

- هذا المجنون نكح نصف نساء المخيَّم.
- أووووف.

عادت تضحك وهي تحاول أن تخفي بكفِّها سنَّيها المفقودَين.

- يدخلنه بحجَّة العطف عليه، ثمَّ أنت تعرف ماذا يجري خلف الأبواب المغلقة، الكلُّ يعرف، ويسكت، في العام الماضي طرق أحد الأبواب، فتح له الزَّوج العائد من معتقل أنصار

الباب، وأدخله البيت، وحين سأله عمَّا يريد معتقداً أنَّه جاء يطلب طعاماً، أجاب: أريد أن...... زوجتك.

هرع الرَّجل إلى الكلاشنكوف ووضعه في رأس زوجته، ولم يتركها إلاّ حين اعترفت بكلِّ شيء، طلَّقها وأوسع رجب ضرباً، ولم ينقذه من يديه إلاّ الجيران... النِّساء ملعونات، صبورات إذا أردن الصَّبر، لكنَّهن إن أردن فعل شيء فلن يردَّهنَّ حتَّى الشَّيطان نفسه، اسألني أنا، أنا امرأة وأعرف طينة النِّساء...

كلُّ شيء من باب البيت حتَّى محرابه واضح كالشَّمس، ونضال حذَّرني، لكنَّني منقاد كأنَّني كبش فداء عظيم.

"ما الَّذي يمنع أن تكون هي أيضاً أدخلته إلى بيتها، ومارست معه ما مارست كلُّ النِّساء اللَّواتي تحدَّثت عنهنَّ؟" فكَّرت متسائلاً.

هي أيضاً لا تزال جميلة على الرُّغم من تلك التَّجاعيد تحت العينين، والسنَّين المفقودينِ، هي أيضاً لا تزال مقبلة على الحياة.

ما الَّذي جعلني أتورَّط معها، ومع ابنتها نصف المجنونة، ومع ابنها المأفون؟

توقَّفَتْ أخيراً أمام باب معدنيٍّ علاه الصَّدأ، دفعته بيدها ودلفت إلى فناء ضيِّق، سِرتُ خلفها، طَرَقَتْ باباً خشبيَّاً عتيقاً، فسمعنا صوت العجوز من الدَّاخل يأمرنا بالدُّخول.

الغرفة دافئة كالطَّابون، تفوح منها روائح متناقضة، بعضها طيِّب وبعضها كريه، "ربَّما تقضي العجوز حاجتها في الغرفة "فكَّرت وأنا أنزل الدَّرجات الثَّلاث، كان مستوى الغرفة تحت مستوى الأرض كالقبو، وعلى الدَّرجات الثَّلاث ثمَّة بقايا ماء ما جعلنا نهبطها بحذر كي لا ننزلق ونسقط.

كانت تجلس في صدر الغرفة وحيدة على جلد خروف، تضع على كتفيها عباءة رجل، وأمامها كانون النَّار.

رحَّبَتْ بنا، ودعتنا للجلوس.

شاشتها مهترئة تميل إلى الاصفرار، ربَّما تجاوزت المائة عام بقليل، وجهها مليءٌ بالتَّجاعيد وكفَّاها كذلك، راحت أمُّ أحمد تشرح لها سبب مجيئنا، هزَّت رأسها هزَّة العارفين، مدَّت يدها المرتجفة نحوي، أمسكت بكفِّي، كأنَّ عينيها تقدحان شرراً، كأنَّ يدها جمرة من نار، كأنَّ خوفاً ما تسلَّل إلى أعماقي، تنَحنحتُ، هززت رأسي محاولاً أن أَخرجَ من ذلك الإحساس الَّذي بدأ يسيطر عليَّ، الرَّوائح الكثيرة المنبعثة من النَّار جعلتني أشعر بالاسترخاء، والاستسلام.

- هل تحمل شيئاً من أثره؟

أخرجت الصُّورة من جيبي، لم أكن ذات يوم أملك سواها، ناولتها لها فألقت بها في النَّار وسط دهشتي، ولهفتي، واستنكاري.

رأيت وجهه يحترق، وأذنيه، وشعره، وابتسامته، وطاقيَّته الخضراء.

لم أكن قادراً على الاعتراض، كنت مستسلماً لها تماماً كأنِّي مخمور، نظرت إلى أمِّ أحمد فكانت مستسلمة لها مثلي.

تناولت حليمة مسحوقاً أبيض ورمته في النَّار، وراحت تهذي كصوفيٍّ متمرِّس، ارتفعت ألسنة اللَّهب، ورأيتها وهي تشهق... وتصيح، وتولول، ثمَّ نثرت بكفِّها سائلاً كالبول على النَّار.

رمت بقطعة "شبَّة" فوق الصفيحة السَّاخنة، ورأيت كلمة بيضاء تتجلَّى وسط السَّواد الَّذي اتَّشحت به الصَّفيحة لم أستطع فكَّ طلاسمها.

تمتمت: أخوك أكلته الحرب.

انتفضتُ محاولاً أن أخرج من تلك الحالة الَّتي كانت تسيطر على أعضائي، وتملؤني بالرُّعب.

- الحرب؟

- الحرب، الحرب، الحرب، الحرب، الحرب....

ظلَّت تردِّد ذات الكلمة حتَّى تمنَّيتُ لو أنَّها تصمت، كنت أريد أن أخرج بأيِّ ثمن، شعرت بالتَّعب والإعياء والدُّوار، وارتعش جسدي حتَّى أصابع قدميَّ.

لا أعرف كيف نهضت، وكيف اندفعت إلى الخارج، كأنَّ يداً خفيَّة هي الَّتي قذفتني كقنبلة، ركضت، رحت أعدو مبتعداً عنها، وبقيت أعدو، وأعدو، وأعدو، حتَّى خرجت من المخيَّم.

(12)

للوحدة الواحدة قطبان: شرق وغرب، سالب وموجب، صغير وكبير، مرٌّ وحلو، أنا وأنا!

والأرض لا يمكن لها أن تسكن بين قطبين ساكنين، لا بدَّ من تجاذب ما لكي تدور الأرض، وتستمرّ الحياة.

من يحلم بإصلاح الأرض المكسورة؟

لا شيء في الذَّاكرة غير الرَّماد، وبقايا الحريق، وأنين الذِّئاب، والجثث الَّتي احترقت تماماً ولم يبق منها إلاّ العِظام.

الوقت صفر، أو ما قبل الصِّفر بقليل.

هنا بيت إبليس، حارس الخطيئة، هنا تعلَّم آدمُ كيف يمكن أن يسير على قدمين اثنتين، هنا منبع الدِّماء، وفتنتها، هنا خُلقَ الماء، وعلَّم الله آدم الأسماء، هنا، على هذه الأرض دارت رحى حروب طحنت ملايين البشر، سقطت ممالك وارتفعت ممالك، سقطت حضارات وارتفعت حضارات، هنا، على هذه الأرض ما زلت كما أنا، مسكوناً بهاجس الحياة، أو العودة إلى الحياة!

هنا يختلط الآن كلُّ شيء بكلِّ شيء: يختلط الأبيض بالأسود، يختلط الماضي بالحاضر، يختلط اللَّيل بالنَّهار، والسيِّد بالعبد، والعبد بالسيِّد، لا سيِّد مطلق ولا عبد مطلق، كلُّهم حسب ترتيب الزَّمن سواء،

كلُّهـم في لحظـة ارتطـام السَّـماء بـالأرض سـواء، كلُّهـم عبيـد أمـام سـيِّد الكون وحارسه وشرطيِّه الوحيد.

أخرج من عتمة هذا الكون وحيداً تسكنني الردَّة.

الردَّة تعني ألاّ تسقط في فخِّ الفتنة سهواً.

والردَّة تعني أن تختار على مهلٍ موتكَ.

والـردَّة تعـني أن تشـعل قلبـك كـي لا تسـقط في بئـر الوهـم، ومِسـطرة المنشار.

كُلَّمـا جلسـت مـع كمـال، أُصبـت بالإحبـاط أكثـر، كلَّمـا قلَّبـت الأمور في رأسي، أُصبت بالدَّوار.

كمـال شـخص عجيـب، ربَّمـا كـائن مشـوَّه لا ينتمـي إلى أيِّ شـيء، ولا إلى أيِّ قُطب.

صـرت أَعـرف تمامـاً أنَّ مكانـه لـيس هُنـا، أبـداً، فهـذا المكـان لـه معطياته، ومتطلباته، وضريبته الَّتي لا يمكن لك ألاّ تدفعها إن رضيت بأن تجلس خلف تلك الطَّاولـة الَّتي يجلس هـو خلفهـا، وعلـى ذات الكرسـيِّ الوثير.

ربَّما بوسعك أن تكون معه أكثر انعتاقاً وحريَّة وهدوءًا، ربَّما بوسعك أيضـاً أن تجد معه لغة تفاهم ما، أن تقدَّم له بعض التَّنازلات إرضاء له، مقايضاً بذلك شيئاً بشيء، ربَّما، لكنَّك دائماً تعرف بينك وبين نفسك أنَّه ليس الأوَّل، ولا يمكن له أن يكون، وليس الأخير، هناك دائماً رجل ما، خلفه، يتحكَّم بكلِّ شيء، وعليك لكي تحدِّد موقعك بالضَّبط أن تصل إليه.

الوجـه الآخـر هـو الأصـل، هـو الحقيقـة، هـو المسـيطر، هـو الَّـذي ستحسب له دائماً ألف حساب، وتعرف أيضاً أنَّك تخاف ذلك الوجه، وتعدُّ له العدَّة للِّقاء.

أين مضى الوجه الآخر؟

كنت أعرف أنَّه سيأتي، وأنَّ المسألة ليست إلاّ مسألة وقت!

كنّا نتحدَّث كثيراً، خرجنا عن إطار التَّحقيق كثيراً، حدَّثني عن أبيه الباشا، حدَّثني كيف جهَّز المنصب له، وكيف أرسله إلى بريطانيا على نفقة الدَّولة ليلتحق بالجامعة.

ثمَّة شبه بينه وبين جورج، فكلٌّ منهما تمرَّد بطريقة أو بأخرى على أبيه.

قال إنَّه حين عاد من بريطانيا كان قد تغيَّر كثيراً، أشياء كثيرة كان لا يدركها وبات يدركها.

كان قد تعرَّف هناك إلى بعض المطلوبين لأبيه، وجد أنَّهم لا يقلُّون عنه حبّاً للبلاد، لكنَّهم يحبُّون البلد بطريقتهم هم، لا بطريقة أبيه.

أقام علاقات مع بعض الشّيوعيين والبعثيّين، وحين علم أبوه بالأمر جنَّ جنونه، وطار إلى لندن خصّيصاً من أجل أن يضع حدّاً لتلك العلاقات المشبوهة مع أعداء الدَّولة كي لا يسقط كلُّ ما بناه له.

أقام الدُّنيا ولم يقعدها، هدَّده بإعادته إلى عمَّان، ثمَّ عاد بعد أن وضع عليه ألف عين تراقب كلَّ حركة يقوم بها.

قال له إنَّه منذور للدَّولة والنِّظام.

سألني، وكنت قد بتُّ أعرف كلَّ ذلك التَّناقض السَّاكن في أعماقه:

- ما الَّذي يريده النَّاس غير الرَّخاءِ والطَّعام، والماء، والشَّوارع، والجسور، والبيوت، والسَّيارات؟
- الكرامة، يريدون الكرامة الَّتي فقدوها منذ ألف عام.

الحاسَّة صفر هي الحاسَّة الَّتي لازمتني منذ ولادتي، الحاسَّة صفر هي حاسَّة الخيبات والوجع الَّذي لا يتوقّف أبداً، هي الحاسَّة الَّتي لا تصل إلى حقيقة قطّ، حاسة القلق والشكِّ والألم.

- علينا أن نختار بين أمرين: الحرب، ومعها أحكامها العرفيَّة، والإنفاق العسكريُّ والجوع أو السِّلم والرَّخاء.
- لماذا تضيق الخيارات لتصبح فقط هذين الخيارين؟ أختار إذن كرامتي لأنَّها غريزة ليس بوسعي أن أتنازل عنها.
- ماذا تعني الكرامة بالنِّسبة لك؟
- ما تعنيه لك، لا بدَّ أنَّك الآن تشعر بشيء من وخز الضَّمير.
- على العكس، أنت مخطئ، أنا اعمل بقناعتي المطلقة.
- وأنا أيضاً أعمل بقناعتي المطلقة.
- لكنَّ قناعتك تدمِّر البلد.
- كيف تحكم على الأمور قبل حدوثها؟
- بدلالاتها، ليس عليَّ أن أنتظر خراب البلد كي أعرف أنَّكم ستخرِّبونها، عاشرت الشيوعيِّين والبعثيِّين طويلاً ورأَيت كيف يفكِّرون.
- أنتم برأيي من يخرِّب البلد، هو فقط صراع على السُّلطة، من يحكم يغيِّر وجه البلد.
- اخرس، لا تنس من أنت، وأين أنت، للمنطق وجه واحد لا يتبدَّل ولا يتغيَّر، واضح كالشَّمس، وإن كنت قد أعطيتك الفرصة للحديث، فذلك لا يعني أن تنسى من أنت، وتتطاول علينا.

ابتسمت....

- اسمع إذن هذه القصَّة وقل لي رأيك بالمنطق.

حدَّثته عن طفلة كانت تدرس في المدرسة الابتدائيَّة في جبل عمَّان، كانت مجتهدة مواظبة خلوقة صادقة، ما جعل جميع المعلِّمات يعتبرنها

مثالاً يُحتذى به في المدرسة، كانت في الصفِّ الخامس آنذاك، اشتهت حبَّة رمَّان على شجرة في منزل على الطَّريق وهي عائدة من المدرسة إلى البيت فمدَّت يدها لتقطفها، وإذ بها تصطدم بفرع من فروع الشَّجرة فيجرح عينها اليسرى.

ركضت إلى البيت وهي تضع كفَّها على عينها وتبكي، استقبلتها أمُّها عند الباب، وسألتها عمَّا جرى لها بعد أن قدَّمت لها الإسعافات اللاَّزمة، وبدلاً من أن تخبر أمَّها بالحقيقة وجدت نفسها تختلق لها قصَّة أخرى هرباً من العقوبة الَّتي قد توقعها أمُّها بها، ادَّعت أنَّ تلميذة أخرى ضربتها بفرع من فروع الشَّجرة بلا سبب، كانت تلك التِّلميذة يتيمة فقدت والدتها قبل سنوات، وكانت معروفة في المدرسة بكسلها، وعنادها، وكذبها الَّذي كانت تمارسه بلا حدود، محاولة أن تغطِّي على تقصيرها وعجزها، اعتقدت تلك الطِّفلة أنَّ الأمور قد انتهت عند ذلك الحدِّ، لكنَّها وجدت والدتها في الصَّباح ترافقها إلى المدرسة وتطلب من مديرتها إيقاع العقوبة بالطَّالبة الَّتي اعتدت على ابنتها، عبثاً حاولت الطَّالبة الكسولة أن تثبت أنَّها لم تضربها، وأنَّها لم ترها أصلاً أثناء عودتهما من المدرسة، لكنَّ القرار كان قد صدر مسبقاً: العقوبة بالجلد، بكت، وتوسَّلت، وقبَّلت الأيادي والأقدام، لكنَّها عوقبت، وطردت من المدرسة حتَّى تأتي بأبيها، سألتُ: ما علاقة الواقع بالمنطق، وعلاقة القانون بالمنطق، وعلاقة المنطق بالمنطق، وعلاقة كلِّ ذلك بالحقيقة؟

من يمتلك الحقيقة؟

لماذا نأخذ المنطق كمسلَّمات ونبني عليها قراراتنا؟ لماذا لا نسأل أنفسنا حتَّى ونحن متيقِّنين تماماً من صحَّة قراراتنا إن كنَّا على حقٍّ أم لا؟ لماذا نسقط المنطق - منطقنا نحن- كرؤية مسبقة للأحداث؟

ما الَّذي تعتقد أنَّك تمتلكه أنت ولا أمتلكه أنا؟ ثمَّة بعض التَّفاصيل

الَّتي قد تُشعرك بالملل، لكنَّك لو دقّقت النَّظر فيها لوجدت أنَّها تقلب كلَّ مسلَّماتك.

- هل تحاول أن تؤثِّر فيَّ؟ سأَلني.
- معاذ الله، معاذ الله، أَجبت.

(13)

ذاب الثَّلج، وأنا لا أزال بانتظار حليم.

بحثت عنه في كلِّ مكان توقّعت أن يذهب إليه، وأيقنت أخيرا أنَّه باعني وأخرج اللفافات واختفى، لو أخبرت خليلاً بأمر حليم والمخطوطات لاتُّهمت بالخيانة، ولأقاموا على رأسي الدُّنيا وما أقعدوها، لذا فضَّلت أن أبقي الأمر سرَّاً ريثما أجد حليماً، أو أجد طريقة أخبر بها خليلاً بالأمر.

ذاب الثَّلج وتغيَّر كلُّ شيء في الخمسين.

نضال ما عاد إلاّ ذكرى، صورة شهيد معلَّقة على الجداران.

الحُزن، والذُّهول، والتِّيه، والانتظار، انتظار اللاَّشيء الطَّويل الَّذي لا يأتي، كلُّها تتناوب وتبعثر العمر كأنَّه عبث وسراب.

الصُّور الَّتي تبنى على المشاهدات الأولى عمياء، الحقيقة في الواقع لا يستطيع أن يدركها وافد جديد، أو زائر عابر، فالزَّائر يرى الأشياء جميلة لأنَّه لا يشعر بالانتماء إلى المكان، الانتماء يعني أن تعيش المكان بكلِّ تفاصيله المرَّة الطَّويلة الدَّقيقة.

بدت الحياة تأخذ منحى آخر غير الَّذي تعوَّدت عليه.

أبو الفوز تغيَّر، صار أكثر بعداً عنِّي، منذ أن رفضت إخباره بشيء عن مهمَّتي في شاتيلا، انقلب، صار يغادر الموقع كثيراً دون أن يدري أحدٌ إلى أين يمضي، وجورج فقد حماسته الأولى، ترك هواية شقلبة الأمثال،

وتعليم الآخرين اللُّغة الفرنسيَّة الَّتي وجدوها مجرَّد طلاسم لا تسمن ولا تغني من جوع، واقتنى كلباً ضالاً وراح يقضي معظم وقته معه بعد أن غسله بالصَّابون، واشترى له الكثير من المعلَّبات والأطعمة الخاصَّة بالكلاب من قبر شمون.

الكلب ربَّما لم يصدِّق ما جرى معه فمات بعد أسبوعين، ما جعل جورج يحمِّل نفسه مسؤوليَّة موته ويتحوَّل إلى أكثر الأعمال مشقَّة وتعباً آنذاك: البحث عن الموتى الَّذين كانوا مدفونين تحت الثَّلج، عائلات بأكملها دفنت في الثَّلج، أطفال ونساء وشباب وشيوخ، مسلمون ومسيحيِّون، لم يكن الموت قد فرَّق بين كبير وصغير، بين طائفة وطائفة، الكلُّ متَّهمٌ حتَّى تثبت براءته، والحرب عمياء، والحبُّ أعمى، والموت أعمى، والكِلاب الَّتي ظلَّت طوال الأيَّام الماضية تنهش لحم الموتى، عمياء....

كان يعود في المساء مهدَّماً مكسوراً، يتَقيَّأُ ماءً أصفر لأنَّه لم يكن قادراً على تناول الطَّعام، هو الَّذي اختار تلك المهمَّة دون أن يجبره عليها أحد، ربَّما أراد أن يثبت لنفسه أنَّه قادر على أن يتعايش مع لبنان، بكلِّ ما يحمله من موت، ومن فوضى، ومن خراب.

بدا أنَّ الجميع قد فقدوا الحماس الَّذي جاؤوا به إلى الجبل!

أبو علي صار أكثر إصراراً على البقاء في الموقع في النَّهار لإعداد الطَّعام، وتعدَّى ذلك قليلاً فصار يعدُّ لنا شيئاً من الحلويات الَّتي كانت تثير شهيَّة الجميع عدا جورج الَّذي خسر من وزنه أكثر من عشرة كيلوغرامات خلال أسبوعين.

أبو عبد الله الصَّغير كما سمَّيناه كان يلاحق جورج من مكان إلى مكان، محاولاً أن يحصل منه على كلِّ المعلومات الَّتي يريدها للكتاب، كان لا ينفكُّ يحمل كاميرا في يده، ودفتراً وقلماً في اليد الأخرى، يكتب

بالألمانيَّة، ويصوِّر، وحين تشتعل الدُّنيا يهرب إلى الدَّاخل ويختبئ خلف أكياس الرَّمل ولا يخرج إلاّ بعد أن يهدأ صوت الرَّصاص والقذائف بساعة أو أكثر.

كان لا يترك فرصة إلاّ ويذكِّرنا فيها بأنَّ الدُّنيا تبدَّلت أكثر ممَّا نظنُّ، وأنَّ الحرب لغة المجانين، فكنَّا نضحك على حماقته، وخوفه الَّذي لم يكن يخجل من الإعلان عنه بصراحة أمام الجميع.

ذاب الثَّلج، وتغيَّرت الدُّنيا....

وسليم الشِّبل ملتصق بأبي عبد الله كخياله، لا يتركه إلاّ ساعتين في الصَّباح حين يذهب للعمل وحده في حفر الأنفاق الَّتي تصل الخمسين بكلِّ زاوية في عيتات، ثمَّ يعود إليه متشوِّقاً لحديثه عن ألمانيا: عن بيته الواسع، وبراميل البيرة الخشبيَّة الباردة الَّتي يحتفظ بها للمناسبات والسَّهرات الحمراء، وليالي التعرِّي، والجنس الَّذي لا ضوابط له.

كان يقول إنَّ الجنس نوعان: جنس كلاسيكيٌّ مقيت مملٌّ يجعل الزَّوج يفرُّ من زوجته بعد سنة من الزَّواج، بعد أن يقضي منها وطره ويشبع، وجنس آخر لا يعرفه إلاّ من مارسه، جنس مفتوح بلا أيِّ ضوابط ولا أيِّ حدود، كلُّ شيء فيه مباح: الفسق، والفجور، والفحش، والجنون، ذلك بالذَّات هو الجنس الحقيقيُّ الَّذي مارسه الرَّجل الأوَّل مع المرأة الأولى: آدم مع حوَّاء، ثمَّ جاءت القوانينُ البشريَّة لتقطع دابر الشَّهوة بالتَّعاليم الخرقاء وتجعل الجنس مجرَّد وسيلة للتكاثر!

لا حدود للذَّةِ البشر!

والجنس هو اللذَّة الحقيقيَّة للإنسان، هو أصل الاستمرار والوجود، فلماذا توضع حوله كلَّ تلك الضَّوابط والحدود؟ تلك ليست إلاّ عادات فرضها البشر وأضافوا لها ما أضافوا، فتطوَّرت عبر آلاف الأجيال.

الحديث عن ذلك الجنس بالذَّات هو الَّذي كان يُطرِبُ سليم الصَّغير، كان طفلاً حين ماتت أمُّه وتركته لأبيه، تزوَّج أبوه بعد أربعينها بيوم واحد.

قضى عمره متسائلاً عن حكمة الله في الموت!

أذلَّته زوجة أبيه، وأبوه صار كالدُّمية بين يديها تحرِّكه أينما تشاء، وكيفما تشاء...

في السَّادسة من عمره أرسلته إلى سوق الخضار كي يتعلَّم الحياة بدلاً من المدرسة، كان عليه أن يعمل كي يعيل نفسه لأنَّه ببساطة كما قالت: زائد عن العائلة!

إخوته من أبيه التحقوا جميعاً بالمدرسة الَّتي قضى عمره وهو يشتهيها، وظلَّ هو في السُّوق ينتظر ما تجود به النِّساء اللَّواتي كان يساعدهنَّ في توصيل خضرتهنَّ إلى بيوتهنّ.

تركوه وحده في غابة النَّاس الَّتي كانت تصهر الحديد، وتأكل الصوَّان، وتطحن الصَّخر بلا رحمة، كأنَّها كسَّارة هائلة تفتِّت كلَّ ما يُلقى في أحشائها.

في اليوم الأوَّل بكى، ولم يساعده صوته على أن ينادي عارضاً خدماته على النَّاس في السُّوق المليء بالضَّجيج والفوضى، فعاد إليها خائباً بيدين فارغتين فأوسعته ضرباً وأعادته إلى السُّوق.

وفي اليوم الثَّاني اكتشف الأولاد وجوده فضربوه، وعاد إليها لتضربه من جديد وتعيده إلى السُّوق، بحُجَّة أنَّ عليه أن يتعلَّم كيف يدافع عن نفسه، وكيف يعيش الحياة.

وفي اليوم الثَّالث لم يتعلَّم شيئاً سوى أن يتملَّق الأولادَ الَّذين يكبرونه بأعوام كي يتركوه في السُّوق يبحث عن ملاذ آمن خلف دكَّانٍ صغير لكي يبكي، ثمَّ شيئاً فشيئاً صاروا يعطفون عليه، ويدعونه وشأنه

مقابل أيِّ شيء يدفعه لهم، فتعلَّم أن يرفع صوته مثل الآخرين، وينادي...

صار صوته يشقُّ الهواء بين أصوات النَّاس، في البداية خجولاً خائفاً، منطوياً، ذليلاً، ثمَّ حين أدرك أنَّ كلَّ الطُّرق مسدودة أمامه سوى تلك الطَّريق ترك لصوته العنان.

ستَّة أعوام ظلَّ يكدُّ في السُّوق، ويضع ما يجنيه بين يديها لكي ترضى عنه دون فائدة.

كانت لا تكتفي بضربه بل تؤلِّبُ أباه ضدَّه ليضربه هو الآخر، وحين فكَّر يوماً أن يخبِّئ جزءاً من النُّقود في حذائه مثل أصدقائه لكي يشتري سجائر جنَّ جنونها، وانهالت عليه بالعصا، أمسك حينئذ بالعصا وخلَّصها من يديها، وانهال عليها وسط صراخها وعويلها الَّذي اجتمع عليه النَّاس، كان يريد أن يطفئ النَّار الَّتي ظلَّت سنيناً تشتعل في أعماقه، ضربها بجنون، والنَّاس يحاولون تخليص العصا من يده، أبوه حين دخل وقف مشدوهاً لا يصدِّق ما يرى، ثمَّ هجم عليه، فما كان منه إلاّ أن استلَّ سكين المطبخ، وأشهره في وجه أبيه الَّذي وقف مصدوماً، ثمَّ أعلن أمام النَّاس جميعاً أنَّه بريء منه إلى الأبد.

سوداء صارت الدُّنيا، والأرض لفظته من أحشائها، لا مأوى، ولا أهل، ولا مستقرّ، صار ينام في السُّوق، ويأكل كيفما اتُّفق، ويعمل بكدٍّ في النَّهار، حتَّى كان الاجتياح الَّذي جعله يترك كلَّ ذلك الجحيم خلفه، ليدخل في أتون جحيم بيروت.

- نحن الَّذين نضخِّم الأمور في ذواتنا.... قال أبو عبد الله.

وراح يروي كيف أنَّ الإنسان في القديم كان على طبيعته بلا قيود، وأنَّ النَّاس استسلموا للتعاليم الخرقاء، وقيود الدِّين، والعادات والتَّقاليد،

وفرضوا على أنفسهم قوانين لا همَّ لها إلاّ أن تكبت جموح الإنسان وانطلاقه نحو المجهول، نحو الاكتشاف، نحو الحريَّة، وضرب مثلاً ذلك الرَّجل الَّذي ظلَّ مقيَّداً منذ ولادته لا يرى إلاّ ظلال النَّاس على الحائط، وحين أطلقوا سراحه دُهشَ لأنَّ وعيه لم يكن يدرك أنَّ الظِّلال هي مجرَّد ظلال للبشر، وأنَّها ليست الأصل، كان وعيه غير قادر على إدراك الأصل، فاختلطت عليه الصُّورة بالأصل، النَّاس خلطوا كلَّ شيء بكلِّ شيء، الخوف أعماهم، فجعلهم يخترعون ضوابط وتعاليم خطأ، ويلصقون كلَّ حقارتهم وإخفاقاتهم ومكرهم وجشعهم بإبليس المسكين. قال إنَّ الوعي يتشكَّل عبر نسيج الحياة المعقَّد، وإنَّ الشُّذوذ ذات يوم لم يكن شذوذاً، فالإغريق والرُّومان حثُّوا عليه، واحتقروا الرَّجل الَّذي لا يجذب الرِّجال، وبقيت آدابهم وأشعارهم وفنونهم دليلاً على ذلك، فأفلاطون نفسه قال إنَّ الزَّواج لا بد منه، لكنَّ عشق الرِّجال دلالة الحكمة، لأنَّ الشُّذوذ هو أصل العظمة، وأكثر العظماء مثليُّون كليوناردو دافنشي، ومايكل أنجلو، وأفلاطون، وسقراط، وحتَّى بعض العرب كأبي نواس، والوليد بن يزيد الَّذي راود أخاه عن نفسه، كان يقول إنَّ أوروبّا اكتشفت هذه الحقيقة واستطاعت أن تفهمها، أمَّا العرب، فبسبب جهلهم لا يستطيعون تقبُّل مثل هذه الأشياء في العلن، مع أنَّهم جميعاً يعيشونها كلَّ يوم في السرِّ، وعلى رأسهم شيوخ وملوك ورؤساء وأمراء.

كان مقتنعا أنَّ تناول أشهى الأطباق لمدَّة سنة كاملة متواصلة يصيب الإنسان بالغثيان وأنَّ أصل الحياة هو المشاع!

* * *

لم يكن جورج يحلم بتلك التَّجربة قطّ، ولم يتخيَّل ذات يوم أنَّه سيكون قادرا على رؤية ما رأى، والتَّعايش معه....

قسوة الحياة ومرارتها علَّمته أكثر ممَّا كان يعتقد بأنَّه سيتعلَّم، وسقته تماماً كما يُسقى الفولاذُ، بالنَّار.

الحكايات الطَّويلة الَّتي كان يجلس في المساء ليقصَّها على أبي عبد الله ونحن نستمع، كانت تجعله يتوقَّف بين الحين والآخر عن الحديث ليسأل نفسه إن كان ما يرويه حقيقة أم خيالاً....

وأبو عبد الله كان يشعر بأنَّه وضع كفَّه على كنز ثمين سيجعل كتابه هو الأشهر في العالم بعد أن تتسابق دور النَّشر في ألمانيا على تقديم العروض له، ما سيحقِّق له الشُّهرة والمجد والثَّروة، فراح يكتب كلَّ كلمة يرويها له جورج، وأعطاه الكاميرا كي يصوِّر له بعض المشاهد الَّتي كان يرويها.

بعد أن ذاب الثَّلج، وبزغت الشَّمس، بدأت روائح الجُثث الَّتي ظلَّت مختبئة طوال الشِّتاء تحته تعبق في كلِّ الأرجاء فتزكم الأنوف، وتحمل على التقيُّؤ، ما جعل التَّنظيمات تشكِّل مجموعات من المقاتلين وظيفتهم البحث عن القتلى ودفنهم في مقابر جماعيَّة خُصِّصت لذلك الغرض.

جورج كان يشعر بدوار شديد في البداية كلَّما وقعت عيناه على جسد ميت متحلِّل، لكنَّه بدأ يجبر نفسه على اعتياد الأمر شيئاً فشيئاً، حتَّى استطاع أخيراً أن يتأقلم مع الواقع ويتعايش مع روائح الموتى، ومشاهد الجثث المتفسِّخة الَّتي ذُبحَ أصحابها ونكِّل بهم، وصُلبوا، وصار بوسعه بعد وقت أن يتذوَّق شيئاً من الطَّعام حين يعود إلى الخمسين....

أبوه أعدَّه سنيناً ليتسلَّم مكانه في خدمة عرفات، لكنَّ أمله خاب، واكتشف ذلك بعد أن بلغ جورج الخامسة عشرة من عمره وصار بوسعه أن يعبِّر عن رأيه أمامه دون خوف.

كان يريد أن يتقاعد مبكِّراً ليرتاح من حياته المهنيَّة المليئة بالتَّعب والمفاجآت، فعرفات رجلٌ لا يهدأ أبداً، ولا يترك أحداً من الَّذين حوله ينعم بالهدوء، كان قد نذر نفسه للثَّورة الَّتي صارت تقترن باسمه، وكان لديه جَلَدٌ غريبٌ عَلى العمل، فلا يتوقَّف أبداً، ولا يفرِّق بين اللَّيل والنَّهار، لذا ارتأى أبوه أن يؤهِّله لتلك المهمَّة مبكِّراً، ربَّما كي يحافظ على كلِّ الامتيازات الَّتي مُنِحت له عبر كلِّ تلك السَّنوات: البيت، والأموال، والزَّوجة الجميلة، والسيَّارات، والتَّاريخ الطَّويل في النِّضال....

لكنَّ جورج لم يكن يرى في عرفات ما يراه أبوه....

اختار اسمه الحركيَّ تيمُّناً بجورج حبش الَّذي كان يعشقه بجنون، جورج حبش هو الَّذي قلب كيان جورج، فمنذ أن التقى به ذات مرَّة في الجزائر مصادفة وهو مفتون به، ببساطته، وإخلاصه، ونظريَّته الَّتي اعتقد أنَّ بوسعها أن تحرِّر فلسطين....

كانت راديكاليَّة جورج حبش تعجبه كثيراً، ولم يكن يؤمن بنظريَّة أبيه الَّتي كانت تقول إنَّ على جورج حبش أن يكون أكثر ثقة بعرفات، وبنفسه، وبمواقف تنظيمه الَّتي غالباً ما يتراجع عنها بحُجَّة الحفاظ على وحدة الثَّورة، لأنَّ الثَّورة هي عرفات...

- الثَّورة لا يمكن أن تنقسم ما دام عرفات فيها، لأنَّ عرفات هو فلسطين، أينما مال تكون فلسطين في ذات الجهة الَّتي يميل إليها، هكذا يريد شعب فلسطين، يقول أبوه....
- لكنَّ الدُّنيا تتغيَّر، وفلسطين بحاجة إلى قائد لا يساوم، ولا يهادن، ولا ينساق وراء الزُّعماء العرب، والأمريكان، ولا يخلق الذَّرائع والحجج ليبرِّر موقفه.

يضحك أبوه، ويمسِّد شعره النَّاعم....

- هناك أمور لا تستطيع الآن أن تفهمها جيِّداً، ستدركها ذات يوم....

كان أبوه يعرف أنَّه خسر الرِّهان، وأنَّ جورج لن يكون كما أراد له أن يكون، لذا آثر أن يتركه ليشقَّ طريقه بنفسه، ويصل إلى الخطأ والصَّواب، حتَّى حين علم بعلاقته مع مُدرِّسَته الفرنسيَّة لم يتدخَّل، تركه وشأنه، لكنَّ انفجار الأمور فيما بعد، وتدخُّل عرفات شخصيَّاً في الموضوع بعد انكشاف أمر المدرِّسة جعلاه ينفجر في وجه جورج محاولاً أن يعلِّمه الفرق بين الخطأ والصَّواب.

التَّجربة العنيفة الفاشلة جعلت جورج يعيد التَّفكير بكلِّ حياته، ويلملم ملابسه وأغراضه، ويرحل إلى لبنان محاولاً أن يبدأ حياته هناك من جديد، من الصِّفر.

يريد أن يصبح شخصاً آخر غير ذلك الشَّخص الضَّعيف الَّذي يسكن فيه، يريد أن يكون أكثر عنفاً وشراسة وقوَّة وصلابة وحكمة.

كانت مهمَّته قاسية وأكثر صعوبة من مهمَّة الآخرين الَّذين جاؤوا من مخيَّمات اللاَّجئين، أولئك الَّذين تعوَّدوا حياة الشَّقاء والتَّعب والتَّشرُّد والحرمان، وقضوا حياتهم وهم يحاولون البقاء على قيد الحياة.

كان يدرك ذلك الاختلاف، لذا حاول أن ينسج علاقات وطيدة مع الجميع، فشل أحياناً، ونجح أحياناً أُخرى، لكنَّه بعد عام أدرك أنَّه لا يزال يرتجف أمام الموت، وكان عليه أن يتَّخذ قراره، وأن يكون أكثر قسوة مع ذاته، وأن يتحدَّى إحساسه المرهف: نقطة ضعفه الكبرى.

حين حاول أبو رمزي أن يقنعه بالبقاء في مبنى العمليَّات في عيناب، بعيداً عن خطوط التَّماس رفض، كان يريد أن يكون أقرب ما يمكن له من الموت، من أكثر النِّقاط حرارة وتوهُّجاً ودماء، حيث يستطيع أن يمسك بنفسه من عنقها، أن يذلَّها، ويطوِّعها، لذلك آثر بعد أن ذاب

الثَّلج، ومات الكلب، أن يذهب في الشَّوط إلى أقصاه، إلى أبعد ما يمكن له أن يذهب، إلى ما هو أبعد من مجرَّد الموت.

كان يعود كلَّ مساءٍ كالقتيل، لم يذق الطَّعام أيَّاماً، ولم يقو على الكلام.

الجثث المصلوبة على الجدران وقد مُثِّل بها، والنِّساء اللَّواتي اغتُصبنَ وتُركنَ عاريات في العراء، والأطفال الَّذين تجمَّدت أقدامهم من هول المشهد وهم يحاولون الهرب، الموت الكثير بصوره الكثيفة كان لا يفارق رأسه طوال اللَّيل، فيجعله يهذي بالكوابيس.

كلُّ النَّاس ضحايا ووقود لحرب لا تعرف الرَّحمة أبداً، ولا يعرف أحد كيف ابتدأت، وأين ستنتهي....

من الَّذي كان يُغذِّي الحرب؟....

أبوه قال له إنَّ ثمَّة عشرات الاتفاقيات الَّتي أبرمها عرفات مع الأطراف الأخرى على وقف إطلاق النَّار، كانت تُخرق قبل عودتهم إلى مواقعهم.

- ثمَّة أيادٍ كثيرة تُحرِّكُ النَّاس من خلف السِّتار، ولا يمكن للحرب أن تتوقَّف دون إرادتها، لبنان مرتع لكلِّ عهر العالم وجنونه ومصالحه وصراعه.

هكذا كان أبوه يقول له قبل أن يأتي إلى لبنان، ويرى كلَّ ما رأى.

جاء إلى الستِّين لاهثاً يبحث عنِّي...

كان يحمل اللاَّسلكي في يده ووقف بعد أن صافح الجميع...

- هل اللاَّسلكي لديكم معطَّل؟

انتبهنا إلى أنَّ جهاز اللاَّسلكي في الستِّين قد فرغ من الشَّحن، ناولني جهاز اللاَّسلكي الَّذي في يده:

- ليلى تقول إنَّ هناك رجلاً اتَّصل بها من صور، من مخيَّم البص، وأخبرها أنَّه كان صديقاً لعيسى، ويعرفه جيِّداً.

كدت أجنُّ، كان الدُّخول إلى صور أو الخروج منها بحاجة إلى معجزة إلهيَّة آنذاك! كلُّ الدَّاخلين والخارجين كان عليهم الحصول على إذن خاصٍّ من الحاكم العسكريِّ، بعد الخضوع لتحقيق طويل من قبل رجال الموساد، ما جعل الكثيرين يتجنَّبون الحركة عبر تلك الحواجز خوفا من السُّقوط في براثن الجيش، بمن فيهم المدنيّون الَّذين لم تكن لهم ناقة في الحرب ولا جمل.

اقترح خليل - بعد أن خاطب ليلى عبر اللاَّسلكي - أن يذهب ميشيل إلى صور، لأنَّه الوحيد الَّذي بوسعه الدُّخول إلى الجنوب دون الخضوع لتحقيق طويل كالآخرين.

لم يتردَّد ميشيل في القبول، وجلس يستمع إلى كلِّ التَّفاصيل الَّتي عليه أن يعرفها عن عيسى، وكلِّ الأسئلة الَّتي عليه أن يطرحها على الرَّجل لكي يتأكَّد من أن المعنيَّ هو عيسى ذاته لا أحد سواه، واقترحت عليه أن يأتي بالرَّجل إلى عيتات إن استطاع لأراه بنفسي، وأتأكَّد ممَّا يقول، فوعدني أن يحاول ذلك.

أرسل مع السَّائق الَّذي كان يحمل رسائله في العادة إلى عمَّته رسالة في اليوم التَّالي كي تحصل له على إذنٍ لدخول صور، وبعد ثلاثة أيَّام حصل على التَّصريح، وغادرنا مسرعاً، لم أستطع ليلتها النَّوم، وظلَّ ذهني في اليوم التَّالي مشغولاً به، فكَّرت طويلاً بطريقة تمكِّنني من التَّسلل إلى صور، لكنَّ أبا الفوز أخبرني أنَّ ذهابي إلى هناك مستحيل، وأنِّي لا أملك خيارا سوى انتظار ميشيل.

قضيت اليوم بطوله أتنقَّل بين الخمسين والستِّين.

كنت أتحرَّق شوقاً لرؤية ميشيل وسماع الأخبار الَّتي سيعود بها من صور...

أيعقل أن أعثر عليه بعد كلِّ هذه السِّنين؟ وأين كان مختبئاً؟ ولماذا لم يعثر عليه أحد من قبل؟ أيعقل أن أعود به غدا لأمِّي بعد كلِّ هذا البحث، وبعد كلِّ هذا العناء؟ كيف ستستقبل خبر عودته؟ كيف ستلاقيه؟ ربَّما ستصاب بنوبة قلبيَّة من أثر المفاجأة، ربَّما ستنهض عن كرسيِّها من أثر الصَّدمة كما كان يحدث في المسلسلات التِّلفزيونيَّة الَّتي كنت أشاهدها ذات يوم.

كنت أعرف أن الصُّور الَّتي تدور في رأسي مجرَّد أوهام....

كلَّما تخيَّلت شيئا وهُيِّئَ لي أنَّه سيمسي في الغد حقيقة تحوَّل إلى رماد!

كم مرَّة كنت أمشي نحو الحبِّ موقنا به، لأجد نفسي فجأة أدور في الفراغ وقد فقدت كلَّ شيء!

كيف يمكن لي أن أعود به وقد تقطَّعت خلفي كلُّ سبل العودة، واحترقت مراكبي دون ماء؟ لو كان بوسعي أن أعود لعدت دونه منذ زمن طويل.

غدا لو فكَّرت بالعودة معه فسأجد جيشا من المخابرات على الحدود بانتظارنا، سيزجُّون بنا في السِّجن قبل أن نتخطَّى الحدود، لن يكون بمقدورنا حتَّى أن نرى بعضنا البعض.

كنت أُبعد عن خيالي في تلك اللَّحظات كلَّ المشاهد الَّتي كنت أرسمها في مخيِّلتي للقائي به خوفا من ضياع الحلم.

لو كان بوسعه أن يعود لعاد منذ زمن بعيد!

سأتخيَّل أنَّه مات فربَّما تكسَّرت صور الخيال على صخرة الواقع المرِّ الَّذي لم يكن ذات يوم سوى خواء.

عاد ميشيل في صباح اليوم التَّالي وحيدا.... فأحسست بأوَّل الخيبات، خبرته الطَّويلة في العمل مع خليل علَّمته أن يؤدِّي عمله على أحسن وجه، وبأدقِّ التَّفاصيل، لم يكن يريد أن يترك سؤالا وراءه لذا آثر المبيت، جاء موقناً أنَّ عيسى المقصود هو أخي، فكلُّ المعلومات الَّتي أعطاها الرَّجل له صحيحة حتَّى أنَّ الرَّجل أضاف لمعلوماته معلومات أخرى، وأكَّد لي أنَّ الرَّجل سيأتي إلى عيتات بعد أيَّام ريثما يحصل على إذن بمغادرة صور، ثمَّ فتح كيسا كان يحمله على كتفه حين جاء، وأشار إلى العظام الَّتي فيه:

- تلك عظام أخيك...

قلَّبتُ العظام بين يديَّ وأنا أحبس الدُّموع في عينيَّ.

- بوسعك أن ترسلها إلى أمِّك لتقرَّ وتهدأ، وتدفنها، وتسدل السِّتار على هذه المسألة، قال خليل...
- متى قال إنَّه سيأتي؟
- لا أَحد يعرف، الأمر منوط بالتَّصريح، أجاب ميشيل.
- ما اسم الرَّجل؟ سأل خليل...
- مروان الصَّفدي.. أبو محمود...

كانت الأسئلة تقفز إلى رأسي، والصُّور، والذِّكريات، كنت أشعر بالألم يعتصرني وبالخيبة تخنقني، وأتخيَّل حال أمِّي حين تصلها عظام عيسى، وأتساءل ما الَّذي ستفعله بنفسها؟

كان لا بدَّ أن أرسل العظام لها مهما كلَّف الأمر، ومهما كانت العواقب، كان لا بدَّ أن أثبت أنَّني استطعت أن أقدِّم لها شيئا ما، وأنَّ غيابي لم يكن بلا طائل.

أعدتها إلى الكيس، واتَّفقت مع سائق ثلاَّجة في اليوم التَّالي على أن يحملها معه إلى عمّان، بعد أن زوَّدته بعنوان البيت، ورسالة أطلت فيها البكاء والألم والاعتذار.

كان عليه أن يهرِّبَها عبر الحدود كي لا يدخل في متاهة الأوراق الرَسميَّة، والإثباتات، لذا دفعت له مبلغا باهظا استدنت معظمه من الرِّفاق.

كنت قد عقدت العزم على دخول صور بالسرِّ، لكنَّني حين قابلت مروان الصَّفدي بعد يومين أدركت أنَّ الذَّهاب إلى صور بالنسبة لمثلي هو ضرب من الانتحار.

مروان أكَّد لي أنَّه كان يعرف عيسى مثلما يعرف خطوط كفِّه وتضاريسها، روى كيف التقيا ذات يوم في بيروت، وكيف شاركا فيما بعد في حرب تشرين، وكيف استشهد عيسى أثناء غارة جويَّة شنَّتها القوات الإسرائيليَّة على جموع المقاتلين المتوغِّلين شمال فلسطين.

اختلطت الأمور في رأسي، وحاول خليل أن يلملم الخيوط جميعها، وأن يربط بعضها ببعض لعلَّ المشهد يصبح أوضح قليلاً، سأل وهو يسحب كمَّي قميصه إلى الأعلى فيكشف عن ساعديه المفتولين....

- هل كنت معه يوم مات؟
- لا.
- هل كنت يوم الدَّفن؟
- دفنته بيديَّ.
- هل كان هناك آخرون معك؟
- كثيرون...
- هل دُفنَ أحدٌ آخر معه؟
- اثنان وهو الثَّالث.
- في أيِّ مقبرة دُفن؟
- في الرَّشيديَّة...
- هل رأيت وجهه يوم دفنه؟

- لا أذكر.... أظنُّ هذا... أذكر أنَّه كان ملفوفاً بعلم فلسطين.
- كيف إذن يمكن أن نتأكَّد من أنَّ تلك العظام هي رفاته؟
- أنا متأكِّد من ذلك كما أراك... رأيته قبل أن يُلفَّ بالعلم، نعم، أنا متأكد من أنَّني رأيته... الآن تذكَّرت... صحيح.

ما كاد يتمُّ كلامه حتَّى كان سليم واقفا في المدخل يلهث، ويهتف:

- هناك امرأة جاءت من صور تقول إنَّها زوجة أخيك.
- في الخمسين؟
- نعم.

وقفت على قدميَّ وأنا لا أكاد أصدِّق ما أسمع، نظرت إلى مروان بتعجُّب، ثمَّ إلى خليل، أيُّ مفاجآت باتت تتوالى واحدة وراء الأخرى؟

- لم تقل إنَّه كان متزوِّجاً.

كانت دهشته لا تقلُّ عن دهشتي.

- لم أكن أعرف.
- ألم تقل إنَّك كنت تعرف كلَّ شيء عنه؟
- بلى...
- والمرأة؟

فرد كفَّيه في الهواء حائراً...

- لم أسمع أنَّه تزوَّج من قبل...

نهض خليل فنهض البقيَّة.

- دعونا نرَ المرأة ونعرفْ ما الأمر.

سرنا إلى الخمسين واحداً وراء الآخر عبر الأنفاق، وحين وصلنا وجدنا أبا الفوز يجلس في صدر الصَّالة وإلى جانبه امرأة سمراء البشرة بدت في الثَّلاثين من عمرها، وإلى جانبها يجلس طفل لم يتجاوز عامه العاشر

بعد، وفي الجهة المقابلة يجلس جورج وإلى جانبه أبو علي، بينما راح أبو عبد الله يلتقط الصُّور للجميع ويدوِّن في دفتره ملاحظاته الَّتي لا تنتهي....

هبَّت المرأة واقفة حين دخلنا، أشار أبو الفوز لي....

- هذا سعيد.... ثمَّ أشار إليها قائلاً:
- هذه زينب، تقول إنَّها زوجة أخيك، وهذا عيسى ابنه.... قال منتشياً وكأنَّه وقع على صيد ثمين.

كانت قصيرة القامة، سمراء، تميل إلى البدانة قليلاً، متواضعة الجمال، تلفُّ شعرها وعنقها بمنديل أَسود، وصوتها شبه مخنوق.

لم أصدِّق ما أرى، صافحتها بحرارة ثمَّ أخذت الطِّفل بين ذراعيَّ، صافحني، وتفلَّت منِّي.

- سمَّيته باسم أبيه..... قالت.

راح أبو عبد الله يلتقط الصُّورة إثر الصُّورة، جلسنا على الأرائك، سادت لحظة صمت قطعها أبو الفوز مازحاً:

- كنت تبحث عن شخص فوجدت اثنين....

ابتسمت ممتنَّاً، لا أصدِّق أنَّني استطعت أن أصل إليهما بكلِّ تلك السُّهولة... تضاربت المشاعر في صدري، وشعرت برغبة في البكاء... وتذكَّرت عيسى، وأمِّي.

- هل أنتِ من صور؟ سأل مروان موجِّها كلامه لزينب.
- من الرشيديَّة، أجابت.
- هذا مروان الصَّفدي من صور، كان صديقا لعيسى، قلت وأنا بالكاد أحبس دموعي.

ارتبكت المرأة وهي تنظر إليه، ثمَّ إليَّ، ثمَّ إلى أبي الفوز.

رحَّب به أبو الفوز ودعاه لأن يجلس إلى جانبه.

- إنها ابنة الفرَّان أبي ابراهيم، إن كنت قد جئت الرَّشيديَّة فلا بدَّ أنَّك تعرفه، قال أبو الفوز.

ضرب مروان بكفِّه على جبينه....

- تذكَّرت... كنت مصابة بشظيَّة في ساقك أيَّام الحرب.

هزَّت رأسها موافقة.

- كيف عرفت؟

- ألا تتذكَّرينني؟

راحت تحدِّق إليه ثمَّ هزَّت رأسها وكأنَّها بدأت تتذكَّر.

- ربَّما.

- زرت بيتكم مرَّتين مع أخيك إبراهيم، كان أبوك لا يزال على قيد الحياة، أذكر أنَّك كنت مصابة في ساقك، كان ذلك قبل عشر سنوات.

- صحيح، هتفت وكأنَّها تذكَّرته.

فركت كفَّيها بعضهما ببعض، وابتسمت، وارتخى أبو الفوز فوق الأريكة وراح يروي لنا نكتة جديدة، ثمَّ راح يحرِّك يديه كالدُّولاب في الهواء وهو يشعل سيجارة الحمرا، ما جعل الجميع ينفجرون ضاحكين.

دارت فناجين القهوة على الحاضرين، أبو علي الَّذي وزَّع القهوة والابتسامات طلب حلوى بهذه المناسبة السَّعيدة فوعدته بذلك، ظلَّ الطِّفل متشبِّثاً بثوب أمِّه يحدّق إلى الوجوه بخوف واستغراب، حثَّته أمُّه على الجلوس إلى جانبي لكنَّه رفض، وضع خليل فنجان القهوة أمامه والتفت إلى زينب....

- يبدو خجولاً، كم عمره؟

- عشر سنوات....

- يتصرَّف كأنَّ عمره أربع سنوات، إنَّه خجول، لا بدَّ أنَّه كان صغيراً حين مات أبوه.
- مات قبل أن ألده، كنت بالكاد قد حملت به.
- مسكين.... قال والأسف يرتسم على وجهه، ثمَّ أضاف متسائلاً:
- كيف تعرَّفت إلى أبيه؟
- جاء مع أخي إلى المنزل، كان يأتي بين الحين والآخر، واتَّفق مع أخي على الزَّواج منِّي، ووافقت، لكنَّنا في الحقيقة تزوَّجنا أسبوعاً واحداً فقط، لقد مات في الأسبوع التَّالي، في حرب تشرين....
- هل كنت موجودة يوم دفنه؟
- لحقت بهم إلى المقبرة لكنَّهم كانوا قد دفنوه، لم يكن هناك من يعلم بأنَّنا قد تزوَّجنا، عقد قراننا شيخ في المخيَّم، وابتدأت الحرب، ومات، أنت تعرف ظروف المخيَّم.
- في أيِّ مقبرة دُفن؟
- في الرَّشيديَّة...
- وهل تملكين عقد الزَّواج، أقصد الورقة الَّتي كتبها الشَّيخ؟
- طبعا، جئت بها خصِّيصا لأنَّني كنت أعرف أنَّ عليَّ أن أريها لكم.

أخرجت من صدرها ورقة مطويَّة بعناية وناولتها له، ففتحها وراح يقرأ ما فيها، التفتَ نحوي.

- هذا عقد زواج أخيك....

ناوَلَتهُ ورقةً أخرى فراح يحدِّق إليها ثمَّ ناولها لي.

- وهذه شهادة ميلاد ابن أخيك، إنَّها شهادة رسميَّة.

قرأت ما في الورقتين فرحاً لأنَّهما كانتا تثبتان صحَّة كلامها الَّذي كنت بأمسِّ الحاجة إلى تصديقه، ثمَّ دارت الورقتان بين أيدي الجميع....

الآن صار بوسعي أن أُتبعَ العظام الَّتي أرسلتها لها برسالة ستجعلها تعود إلى الحياة من جديد، الآن صار بوسعها أن تقرَّ عيناً، وتهدأ بالاً، وتستريح، وتضمَّ حفيدها إلى صدرها وتعطيه كلَّ الحنان الَّذي كانت تدَّخره لعيسى، سأرسل السَّائق ذاته ليخبرها بذلك وستحضر حتماً إلى سوريا مع سامي أو مع خلود، وترى حفيدها وزوجة ابنها، وتبدأ باستخراج الأوراق اللاَّزمة لهما لكي يستقرَّا معها في بيتها، رحت أحدِّثها عن أُمِّي، عن رحلاتها المكوكيَّة وبحثها الَّذي لم يتوقَّف، واستَغرَبتُ كيف لم تستطع لا هي ولا منظَّمة التَّحرير ولا الصَّليب الأحمر ولا كلُّ الجهات الَّتي عاونتها في البحث عن عيسى الوصول إلى زوجته وابنه....

كلُّ الفضل بذلك يعود إلى ليلى، كانت تلك فكرتها المجنونة الَّتي لم تكن تخطر على بال أحد.

حين أراها لن أكتفي فقط بشكرها، سأُقبِّلُ يديها، وقدميها، سأحضر لها أجمل الهدايا، وسأشكرها بأرقِّ العبارات، وسأكتب لها ما لم يكتبه إنسان لإنسان من قبل.....

قالت زينب حين طَلبتُ منها أن تعدَّ نفسها قريباً للذَّهاب إلى سوريا إنَّها الآن على ذمَّة رجل آخر، وإنَّه هو الَّذي يربِّي عيسى، وإنَّها لا تستطيع الذَّهاب دون أن تستأذنه وأكَّدت لي أنَّها سوف تعود قريباً معه لكي أتعرَّف إليه....

استأذن مروان بعد أن تناول طعام الغداء، وظلَّت هي حتَّى المساء، ثمَّ خَرَجتْ برفقة خليل مع سيَّارة التَّموين، بعد أن اختلى خليل بي قليلا وطلب منِّي ألاّ أفعل شيئاً ريثما يعود من سوريا، لكي نتأكَّد تماما من صحَّة أقوالها.

* * *

اختفت عربة اللاَّندروفر في الظُّلمة وعدت إلى سريري، ثمَّة شمعة واحدة تنوس فوق السَّرير، تمدَّدتُ وأصوات الرِّفاق تأتيني من الصَّالة عالية وهم يصيحون، شيش بيش، بنج دو، دو شيش، دو بيش، يك دو... دو بارا....

شعرت بالفراغ والألم، وانقلبت سعادتي إلى حزن وكآبة، للمرَّة الأولى أشعر بكلِّ هذا الحنين الغريب لأُمِّي الَّتي ما عاد بوسعي أن أراها، تخيَّلت وجهها، ووجه أخي سامي وأختي خلود، تذكَّرت البيت الَّذي تركتهم فيه، تحوَّلت فيه، في غرفه ومطبخه وصالته الصَّغيرة، تذكَّرت أَلوان الأَبواب، والجدران، منذ متى غادرت عمَّان؟ منذ متى غابت كلُّ تلك التَّفاصيل؟ كيف لم تخطر ببالي كلَّ ذلك الزَّمن؟ ما عاد بوسعها الآن السَّفر وإلاَّ لأتت لرؤيتي.

تقلَّبتُ فوق السَّرير، أشعلتُ سيجارة ونفثت دخانها في العتمة.

ما الَّذي يجبرني على البقاء هنا، في هذه الأرض المقبرة؟

لماذا تتَّشح المقابرُ دائما بالشَّجر؟

لولا رحلاتي المتكرِّرة إلى بيروت وخروجي من عيتات لمتُّ من الكآبة في هذه الأرض الميِّتة، فرفاقي مصابون باكتئاب مزمن لا شفاء منه، يحاولون الهروب منه بلعب النَّرد، والاستمناء، والحلم، وانتظار شيء لا يعرفون ما هو، لكنَّه لا يأتي، ربَّما النَّصر، وربَّما الهزيمة!

كان ملصق جيفارا معلَّقاً عند مدخل صالة الطَّعام الكبيرة الَّتي تتَّسع لألف شخص أو أكثر وأسفل الملصق كتبت كلماته الَّتي حفرت في رؤوس كلِّ الثَّوريين في العالم: "الثائر آخر من يأكل، وآخر من ينام، وأوَّل من يموت".

اتَّكأ وحيد على الجدار، أمام الصُّورة، وسأل:

- أتدري من أيِّ بلد هو؟

- من بوليفيا....
- بل من الأرجنتين، ومات في بوليفيا...
- لكنَّه حارب في كوبا...
- شأن الثائر الَّذي لا تعرف أحلامه حدوداً أبداً... ترك السُّلطة والجاه وعاد إلى البندقيَّة، ومات
- سأذهب ذات يوم في دورة عسكريَّة إلى كوبا، وأعود، لعلِّي أكون مثله ذات يوم...
- لو كنت مكانك لفكَّرت بطريقة أخرى.
- لم أكن أتخيَّل أنَّك نادم على ما فعلت.
- لست نادما، قلت لو عاد بي الزَّمن فسأناضل بطريقة أخرى، ذلك لا يعني أنِّي نادم، أنا فقط أشعر أحياناً بالعبث، ثمَّة من يأخذ دفَّة الثَّورة إلى مكان قصيٍّ دون أن ننتبه، أو ندري....

ظللت صامتا، غارقاً في بحر الكلمات الَّتي نثرها أمامي.

- عليك أن تجد دائماً وقتاً للحياة، لكي تجيد لعبة الموت، نحن هنا فقدنا أبسط مقوِّمات الحياة وصرنا أشبه بالوحوش الضَّارية...

قفزت من مكاني وثبَّتُ الشَّمعة فوق الطَّاولة، ثمَّ رميت بالورق والقلم أمامي، ورحت أفكِّر....

جاء صوت أبي عبد الله من الغرفة المجاورة:

- لا تزعجوا الشَّاعر فقد تنزَّل عليه ملك من السَّماء...

ضحك الجميع، وصاح أبو الفوز عابثاً كعادته:

- الخلوة ممنوعة، وحرام... شرعاً، أين الحلوان؟

اعترض جورج:

- دعوا سعيدا وشأنه.....

عاد أبو علي يسأل عن الحلوى الَّتي وُعد بها فلم أجبه، رمى بحجرَيِ النَّرد فارتفع صوت تدحرجهما على لوح الخشب..... قال أبو الفوز:

- أنت رجل محظوظ....
- في الزَّهر فقط صدِّقني، أما حظِّي في الحياة فهو كرغيف الخبز المحروق... أجاب أبو علي.

سرنا بين الخيام المنتشرة على الجانبين، أشار وحيد إلى شجرة سرو على حدود المعسكر....

- تلك أوَّلُ شجرة زرعتها حين جئت إلى المعسكر، ترى لو زرعت يومئذ طفلاً في رحم امرأة كيف كان يمكن أن يكون الآن؟....
- وما الَّذي يمنعك من الزَّواج؟
- الفكرة العمياء الَّتي كنَّا نتحدَّث عنها، أن تذهب في الأشياء إلى أقصى ما تستطيع.... تُرى لو تزوَّجت هل كان يمكن أن أكون الآن مثل أبي رائد وأبي طارق قدم في الجنَّة وقدم في النَّار؟.... موظَّفاً يأتي إلى المعسكر فيفكِّر بالبيت والأولاد، ويعود إلى بيته يوم الخميس، ثمَّ يقضي أيَّام الشَّهر وهو يفكِّر بالرَّاتب؟ لست أدري.... لكنَّ الأشياء ليست كما تبدو عليه، أو أنَّنا عاجزون عن الفهم....

أَمسكت بالقلم وكتبت:

"ماذا تبقَّى من شهوة الرُّوح غير انكسار الجسد؟.... سكت الجسد، وانطفأت الرُّوح، ولم يتبقَّ ثمَّة إلاّ نضال معلَّقاً مثل قنبلة الضَّوء في السَّماء.... وحده نضال بات يعرف الحقيقة الآن، لكنَّه لم يعد قادرا على الكلام، تلك شروط المستحيل...

الزَّمن هو الوقت بين نقرتين.... نقرة الولادة ونقرة الموت.... قرار وجواب، شرط مقترن بشرط..."

- أبهذا الشَّعب ستحارب؟ سألني وحيد ونحن نعبر إلى الخيمة أخيراً بعد مسير طويل، ثمَّ أضاف وهو يخلع حذاءه العسكريَّ الأخضر من قدميه.
- حين ذُبِحَت الثَّورة في لبنان لم تجد من يحرِّك ساكناً على طول البلاد وعرضها، نحن يا صديقي مجرَّد شياه معدَّة مسبقاً للذَّبح، ويبدو أنَّنا قد تعوَّدنا حدَّ السِّكين واعتدناه، المشكلة تكمن في الهوَّة بين النَّظريَّة والتَّطبيق، هذا شعب ينظِّر كثيرا ويعرف كثيرا، ربَّما أكثر من كلِّ شعوب الأرض، لكنَّه لا يفعل شيئا، ولا يحاول حتَّى أن يطبِّق ما ينظِّر له، المعرفة وحدها لا تكفي، نحن شعب خائف مهزوم ولا نريد الاعتراف بذلك، ربَّما لو اعترفنا لكان بوسعنا أن نبدأ من الصِّفر، وأن نؤسِّس لنظريَّتنا الخاصَّة الَّتي يمكن لها أن تؤهِّلنا للحياة!

شيش بيش، بنج دو، دو بارا.

بماذا يمكن أن أملأ بياض الورق؟

بي؟ بليلى؟ بوحيد؟ بنضال؟ بمن؟ بماذا؟ بعيتات؟ بالخمسين؟

أيَّة قصيدة يمكن أن تتَّسع لكلِّ هذا الألم؟ أشعر أحياناً بأنَّ الواقع أكبر من قصائدي بكثير، الواقع هو أكبر قصيدة يمكن أن تخطَّها يدان لأنَّها تُخطُّ بالدَّم واللَّحم والرُّوح.

أيَّة تفاهات يمكن أن تصف حقيقة الواقع؟ أيَّة لغة يمكن أن تستوعب الحقيقة؟ اللُّغة ليست إلاّ وعاء ضيِّقاً يفيض بأصغر الحقائق، فكيف يمكن أن تتَّسع لأكبرها؟ الحقيقة أكبر من كلِّ اللُّغات والكلمات!

أيُّ لعنة تطارد هذه الثَّورة، وهؤلاء المساكين؟

لا بدَّ من ثورة أخرى كلَّ عام لتطهِّر الثَّورة من أدرانها.

الثَّورات ترتبط بأسماء، والأسماء ترتبط بالثَّورات، فيصبح أصحاب الأسماء بعد حين هم أصحاب الثَّورات، وكأنَّ الثَّورة مجرَّد ملكيَّة فرديَّة، تماماً كالحكومات والدُّول في هذا الوطن الكبير.

قال لي: علينا أن نناضل من الدَّاخل ومن الخارج كلَّ لحظة لكي نطهِّر الثَّورة من أدرانها، وضعت إصبعي على شفتيَّ:

- أُششششششش، للحيطان آذان.

كنَّا قد بدأنا نتعلَّم الخوف هناك أيضاً، تعلَّمناه في طفولتنا، في بيوتنا، في مدارسنا، في الشَّوارع، والمدن الكبيرة، والصَّغيرة، تعلَّمناه ذات يوم وعشَّش في أعماقنا وصرنا نحن حرَّاسه، صرنا نطعمه ونسقيه فيترعرع فينا ويبيض كالحمام.

سألني ونحن نسقي الأشجار في المساء:

- كيف هو شكل الوطن الَّذي تحمله في أعماقك؟
- وطن مثاليٌّ يكون قدوة لكلِّ العرب، وطن مختلف عمَّا نعرف من الأوطان، أجبت كالطَّالب المجتهد!
- ستفاجأ حين تعرف أنَّ وطنك لو قدِّر له أن يكون ذات يوم، لن يكون إلاّ وطن مذابح، لا بدَّ من حرب أهليَّة طويلة ليتجلَّى بعدها الوجه الوحيد، الوجه الَّذي لا يقبل وجوهاً أخرى معه.... نحن هكذا، تعلَّمنا أن نكون هكذا بالفطرة... حتَّى لو أعلنَّا غير ذلك... أو حاولنا أن نقنع أنفسنا بغير ذلك!
- ربَّما....
- أتظنُّ أنَّك تحمل في أعماقك وطناً؟

هززت رأسي:

- طبعاً، لماذا إذن أحارب؟
- لـو دقَّقـت في ملامحـه فسـتجده مخيَّمـاً لا وطنـاً، نحـن أدمنَّـا المنفى، والمخيَّم، وصرنا مشتَّتين بين الاثنين.

طأطـأت رأسـي، ربَّمـا كنـت في تلـك اللَّحظـة أحـاول أن أدقِّـق في ملامح الشَّيء الَّذي في داخلي بالفعل، ربَّما كنت أحاول أن أتحقَّق من فكرة وحيد.

حين سألته عن أشدِّ المواقف قسوة في حياته معتقداً أنَّه سيحدِّثني عن موقف ما خاضه في إحدى المعارك، طأطأ رأسه، فكَّر طويلاً، حضن وجهه بكفَّيه، وتنهَّد.

- حين كنت صغيراً كانت أمِّي ترسلني لاستلام "المؤن"، لا بدَّ أنَّك مارست هذه المهمَّة القذرة ذات يوم.

هززت رأسي بالإيجاب...

- كثيراً.
- ثمَّة رجل كان يسكن في آخر الشَّارع كان يعمل مديراً للفرع، لم أكن قد تجاوزت عامي العاشر آنذاك، كانت أمِّي تسلِّمني لــه وتتركــني وتــذهب إلى السُّــوق، فيضــع هــو بطــاقتي بـين البطاقـات الكثـيرة، ويضـعني أمـام الموظَّـف الَّـذي يـوزِّع السَّمن.

كانـت البطاقـات تـذهب أوَّلاً إلى غرفـة منفصـلة مغلقـة لختمهـا، وتسـجيل المعلومـات الَّـتي فيهـا علـى دفـتر كبـير، ثمَّ تـدخل مـاراثون السِّـباق بـين موظَّـف السَّـمن، والزَّيـت، والأرز، والسـكَّر، والصَّـابون، والطَّحين.

حين نظرت إلى الطَّاولة الَّتي توضع عليها البطاقات ذات يوم من طاقة صغيرة أصبت بالإحباط...

كـان عـددها بـالآلاف، والموظَّـف كلَّمـا أنهـى رزمـة منهـا نـام فـوق بقيَّتهـا، والنَّـاس في زقـاق ضـيِّق مظلـم تفـوح منـه الـرَّوائح النَّتنـة يتـدافعون وينتظرون.

كـان الموظَّـف الَّـذي يـوزِّع السَّـمن هـو أوَّل المـوظَّفين علـى رأس الطَّابور، وكانت رائحة السَّمن الكريهة، ورائحة الموظَّف الأشدُّ كرهاً منها لأنَّها مزيج من العرق والسَّمن تزكم أنفي.

أقف أمامه طويلاً بانتظار أن يصحو الموظَّف الَّذي يختم البطاقات، والنَّاس يتدافعون حولي في الزِّقاق الضيِّق الَّذي لا يكاد يتَّسع لمرور جسد واحـد ويستبيحون جسـدي الصَّغير، وكلَّمـا تنـاول موظَّـف السَّـمن بطاقـة ونـادى على اسمِ صـاحبها، وتـدافع صـاحب البطاقـة ليصل إليه، وجـدني أمامه واقفاً، فيفحُّ في وجهي كالأفعى:

- رأسك لا يوجد فيها غير الخراء يا ابن الخراء، ماذا تفعل منذ ساعتين أمامي؟

كان عليَّ أن أسمع تلك الكلمات وأظلُّ متسمِّراً في مكاني كالغبيِّ، لأنَّـه لا مفـرَّ لـديَّ مـن استلام تلك المعونـة... ولـيس بمقـدوري أن أتقـدَّم خطـوة إلى الأمـام، أو أتـأخَّر خطـوة إلى الخلـف، لأنَّ الأجسـاد المكدَّسـة كانـت أشبه بجدار هائـل منيـع لـيس بوسـعك تجـاوزه، فـإذا فعلـت، لـيس بوسعك العودة، لذلك كان عليَّ أن أبقى واقفاً أمامه، وبعد أن أسمع منه تلك الجملة ألف مرَّة، ينادي أخيراً على اسمي، ويتعمَّد لسبب لا أدريه أن يلوِّث ثيابـي ووجهـي بالسَّـمن حـين يسـكبه لي في إنـائي، فـأخرج بعـد أن أستلم حصَّتنا من المؤونة، وأبكي، لأنِّي لم أكن قادراً على أن أتحمَّل فكرة كون رجلٍ مقيت مثله يمكن أن ينعت أبي الشَّهيد بالخراء.

* * *

اختلطت الصُّور، لا أعرف متى غفوت، ولا أعرف كم من الوقت نمت، تنبَّهت حواسِّي فجأة وأنا أفتح عينيَّ، تسلَّلتُ من سريري بهدوء وسرت على أطراف أصابعي وأنا أسمع صوت لهاث قريب، أطللت برأسي من الباب فرأيت على ضوء القمر الشَّاحب جورج يجلس فوق أكياس الرَّمل وبندقيَّته بين يديه، وشبحاً يتسلَّل عبر النَّفق بعيداً وهو يلتفت نحو جورج.

ظننته في البداية لصَّاً ثمَّ أدركت أنَّه أبو علي، فَمِشيتُهُ، وطيفه لا يخفيان عليَّ، إلى أين يمضي في هذا اللَّيل متسلِّلاً؟ تساءلت وأنا أتسلَّل خلفه حافي القدمين، عَبَرَ الشَّارع الضيِّق المؤدِّي إلى منعطف الموت، وبدلاً من أن يسير باتِّجاه نبع الماء، سار يساراً نحو الطَّريق الَّتي تفصل بين عيتات وشملان، تلك الطَّريق الَّتي لم يكن أحد يجرؤ على عبورها في النَّهار لأنَّها كانت مكشوفة لقنَّاصة العدوّ من أوَّلها إلى آخرها.

سرنا شبحين في الظُّلمة لا يشير إلى وجودنا شيء سوى ضوء القمر الخافت الَّذي كان متوارياً خلف الغُيوم، ليلتها، أدركت كم هي المسافة قريبة بين عيتات وشملان، لكنَّ عبور ذلك الطَّريق في النَّهار كان الانتحار بعينه، لذلك كان علينا أن نلتفَّ عبر طرق فرعيَّة طويلة تستغرق أَكثر من ساعتينِ لكي نصل إلى شملان....

توقَّف شبحه أمام أحد البيوت المحاطة بالأشجار العالية، طرق الباب ووقف ينتظر، وما إن انفتح الباب وسقط الضَّوء على العتبة حتَّى اختفى أبو علي في الدَّاخل.

تسلَّلت بحذر إلى البيت، لكنَّني ما إن اقتربت من البوَّابة العالية والسُّور المرتفع حتَّى علا نباح الكلاب خلف السُّور، فانفتح الباب، وشاهدت من خلال قضبان الحديد شخصاً يقف تحت حزمة الضَّوء،

ويحـدّق إلى الظُّلمـة، ثم حـين شـعر بالاطمئنـانِ أمـر الكـلاب بـالتزام الصَّمت، وعاد أدراجه إلى الدَّاخل.

ظللت قابعاً في مكاني عند الباب الخارجيِّ أراقب المدخل المضيء، والكـلاب تنبح أمـامي مضـت الـدَّقائق طويلـة قبـل أن ينفـتح البـاب مـن جديـد، ويخـرج أبـو علـي مصـافحاً الرَّجـل ذاتـه، ويغـذُّ السَّـير عائـداً عـبر الطَّريق ذاتها إلى عيتات.

(14)

كأنَّه القبر!

بقيت شهوراً وحيداً في زنزانتي ما جعلني أصاب بالإحباط والجنون،

أين ذهب كمال؟ لماذا لم يعد؟ لم يكن ثمَّة من يفتح الباب عليَّ فأستأنس بوجهه حتَّى لو كان جلاّداً أو سجَّاناً، لم أجد ثمَّة من أحادثه سوى الجدران.

كأنَّه القبر!

الصَّوت الوحيد الَّذي كنت أسمعه كلَّ يوم ثلاث مرَّات هو صوت خطوات الحارس تقترب من الباب، يدسُّ صحن الطَّعام من أسفل الباب، ويمضي بلا كلمة واحدة.

كنت أنادي، أصرخ، أتوسَّل، أبكي، لم يكن ثمَّة من يجيب.

أعيدُ الصَّحن الفارغ أو لا أعيده، سيَّان، لم يكن السَجَّان يسألني عنه، بدا أنَّهم قد أَخذوا يحاربونني بالصَّمت، ولولا الحارس الَّذي كان يحضر لي الوجبات الثَّلاث لاعتقدت أنَّهم نسوني في ذلك القبر.

كنت مسروراً في البداية لأنَّهم تركوني وحيداً أرتِّب أفكاري، دون أن يتدخَّل في حياتي أحدٌ منهم كلَّ لحظة، ثمَّ شعرت بأنَّ الوقت يطول، وأنِّي بدأت أضيع في الصَّمت، وتختلط عليَّ الأفكار والوجوه والذِّكريات، والزَّمن.

كنت أطرق الجدران لعلّي أوصل رسالة لأيِّ سجين قريب، وأنتظر، أصغي، لكنِّي لا أسمع سوى صدى طرقاتي على الجدران، لا أحد، لا أحد، لا أحد.

مرَّة أنهض، ومرَّة أنام.

مارست الرِّياضة في محاولة لكسر طوق الوقت، استمنيت على الرُّغم من أنَّني كنت أدرك في قرارتي أنَّهم يراقبونني، حفرت قصائد بأظافري على الجدران، خططتها بإصبع يدي في العتمة وأنا أغمِّسه ببرازي، هكذا كان يمكن أن أجد حلاً لمسألة الورقة والقلم، أصاب جسدي الهزال، كنت أتلوَّى أيَّاماً، وأصرخ، وأستفرغ، وما من مجيب.

الوقت متشابه، لا فرق بين اللَّيل والنَّهار، أنا لا أعرف اللَّيل من النَّهار، أضعت الإحساس بالوقت، والأيَّام، لم أعد أدري في أيِّ شهر أنا، أو في أيِّ يوم، كانت الرُّطوبة تملأ الغرفة ورائحتها تزكم أنفي، بدا لي أنَّني تحت الأرض في مكان عميق، وليس ثمَّة تهوية أراها بعينيَّ، لا بدَّ أن التَّهوية موجودة في مكان ما قريب خارج تلك الغرفة.

في سرِّي كنت أحسد المؤمنين، لو كنت مؤمناً لقضيت وقتي بالصَّلاة والصِّيام والتَعبُّد لأقتل هذا الوقت القاتل.

شعرت بالاختناق، رقصت، غنَّيت، بكيت، هل جننت؟ ثقتي بنفسي بدأت تتزعزع.

صرت أ.... هذ... ي.

للأرض قدمان من زجاج، للصَّمت صوت، للصَّوت ظلٌّ، وآثار قدميَّ فوق الرَّمل من أوَّل ارتكاز الماء على الماء حتَّى الماء.

كلُّ شيء اختلط في غياهب الموت...

كلُّ نار آنستها ذات يوم صارت رمادا باردا ذرته الرِّيح.

الوقت يمضي، وأنا خارج الزَّمن لا أرى إلاّ دوار البحر، والنَّار.

رأيت الموت يلبس حكمة السُّفهاء، كان ألف عام تكثَّفت كبخار ماء، وسقطت قطرة واحدة من منيٍّ في رحم امرأة من حجر.

الآن فقط صار بوسعك أن تنهض من موتك كي ترى كم تغيَّرنا، وكم تغيَّرت الحياة.

جسدان في قبرٍ واحدٍ يحترقان، وجهان للحبِّ، كفَّان للخوف، نهدان لامرأة بيضاء كالزَّمن.

- أيُّ الأوطان أحبُّ إليك؟

- الميِّت حتى يؤوب.

رأيت الموت!

كان بخاراً صاعداً من الزَّمن، وكان يومئذ رحم أمِّي باردا كالرِّيح.

أسبح في اللجِّ فلا أرى إلا نفسي، أصعد نحو التقاء الماء بالماء، كلُّ شيء مطلق وأبديٌّ، ولا لونَ إلاّ الأسود المرسوم فوق الولادة، والفناء.

الأرض تمشي، وأنا أدور.

وموسى يخرج كفَّه بيضاء من غير سوء، ويسرق وجهي.

لو أنَّ موسى لم يأنس ناري قبل ثلاثين فاتحة في الكتاب، لو أنَّه لم يسب كلَّ أغنامي.

كم تبدَّل الحلم، وكم تبدَّلت الرؤيا!

كم تبدَّلت الدُّنيا، وكم تغيَّرنا!

لا معنى للخسارة بعد الموت، لا معنى لمواء ليلى، وانعتاقها من الماء، وارتكازها على الخطِّ الفاصل بين الرَّذيلة والفضيلة.

أنا والخوف صنوان، ولدت من ماء رجل خائف في رحم أمٍّ باردة.

أحاول أن أطرد الخوف بالموت فأفشل، من أين يأتي الخوف؟

كنت أنهار حيناً، وأشعر حيناً بطاقة غريبة تندفع في جسدي فتجعلني أصرُّ على البقاء، والتَحدِّي.

فُتحَ البابُ بعد وقت طويل قدَّرته بأشهر، فتح الباب، ورأيت وجهاً آدميَّاً، وغشي الضَّوء عينيَّ، ففقدت القدرة على الإبصار.

كنت هزيلاً، شاحباً، تماماً مثل ورقة شجرة صفراء، رائحة العرق والرُّطوبة كانت تفوح من جسدي ما جعل الحارس الَّذي اقتادني أمامه يغلق أنفه وفمه بكفِّه.

أدخلني إلى غرفة واسعة تحتوي عشرة مقاعد وطاولة، وقبالتها مقعد واحد أدركت أنَّه لي.

بالكاد كنت قادراً على الرُّؤية، فقد كنت أشعر بحرقة شديدة في عينيَّ، وألم، وانحطاط في جسدي، قيَّدني إلى المقعد ووقف خلفي تماماً.

انفتح الباب، وانسلُّوا إلى الدَّاخل واحداً وراء الآخر بصمت، ثمَّ جلسوا كلٌّ على مقعد معلوم.

أمسك الرَّجل الَّذي جلس أقصى اليمين قلماً وراح يكتب بلا توقّف.

تنحنح الرَّجل الجالس في الوسط، والَّذي نادوه بعد ذلك بالباشا، تناول كأس الماء وتجرَّعه دفعة واحدة ثمَّ راح يتلمَّظ، وساعته الذَّهبيَّة تتدلّى من يده.

- سعيد....
- ....
- أنت سعيد؟
- نعم.

قلت وأنا أهزُّ رأسي.

- اسمع يا بنيَّ، نحن لا نريد أن نضيِّع وقتك ووقتنا، دعنا نتحدَّث بصراحة وصدق ولو لمرَّة واحدة، وأعدك، أعدك بشرفي أن ننتهي من هذه المسألة هنا، في هذا المكان،

سنسقط عنك كلّ التُّهم المنسوبة إليك، وستخرج من هنا ومعك جواز سفر، وتسافر إلى أيِّ بلد تريد، ألستَ شيوعيّاً؟ موسكو سقطت، لكنَّ كوبا لا تزال على دينها؟ سنرسلك إلى هناك... لن أقول لك وقِّع تنازلاً أو استنكاراً، لا.... أنا أعرف إخلاصك لهم، وأعرف أنَّك رفضت العمل معنا مقابل كلِّ الإغراءات الَّتي قدمناها لك، أَعرف، وأعرف أنَّ مكانك هناك وليس هنا...

كان بديناً جدَّاً، يلبس نظَّارتين زجاجهما بنيٌّ معتم، يبذل جهداً خارقاً للقيام بأيَّة حركة ما يجعله دائم اللّهاث، شديد الأَناقة، حليق الشَّاربين، وشعره مصبوغ، لا يدخّن إلاّ السِّيجار.

بدا جادَّاً تماماً.

كم كنت أودُّ الخروج من ذلك المكان الَّذي فقدت فيه ذاتي، لكنِّي كنت أتساءل في سرِّي عن الثَّمن.

- الشُّيوعيون كالسُّوس يفسدون الشَّجر الأخضر، فإذا فسد لا فائدة منه، قطعه حلال، يبيحون نكاح أخواتهم وأمَّهاتهم، لا حدود لديهم لشيء، كلُّ شيء مُباح، حين يغيب الدِّين، يصبح كلُّ شيء سهلاً، هؤلاء لا يؤمنون بالله فماذا تنتظر منهم؟ الأفضل أن يبقوا خارج البلاد حتَّى لا يلوِّثوا أهلها، لو كانت الأمور بيدي ما أعدت أحداً منهم قطّ، كلُّهم شراميط، صدِّقني، ليسوا أكثر من شراميط!

قال وهو ينظر إلى الرَّجل الجالس إلى جانبه متعمِّداً أن يرفع صوته.... ثمَّ نظر إليَّ من جديد:

- ما اسمك يا بنيَّ؟
- سعيد...

- اسمك الرُّباعي.
- سعيد أحمد محمود الدُّوري.

أعاد جسده إلى الوراء، واتَّكأ على الكرسيِّ... وزفر، انتفضتُ على إثر الصَّفعة الَّتي لطمت عنقي، أعاد السُّؤال فأعدت الجواب نفسه.

- قل لي ما اسمك وأعدك أن أنفِّذ كلَّ ما وعدتك به، ستخرج من هنا إلى كوبا.

فكَّرت: ربَّما بقليل من التَّنازل أستطيع أن أخرج من هذا القبر.... وأرتاح....

- أيُّ اسم تريد لي أن أختار؟
- اسمك أنت، أريد أن أعرف اسمك أنت، ولا أريد أن تختار أسماءً.
- اسمي خالد أحمد مرزوق، أَليست البطاقة لديكم؟
- البطاقة مزوَّرة.... وكلانا يعرف أنَّ اسمك فيها غير صحيح... حتى التزوير لم تفلحوا به... يا ليتكم أفلحتم به وأرحتمونا.
- اسمي مسعود.
- الرُّباعي.
- مسعود أحمد محمود الدُّوري، أنا الشَّقيق الرَّابع لإخوتي، لا بدَّ أنَّكم تعرفون هذا.

تنفَّس الباشا الصُّعداء وكأنَّه أنزل عن كتفيه آلاف الأكياس الَّتي كانت تثقل كاهليه.

- هل كتبت ذلك يا بنيَّ؟

سأل الرَّجلَ الجالس في أقصى مقعد إلى اليمين وبيده القلم، هزَّ الرَّجلُ رأسه بالإيجاب.

- دعه يوقِّع عليه....

وقَّعت بعد أن فكَّ الحارس وثاقي...

رفع الباشا يده البيضاء السَّمينة، فدخل آخرُ رجلٍ كنت أتوقَّع حضوره إلى المكان، وخلفه رجلان بدا أنَّهما حارساه.

أوسعوا له الطَّريق، نهض الباشا من مقعده وأجلسه مكانه وجلس إلى جانبه.

- أرأيت؟ أسمعت بنفسك؟ هذا هو الشَّخص الَّذي جاء من دمشق كي يغتالك، اسمه مسعود، أمَّا سعيد فقد مات منذ سنين وشبع موتاً، هذا شقيقه ربَّما يشبهه كثيراً لذا اختلطت عليك الأمور!

هزَّ بيريز رأسه ونظر إليَّ وابتسم..... ثمَّ قال بخبث للباشا بعربيَّته الرَّكيكة:

- هل تعتقد أنَّه يمكن لي أن أتوه عنه؟.... لو وضعته بين ألف شبيه له لأخرجته لك من بينهم.... هذا سعيد، ولا يمكن لي أن أخطئه، حتَّى لو أنكر نفسه.

(15)

في الصَّباح الباكر خرجت إلى الستِّين، والتقيت بميشيل، شربنا القهوة، واستمعنا إلى فيروز، وأخبرته بكلِّ ما رأيته اللَّيلة الماضية.....

طلب منِّي ألاّ أخبر أحداً بما رأيت، وأن أنتظر عودة خليل، وأن أعود لمراقبة أبي علي في تلك اللَّيلة أيضاً، وأن أنام أثناء النَّهار في الستِّين كي لا يثير نومي نهاراً انتباه أحد....

خرجنا معاً إلى شملان، سرنا طويلاً قبل أن أهتدي إلى البيت الَّذي زاره أبو علي أثناء اللَّيل، مررنا أمامه، كان بيتاً حجريَّاً قديماً مؤلَّفاً من طابق واحد فقط، يحيط به سور مرتفع، وتملأ حديقته الكلاب الَّتي راحت تنبح من خلف الباب فور أن اشتمَّت رائحتنا، اقتربنا من البوَّابة أكثر، الأشجار كانت تخفي جزءاً كبيراً من البيت، والحشائش المهملة كانت قد نمت على حوافِّه، لم نلتفت حتّى لا نثير انتباه أحد، إذ ربَّما يكون ثمَّة من يراقبنا خلف إحدى النَّوافذ، قطعنا الطَّريق، وسرنا نحو موقع التَّنظيم في شملان، رحَّب بنا مالك الَّذي كان دائماً يبدو وكأنَّه قلق حتَّى لو كان في أكثر حالاته استقراراً وهدوءًا، قادنا إلى الدَّاخل حيث كانت سارة تجلس مع بلال وكمال التُّركي، وما إن رأونا حتَّى هبُّوا واقفين، وابتسامات عريضة تزيِّنُ وجوههم...

تصافحنا، وجلسنا نتبادل الحديث، قضينا ساعة ثمَّ استأذنَّا وخرجنا مصطحبين معنا مالكاً.....

لم يشأ ميشيل أن نمرَّ من المكان ذاته مرَّة أخرى، سرنا عبر طريق آخر، وحين لاح البيت من بعيد أومأ ميشيل إلى البيت بنظره دون أن يشير إليه....

- لمن هذا البيت؟

حكَّ مالك رأسه، وفكَّر....

- لرجل درزيٍّ اسمه أبو أرسلان على ما أذكر.... لكنَّه متقاعدٌ منذ زمن....
- هل تعرف عنه شيئاً؟....
- لا أعرف غير اسمه، أحياناً نتبادل التحيَّات من بعيد.

روى له ميشيل ما جرى ليلة أمس، وطلب منه أن يكتم الأمر حتَّى عن سارة، وأخبره أنَّنا بانتظار عودة خليل من سوريا لاتخاذ قرار بشأنه، وطلب منه مراقبة البيت، والشَّخص الَّذي يسكن فيه، وكلَّ زوَّاره بلا استثناء.

استأذنَّاه وعدنا إلى عيتات، كان عليَّ أن أذهب لمقابلة أحمد في بيروت، لذلك آثرت أن أودِّع ميشيل في قبر شمون، وأذهب بواسطة سيَّارة أجرة....

"الحرب تضع شروطاً لمن يلتزم بالحرب، أمَّا أولئك الَّذين يتَّخذون شكل الإناء الَّذي يملؤونه، فهم لا يخضعون لأيَّة شروط....".

هكذا فكَّرت أثناء الطَّريق وأنا أتذكَّر أحمد الَّذي لا توقفه حدود ولا حواجز ولا متاريس، كان صديقاً للجميع، يمتلك علاقات متساوية مع الجميع، وما يثير أكثر أنَّ له أصدقاء على معظم الحواجز، فإن لم يجد من يعرفه على الحاجز تملَّص من المقاتلين كالصَّابون وعقد صفقات بعضها حقيقيٌّ وبعضها وهميٌّ، وتحدَّث في مواضيع لا تخطر ببال أحد، كلُّ ذلك لم يكن بادياً على مظهره، ربَّما أحمد هو الشَّخص الَّذي لا ينطبق شكله

على مضمونه، لأنَّه تعلَّم واكتسب شكلاً ومضموناً جديدين لا علاقة لهما بالأصل الذي حباه الله له، فظلاّ متنافرين لا يعبِّر أحدهما عن الآخر.

التقيت أوَّلاً بليلى في موقع التَّنظيم جالسة خلف جهاز اللاَّسلكي، قضيت معها ساعة محاولاً أن أشكرها على ما فعلته من أجلي، وأخبرتها بكلِّ ما جرى، خصوصاً أخبار عيسى الصَّغير وزينب، حاولت أن أتقرَّب منها بعد أن شعرت بكلِّ ذلك الجفاء الَّذي صار يسكنها تجاهي، حاولت أن أوحي لها بأنَّني لست كما تظنُّ، وأنَّني لم أنقلب، ولم أتغيَّر، لكنَّ شيئاً ما كان يقف حاجزاً بيننا، لا أدري ما هو بالضَّبط، لكنَّني أشعر به، أحسَّه كما أحسُّ الهواء ولا أراه....

عبَّرَتْ عن سعادتها لأنِّي استطعت أخيراً أن أجد عظام عيسى، وزوجته وابنه.

عدنا معاً إلى البيت، طوال الطَّريق وأنا أحاول أن أكسب ودَّها، اشتريت لها لعبة صغيرة ومنديلاً أبيض لفَّته على رسغها، وحين وجدتها لا تزال صمَّاء كالصَّخر آثرت أن أستميلها بالشِّعر، لكنَّها لم تجاملني بأكثر من بعض الكلمات الجافَّة الَّتي زادتني سخطاً وغضباً وألماً فجعلتني أنفجر دفعة واحدة في وجهها مثل طفل صغير.....

- ما الَّذي تريدينه منِّي؟
- أنا لا أريد شيئاً منك، ما الَّذي تريده أنت منِّي؟...

صرخت في وجهي.

- أنا أحبُّك.... أحبُّك... ألا تستطيعين أن تفهمي كم أنا متعلِّق بك؟.... ما الَّذي غيَّرك تجاهي؟ ألم نكن صديقين؟
- كنَّا أصدقاء وما زلنا.... لم يتغيَّر شيء.... ولن نكون أبداً أكثر من ذلك....

- لماذا؟....

دَخَلتْ إلى البيت مسرعة دون أن تجيب، استقبلني أحمد عند الباب ببشاشة، دلال هرعت خلفها إلى الغرفة بعد أن صافحتني، ودلفت أنا وأحمد إلى غرفة الضُّيوف وهو لا يزال يرحِّب بي....

- هل اختلفتما؟
- وهل كنَّا يوماً متَّفقينِ حتَّى نختلف؟
- هذه فتاة مجنونة فاحذرها...
- هل تزوِّجني بها؟

ضحك أحمد طويلاً وهو يغطِّي وجهه بكفَّيه...

- تتزوَّجها؟
- أنا جادّ...
- وأنا... أيضاً.... جادّ....
- هل قلتُ ما يضحك؟
- لا لكنَّها لن تتزوَّجك، هناك أشياء لا تعرفها، وأفضِّل ألاّ تعرفها....

أصبت بالجنون.... والدَّوار.... والإحباط... والفضول....

- حتَّى لو لم تكن عذراء... فذلك لا يشكِّل فرقاً عندي.... قلت معتقداً أنَّني قد فجَّرت القنبلة الَّتي يخفيها الجميع وأنا ألهث وأراقب ردَّة فعله.
- أفضِّل أن تنسى هذا الموضوع... قال ببرود وكأنَّ الأمر لا يعنيه.
- أترفضني؟
- هي الَّتي سترفضك....
- جرِّب.... لن تخسر شيئاً....

غاب أحمد، وبعد قليل سمعت صُراخها يصعد إلى السَّماء كالعويل، وأصوات بعض الآنية تتكسَّر في المطبخ، هرع بعض الجيران إلى البيت، واختلطت الدُّنيا، والألوان، والوجوه والأصوات، دخلت دلال وقد بدا عليها الغضب، فردت كفَّيها في الهواء وهي تقف قبالتي....

– من الَّذي رماك في طريقنا؟....

وقفت مشدوهاً، مصدوماً، لا أصدِّق ما أسمع ولا أدري بماذا أجيب.....

– ..... دينك ودين أبي الفوز الَّذي جاء بك، اخرجْ من هذا البيت الآن ولا تعد إليه...

لم أصدِّق ما قالت، انسحبت ذليلاً، مكسوراً، لا أفهم شيئاً ممّا دار أو يدور، والدُّنيا لا تتَّسع لحزني، ما الَّذي اقترفته حتَّى أُطرد بتلك الطَّريقة المُهينة؟ شعرت برغبة في البكاء، لكنَّني لم أبك، سرت مطرقاً في الشَّارع أُدخِّن بشراهة، شعرت بالتِّيه، والغضب، والمرارة، وبرغبة في التقيُّؤ.... ورحت أسعل حتَّى شعرت أنَّ رئتيَّ ستخرجان من صدري...

التفتُّ خلفي حين شعرت بكفٍّ تلامس كتفي، فوجدت أحمد يشدُّ على كتفي، ويواسيني....

– ألم أقل لك؟

– أنا لا أفهم ما يجري، بماذا أخطأت؟

– أنت لم تخطئ، لكنَّ الواقع ليس كما تتخيَّل....

– لماذا؟....

– ستفهم ذات يوم....

سحبني من يدي نحو السيَّارة الَّتي كانت تقف أمام البيت، فتح لي الباب، صعدنا، أدار المحرِّك، وانطلق ببطء وسط حشود الأطفال الَّذين كانوا يملؤون الشَّارع وراحوا يركضون خلف السيَّارة.

- أنت شابٌّ تتمنَّاك جميع الفتيات، لكنَّ أختي مجنونة، عليك أن تنسى أمرها إلى الأبد عليك أن تتخلَّص منها، إنَّها مريضة وبحاجة إلى علاج نفسيٍّ.
- لكن..... ؟
- ستعرف السَّبب ذات يوم وحدك.....

قال وهو يناولني لفافة تبغ ويشعلها.....

- دخِّن.... دخِّن.... هذه السِّيجارة ستغيِّر مزاجك.....
- أريد أن أشرب.
- سنشرب، وندخِّن، وسننسى كلَّ ما جرى، سننسى هذه الملعونة إلى الأبد....

أرخيت رأسي على مسند المقعد.

- هل هذا حشيش؟
- نعم....

سحبت نفسا آخر متردِّداً ومددت كفِّي بالسِّيجارة نحوه:

- أنا لم أدخِّنه من قبل...

ملأت رائحته الغريبة الهواء في السيَّارة.

- جرِّبه، اكتم نفسك في صدرك بقدر ما تستطيع.

انفتحت في رأسي نوافذ، وأبواب، وطرقات، ومدن، وبلاد، ووجوه بلا معالم، ولا حدود.

- لا أشعر بتأثير كبير لها فيَّ.

لفَّ لي واحدة أخرى، شربنا، ودخَّنا، حتَّى دارت الأرض، ودارت، فلم يعد لها أيَّة معالم، وجاء وجهها بلا ملامح:

- هل كتبت عن البحر؟ سألتني ونحن نتَّكئ على البحر فأجبت:

- كتبت أنَّ البحر مقبرة الرِّجال....

بالكاد كنت أسمع أحمد، وأراه، وأشعر به.

- أنت شاعر فاشل...
- أعرف....
- وإنسان فاشل...
- أعرف...
- ومقاتل فاشل.
- أعرف، أنا كلُّ فجيعة على هذه الأرض، أنا الحزن، واليأس، والإحباط، والسُّقوط والقنوط، أنا الصِّفر الكبير الكبير، أنا أكبر صفر على هذه الأرض.

أخرجت رأسي من النافذة وحدَّقت إلى البحر، ثمَّ تنشَّقت الهواء، وبصقت، ورحت أتقيَّأ.

- الرَّجل الآن يقاس بماله لا بهذيانه، عليك أن تعرف أنَّ الدُّنيا تغيَّرت....
- أعرف...

تقيَّأت من جديد، شعرت بدوار شديد، وألم يكاد يفجِّر رأسي، نظرت إلى أحمد فلم أره، نظرت إلى الطَّريق فلم أرها، نظرت إلى البحر فلم أره، واستسلمت لنوم عميق....

كيف تبدَّلت الوجوه؟... كيف تغيَّر الزَّمن؟.... من ذا الَّذي أحضرني إلى هنا؟.... هل أحلم؟......

يتصاعد ألم حارق من أمعائي، فتحت ذراعيها، ضمَّتني إلى صدرها، فنمت، أيقظتني، لكنَّني عدت إلى النَّوم.... فعادت لتوقظني.

- أين أنا؟...
- أنت على صدري...

- في شارع الحمرا؟....
- على صدري....

حدَّقت إليها لكنَّني لم أكن أرى شيئاً، كنت أسمع صوتها فقط....

- من أنتِ؟...
- أنا جورجيت....

قبَّلت شفتيَّ، كأنَّ لها ألف ذراع مثل أخطبوط عجيب تلفُّها جميعاً حول جسدي، جسدها الأبيض كان يعوي، وأنا ألهث مثل ذئب مسعور وأعوي...

- من أنتِ؟
- أنا جورجيت....

سَقَطتُ في أعماق البئر السَّحيقة واستسلمت للموت، نضال وحده بوسعه الآن أن يجيب عن سؤال الموت، لكنَّه ما عاد يتقن الكلام.....

ضمَّتني إليها، شعرت بلهاثها يحرق وجهي وذراعيَّ، ما الَّذي تريده منِّي؟... ومن هي؟... ولماذا أنا معها؟... ولماذا يلتحم الجسدان؟... وكيف التحما وأنا الَّذي لم أعرف الجنس من قبل؟ كم تساءلت طوال عمري عن شكل أوَّل امرأة في حياتي! وكم تساءلت عن قدرتي على الوفاء بالوعد، وممارسة الجنس مثل كلِّ الرِّجال!...

كنت ألهث كالكلب المسعور... ألهث، ألهث، ألهث، ورأسي يدور... ويدور... ويدور...

كلُّ شيء فجأة يتغيَّر، الجسد يطفو، واللَّذة تصل حتَّى أطراف الرّوح، والشَّهوة تنطفئ، ولا يبقى إلاّ رجل مطفأ بانتظار عودة الرُّوح....

قادتني من يدي إلى الحمَّام، اغتسلت، للمرَّة الأولى منذ زمن طويل أغتسل بالماء السَّاخن والصَّابون، الماء هنا له طعم آخر، والحياة لها شكل آخر، لم أعرفه، ولم أُجرِّبه من قبل.

تَمدَّدتُ على الأرض العارية فتمدَّدت إلى جانبي، حوريَّة من أهل الجنَّة جاءت تعزِّيني في محنتي، جاءت تعوِّضني عن ليلى الَّتي ماتت، حوريَّة صهباء لم أر لها مثيلةً من قبل، هل أحلم؟....

سمعت لهاثَها.... ضممتها إليَّ.... فسمعت صوت عظامها تطقطق واحدة تلو الأخرى فأكَّدت لنفسي بأنَّني لا أحلم.

الدُّنيا تدور... والأرض بيضاء كالثَّلج... وجسدي ريشة طائر تطفو فوق الماء...

نهدان حاسران، وجسد أبيض دافئ، والقلب يخفق في الأذن كأنه يفتِّش عن ملاذ، عواء، عواء، عواء طويل يملأ كلَّ الكون.

وقفت على قدميَّ مترنِّحاً فأسندتني بكفَّيها.

فتَّشت عن وجه ليلى بين الوجوه... أين مضت؟.... وأين حليم؟... لماذا لم يعد بعد؟.... أين حليم؟....

اتَّكأت عليها، سرنا معاً عبر الرُّواق الطَّويل وعيناي مغمضتان، لا أدري أين قادتني، فتحت عينيَّ فجأة على وابل من الماء ينصبُّ على رأسي...

- أين أنا؟

كانت عاريةً تماماً مثلي، للمرَّة الأولى أقف عاريا أمام امرأة بعد أمِّي الَّتي كانت تصرُّ حتَّى بعد أن ظهر الزَّغبُ على جسدي وعانتي أن تدخل معي الحمَّام لتفركَ جسدي باللِّيفة والصَّابون، لم أشعر بالخجل، لم أشعر بشيء، كنت أريد أن أنام، أن أخرج من ذاتي وعذابي وألمي، الموت يطاردني فيخلق في أعماقي شعوراً آسناً بالغربة والضَّياع....

ما الَّذي جعلني أشرب وأدخِّن الحشيشة؟.... ما الَّذي جعلني أخرج من سعيد، وأدخل في متاهات روح لا أعرف لها أوَّلاً ولا آخرا، ولا أعرف لمن هي؟

كلُّ شيء على هذه الأرض مقلوب رأساً على عقب.....

سقَطتُ على الأريكة ورحت ألهثُ مثلها... وأصرخ مثلها... أنشَبَتْ أظافرها في لحمي وهي تصرخ، وتتأوَّه، وأنا أصرخ وأشدُّها إليَّ كثور كسر طوقه وراح يعدو كالمجنون.

عواؤها يزيدني وحشيَّة وجنوناً.... بكاؤها يبكيني.... مجنونة كانت، شبقة، مسكونة بالجوع والعواء.

أدميت شفتيها المكتنزتين.

حلَّقتُ بلا جناحين في سماء بعيدة مع الطُّيور، تحرَّرت من ثقل الحديد، وجاذبيَّة الأرض وواقع الجسد، تمنَّيت لو أنَّ كلَّ ما يجري حقيقيٌّ وقابل للاستمرار.

عاريان من كلِّ شيء إلاّ من الحياة، ممدَّدان على الأرض العارية...

أشعلنا سيجارتين ودخَّنا.... سكَبَتْ لنا كأسين من النَّبيذ المعتَّق وأدارت الموسيقى... ودعتني للرَّقص... وقفنا عاريين... استسلمتُ لها، لم أكن أجيد الرَّقص أبداً، لذلك حاولت ألاّ أخرج عن الإيقاع، علَّمتني كيف أتمايل مع الإيقاع مثلما يتمايل العشب أمام الرِّيح، علَّمتني كيف أخرج من قيود الجسَد وأصعد في ملكوت السَّماء، قالت: سلِّمني نفسك مثلما أسلم آدم ذات يوم نفسه لحوَّاء.... فسلَّمتها نفسي... ضمَّتني إلى النَّهدين المتعبين المبلَّلين بالعرَق، أسلمتني للإيقاع، أخرجتني من حدود الزَّمن، هكذا فقط استطعت أن أنسى وجه ليلى، ووجه نضال، ولم يتبقَّ ثمَّة إلاّ هي وحدها أمامي في الكون، والموسيقى....

HELLO, IS IT ME YOU ARE LOOKING FOR

I CAN SEE IT IN YOUR EYES

I CAN SEE IT IN YOUR SMILE

YOU ARE ALL I HAVE EVER WANTED

AND MY ARMS ARE OPEN WIDE
CAUSE YOU KNOW JUST WHAT TO SAY
AND YOU KNOW JUST WHAT TO DO
AND I WANT TO TELL YOU SO MUCH, I LOVE YOU

تمايلت على وقع الإيقاع، ذبت كقنبلة الضَّوء وتلاشيت في الكون، لا أريد أن أعود إلى الزَّمن، لا أريد أن أعود إلى سعيد، أريد فقط أن أظلَّ هناك إلى الأبد، معلَّقاً بلا خيوط في السَّماء.

* * *

أصبت بالدَّهشة والذُّهول حين فتحت عينيَّ...

السُّؤال الأوَّل الَّذي قفز إلى ذهني وأنا أفتح عينيَّ وأرى ما لم أعتدْ أن أراه كلَّما فتحت عينيَّ: أين أنا؟....

أدرت بصري في المكان الغريب، السَّتائر مخمليَّة خمريَّة مسدلة على النَّوافذ، الأثاث خشبيٌّ معتَّق فاخر، الأرض مفروشة بالسِّجاد الجميل الَّذي امتلأ بآثار النَّبيذ وفضلات الطَّعام، وبقايا الاستفراغ...

وحدي كنت في فراش وثير وصوت امرأة تدندن يأتي من خلف الباب....

هل كنت أحلم؟

قفزت من مكاني، تذكَّرت ليلى، وأحمد، وما جرى بالأمس...."لا بدَّ أنَّني شربت كثيراً، فتركني أحمد حيث كنَّا...." فكَّرت وأنا أبحث عن ملابسي الداخليَّة.... ثمَّ تذكَّرت خليلاً... وفكَّرت: "لا بدَّ أنَّه قد عاد الآن من سوريا"....

رحت ألعن في أعماقي ليلى، وأمَّها، وصدري مملوء بشعور حادٍّ بالغربة والكآبة والضَّياع.

لم أكن أتخيَّل يوماً أنَّني سأشرب وأغيب عن الوعي بهذه الطَّريقة.

دَخَلتْ إلى الغرفة وأنا لا أزال أقف في وسطها حائراً عارياً أبحث عن ملابسي، التقت أعيننا وكأنَّها تلتقي للمرَّة الأولى، شعَرتُ بالذُّهول من جمالها، لكنَّ شعوري بالخجل تغلَّب عليَّ.

رحت أعتذر، فضحكت....

كانت تقف أمام الباب نصف عارية وشعرها الأشقر يتدلَّى على كتفيها، لم أستطع إلاّ أن أحدِّق إليها، إلى وجهها الأبيض المستدير المدبَّب عند الذَّقن، وأنفها الصَّغير، وعينيها السَّوداوينِ الواسعتين، وجسدها المتناسق البضِّ الَّذي انتشرت عليه آثار الكدمات الزَّرقاء، وصوتها الَّذي كان بوسعه أَن يحرِّك الصَّخر.

شعرتُ بالارتباك ورحت أبحث عن ملابسي...

- غسلتُ كلَّ ملابسك....

قالت بصوت أقرب إلى الهمس، جلستُ على حافَّة السَّرير وأنا لا أكاد أصدِّق ما يجري، حدَّقت إليها، وسألت:

- أين نحن؟
- في بيروت.
- وكيف جئت إلى هنا؟
- ألا تذكر؟
- لا أذكر شيئا، أَذكر أَنَّنا كنَّا في بار في الحمرا.
- التقينا هناك.
- لا بدَّ أنِّي كنت ثملاً.

كان رأسي مليئاً بالضَّجيج والألم، حاولت أن أتذكَّر شيئاً ممَّا جرى معي بالأمس، رأَيت صُوراً تشبه الحلم والخيال، بدأتُ بتقديم سيل من الاعتذارات وسط دهشتها، اقتربت منِّي ووضعت كفَّها على فمي، همست في أذني بصوتها الرَّقيق:

- نحن أكثر من زوجين....

جلست إلى جانبي ووضَعَتْ ساقاً على ساق، أحسَستُ بالدَّم يصعد كالنَّار إلى رأسي، نهداها شبه عاريين، وأنفاسها دافئة تلفح عنقي....

- كيف؟...
- لا أدري كيف، كانت ليلة......
- ما اسمك؟...
- اسمي جورجيت... للمرَّة الألف أقوله لك... أأكتبه على كفِّك كي تتذكَّره؟

رحت أعتذر...

- وهل سألتك عنه من قبل؟
- ألف مرَّة....

شعرت بنفسي كالأبله، لم أكن أدري ماذا أفعل، طلبت منها بأدب جمٍّ أن تُحضر لي ثيابي ورحت أحدِّثها عن ضرورة ذهابي إلى عيتات قبل أن يفتقدوني، وقبل عودة خليل.

قالت لي إنَّ ملابسي لا تزال مبلولة فأكَّدت لها أنَّ بوسعي ارتداءها كما هي، فضحكت...

كانت تهرب من كلِّ شيء إلى الضَّحك، وربَّما تعرف أنَّ ضحكتها كالمغناطيس الَّذي لا يترك أحداً إلا ويجذبه إليها.

- أين أحمد؟... سألتها...

- لست أدري، لا أعرف أحمد، لكنَّك كنت مع شابٍّ نحيل، طويل القامة بالأمس.
- هو أحمد.
- كنتَ متعباً، لكنَّك تعلَّقت بي.
- عليَّ أن أغادر الآن....
- هل مللت منِّي؟... قالت بغنج ودلال وهي تضع كفَّها على فخذي العاري... وأضافت:
- من رآك بالأمس لا يمكن أن يصدِّق أنَّك أنت نفسك الآن.... كنت أجمل... وأرقَّ... وأكثر جاذبيَّة ورومانسيَّة.... انتظر حتّى تشرب القهوة....

غابت قليلاً وأَنا أجلس حائراً، مرتبكاً، ثمَّ عادت وفي يدها القهوة، جَلستْ قبالتي تماماً على الأريكة الوحيدة الموجودة في غرفة النَّوم، وضَعَتْ ساقاً على ساق، ثمَّ سكبت القهوة... وناولتني الفنجان.

- هل لديكِ سجائر؟

نهضت وأحضرت علبة المارلبورو البيضاء، أخرجت منها سيجارتين وأشعلتهما وناولتني إحداهما، رحت أتأمَّل نهديها شبه العاريين، ثمَّ أشرت إلى وشمٍ دقيقٍ لكبشٍ صغيرٍ أعلى النَّهد الأيسر...

- ما هذا؟
- أعجبك؟.... سألت وهي تكشف عنه أكثر وتقرِّبه منِّي.
- جميل ودقيق، أذكر أنِّي رأيت مثله من قبل، لكنَّني لا أذكر أين.

حككت رأسي المليء بالدَّوار.

- لا أذكر....

اقتربت منِّي أكثر، تدلَّى نهداها أمام عينيَّ، عدت أحدّق إلى الوشم من جديد، الأشياء حين تكون في غير مكانها تثير الانتباه أكثر، وتثير رغبة كامنة في التَّحديق، وضعت كفَّها على عنقي، لامست شفتاها شفتيَّ، شعرت بالدُّوار، والرَّهبة، والرَّغبة، فكَّرت أن أبعدها عنِّي لكنَّ يديَّ لم تطاوعاني، استسلمت لها وهي تلثم شفتيَّ وعنقي وأذنيَّ، أمسكت أطراف أصابعي بنهدها فشعرت بتيَّار كهربائيٍّ يعبر جسدي من أقصاه إلى أقصاه، ارتعشت، اهتزَّ جسدي، ضَحِكَتْ، قادتني من يدي إلى الحمَّام، اغتسلت، واغتسلت معي، عدنا عاريين إلى السَّرير، تمدَّدتُ فاتحاً ذراعيَّ وأنا لا أصدِّق ما يجري معي، ضممتها إليَّ، قبَّلتها، قبَّلتُ كلَّ شبر في جسدها، غبت بعيداً، بعيداً، بعيداً، ثمَّ عدت.

اغتَسَلتُ مرَّة أخرى، وحين خَرَجْتُ وجدتها قد أعدَّت لنا طعام الإفطار.

منذ متى لم تدلِّلني امرأةٌ، وتعدَّ لي إفطاري، وتطعمني بيديها؟

جلَستُ شبه عار إلى المائدة، لم أعد أشعر بالخجل، بدأت بالاعتياد عليها وعلى المكان، أطعمتني بيدها وأطعمتها بيدي، كنت أريد أن أشعر بالحبِّ ولو مرَّة واحدة فقط، حتَّى لو مع غريبةٍ لا أعرف عنها شيئاً إلاَّ اسمها، كنت أريد أن أشعر أنَّ بوسعي أن أحبَّ وأن أكون محبوباً من النِّساءِ مثل كلِّ النَّاس.

تحسَّست ذراعيَّ المفتولين، وصدري العريض.

- عيناك جميلتان، ألم يخبرك أَحد من قبل بأَنَّ أَهدابك طويلة تشبه أَهداب النِّساء؟ مع أنَّني لم أكن أتخيَّل أن الشُّعراء قد يمتلكون جسداً هائلاً مثل هذا الجَّسد، ووجهاً جميلاً مثل وجهك.

دُهِشت.

- كيف عرفتِ أنِّي أكتب الشِّعر؟
- لقد قلت لي الكثير عن نفسك، أنت ربَّما لا تذكر شيئاً ممَّا جرى بيننا في البار، لكنَّني أتذكَّر كلَّ شيء، أنت رجل رائع، هل تؤمن بالحبِّ من النَّظرة الأولى؟

تذكَّرت ليلى، هززت رأسي نافيا.

- مع أنَّك شاعر...
- هل قرأتُ لكِ شيئاً؟
- بلى، قرأتَ لي أجمل قصيدة.
- ماذا قرأت؟

أشارت إلى الكدمات الزَّرقاء الَّتي انتشرت في كلِّ أنحاء جسدها...

- قرأت هذه القصائد.

لوَّحت بسبَّابتي في الهواء متصنِّعا ابتسامة بدت لي في أعماقي ابتسامة صفراء، بلهاء:

- بدأت أشكُّ بأنَّك أنت الشَّاعرة... وأنا التِّلميذ.

ضحِكتْ، فنهضت كلُّ الورود الَّتي فوق الأرض من نومها الطَّويل.

(16)

أفقت من الموت، كنت وحيداً كعادتي منذ أن ولدت، وحيداً حتَّى النُّخاع، "أين أنا؟"، "وماذا أفعل هنا؟"، "وكيف أتيت أصلاً إلى هنا؟" تساءلت وأنا أفتح عينيَّ وأحدِّق حولي، حاولت أن أتذكَّر ما جرى معي، الذَّاكرة مشلولة تماماً، وجسدي ينضح بالألم والتَّعب، والدَّوار يتملَّكني، فركت عينيَّ، حاولت أن أرفع رأسي، سحبت جسدي بصعوبة واتَّكأت بظهري إلى جدار، آخر ما استطعت أن أتذكَّره هو ذلك الاجتماع مع الباشا وبيريز، وتلك الإبرة الَّتي غرزوها في ساعدي، فجعلتني أشعر فجأة بالدَّوار، وأغيب عن الوعي.

شيئاً فشيئاً بدأت الذِّاكرة تتفتَّح وتغوص متعبة في الماضي.

كنت وحدي في غرفة غريبة كلُّ جدرانها من المرايا الصُّلبة، حتَّى أرضيَّتها وسقفها كانت مصنوعة من المرايا، وكنت فيها عارياً تماماً كما ولدتني أمِّي.

– أين أنا؟

كلُّ شيء غائر في الوقت، آلاف الصُّور تحيط بي، وتطلُّ عليَّ من كلِّ سنتمتر حولي، رحت أحدِّق إلى الوُجوه، لم يكن ثمَّة من يشبهني فيها.

تحسَّست لحيتي الطَّويلة بكفِّي، تحسَّست شعري، وجسدي: أين الأَهداب الطَّويلة؟ أَين العينان المستديرتان الواسعتان؟ أَين العضلاتُ المفتولة الَّتي كانت ذات يوم تزيِّن جسدي؟

- من هو؟ لا يمكن أن يكون ما حولي كلُّه مرايا، ولا يمكن أن يكون من فيها أنا، فثمَّة تفاوت في الصُّور والملامح، أيُّ خدعة مجنونة تلك الَّتي تُمارس ضدِّي؟ ما الَّذي يريدونه بعد أن تنازلت حتَّى عن اسمي؟

كذب الباشا، كنت أعرف منذ البداية أنَّه لا يمتلك إلاّ وعوداً كاذبة، فلماذا استسلمت له؟

ضربت المرآة بقبضة يدي فلم تهتزّ، صلبة كانت أكثر صلابة من جدران الإسمنت، شعرت بالألم والتَّعاسة، اقتربت منها أكثر، حدَّقت في وجهي أكثر، نظرت إلى عضوي في المرآة ثمَّ نظرت إليه مباشرة، كانت صورته واقعيَّة إلى حدٍّ بعيد، فلماذا لا يبدو وجهي واقعيَّاً أبداً؟

كم مكثت هنا، في هذا القبر المسوَّر بالمرايا فاقداً الوعي؟

هل كنت أمتلك شامة بالفعل هنا، على الجهة اليسرى من عنقي؟

هستيريا الصُّور والواقع، جنون النَّظرات، والمسافات، أين أنا؟ أين الحدود بين الواقع والخيال؟

كم أبعد عن المرآة؟.... خطوة، خطوتان، ثلاث، إذن لماذا يلتصق وجهي في الدَّاخل بالمرآة؟

تمدَّدت على الأرض واستسلمت للنَّوم لعلَّني أنسى، أو لعلَّني أفرُّ من تلك الصُّور الَّتي لاحقتني حتَّى في منامي.

خرجت من خلف المرآة وسرت نحوي ببطء.... وهدوء.

جلست القرفصاء، وضعت كفيَّ على كتفيَّ، لم تكن آثار السَّفر بادية عليَّ، كانت ملابسي بيضاء ناصعة، ووجهي يشبه وجهي، لي شامة على عنقي جهة اليمين، كنت أيمنَ، أبيض، لكنَّني كنت أشبهني إلى حدٍّ بعيد.

- من هذا؟

- هذا سعيد، جاء ليعلِّمكم أسماءكم.

تلاشيت فجأة في الفراغ، الَّذين جاؤوا من كلِّ أصقاع الأرض وقفوا مشدوهين، صامتين لم يحرِّك أحدٌ ساكناً وهو يراني.

قلت: أنا سعيد.

قال الباشا: خذوووووه.

تناولتني الأيدي، ترنَّحت، جرجرت قدميَّ خلفي، أحسست بجسدي ينهار، تقيَّأت، كان البحر أشدَّ زرقة من البحر، والسَّماء سوداء، والأرض سوداء، والسُّفن كانت تغيب خلف الأفق البعيد.

كلُّهم كانوا هناك، الباشا، وكمال، وفريق المحقِّقين، وفريق الأطبَّاء، والموتى، وبيريز وأمِّي، وسامي، وخلود.

صرخت، صعقوني بالكهرباء، أفقت، انتفضت.

قال الباشا: أنت تعرف، هو مجرَّد مجنون، وابتسم الحاضرون، كانت أمِّي تبتسم لبيريز، وبيريز يضحك منتشياً وهو يقول: نجوتُ بأعجوبة من الموت، هذا الملعون كان حين رأيته أوَّل مرَّةٍ يتقن التَّصويب، لكنَّه الآن مات.

كأنَّه كان يحاول أن يعتذر من أمِّي، كان يعرف في سرِّه أنَّني لست مجنوناً، وأنَّني سعيد، لكنَّ الباشا كان يقول مازحاً: هذا مسعود المجنون، ويدخِّن السِّيجار، ويضحك.

من منَّا لم تأكله الحرب؟ ثمَّة من أكلته الحرب فمات، وثمَّة من أكلته الحرب فاستسلم، وثمَّة من أكلته الحرب فصار يتجشَّأ دوداً، ويشرب الويسكي.

سألتها، عدت خصِّيصاً لكي أسألها: كيف أكلته الحرب؟

- دفعة واحدة، مثلما يلتهم الحوت سمكة بحجم كفِّ اليد.

قالت، ونثرت رذاذ بولها فوق النَّار.

من يمكن أن يفلسف الحزن مثل شاعر ولد حزيناً، وعاش حزيناً، وسيموت حزيناً؟

للحزن إيقاع بطيء، تماماً كإيقاع الجنازة العسكريَّة الَّتي يتبعها الجنود، دم دك، دم دك دم دك، دم دك.

بين "الدُّم" والـ "دك" خيط رفيع لا يراه أحد سواي، يربط أوَّل الجنود بآخرهم، ويحسبون أنَّ لهم الحريَّة في اختيار الإيقاع.

كلُّهم، من أوَّل الطَّابور إلى آخره، يردِّدون في أعماقهم ذات الإيقاع بلا وعي: دم دك، دم دك، دم دك، كلُّهم، من أوَّل الطَّابور إلى آخره سائرون بلا وعي ولا هدى إلى مقبرة الشُّهداء، وحده العجوز الَّذي يحمل بين خصيتيه صرَّة سوداء صغيرة صنعتها له امرأة عجوز ما زال مصرَّاً على أن يواصل الزَّواج من طفلة في عامها الخامس عشر، وحده العجوز الَّذي تجاوز عامه التِّسعين كان مصرَّاً على أنَّه قادر على الإنجاب.

كنَّا صغاراً آنذاك، والحرب كانت قد أكلت كلَّ الرِّجال، ولم يعد بوسع النِّساء إلاّ أن يقبلن بمن تبقَّى من العجائز، أو يمارسن العادة السريَّة بعيداً عن عيوننا نحن الأطفال الَّذين كانت عيونهم تخترق الجدران.

كان العجوز مؤمناً بأنَّه قادر على الإنجاب، لكن عيوننا المزروعة خلف النَّوافذ والجدران اكتشفت أن عضوه لا ينتصب أبداً، وأنَّه يحاول جاهداً منذ ثلاثة أعوام أن يجعلها تحمل باستعمال إصبعه الوسطى، يقول لها: هذا أطول أصابعي، وهو مبارك قرأت عليه المعوِّذات الثَّلاث، وآية الكرسي، وما تيسَّر من القرآن.

كانت الحرب قد أكلت كلَّ الرِّجال، ولم يتبقَّ إلاّ هو ونحن الأطفال.... وكانت هي مؤمنة تماماً بأنَّها ستحمل وتلد ذات يوم مثل كلِّ النِّساء.

خرجنا من الجدران، كنَّا صغاراً لكنَّا كنَّا نعرف أنَّ المرأة لا تلد إلاّ إذا أولج العضو في الاست، الأصابع لا تلد أطفالاً، الأعضاء الذكريَّة هي الَّتي تلد، ولكنَّا كنَّا نتساءل أيضاً: لماذا لا يخرج الطِّفل معمَّداً بالخراء حين يخرج من الاست؟!

للحزن إيقاع لا يدركه إلاّ شاعر مثلي، إيقاع أبطأ من إيقاع الموت، وأشدُّ وقعاً على القلب.

دم دك، دم دك، دم دك....

الجدار لا زال مفتوحاً، والولد الَّذي خرج من الاست غارقاً بالدَّم يبكي بحرقة من الخوف أعطوني بيضة مسلوقة وقالوا: هو الَّذي أحضرها لك معه، فتقيَّأت.

الكلب الَّذي لازمني يومئذ طوال النَّهار، وظلَّ يتمسَّح ببنطالي المثقوب من الخلف، ومن عند الرُّكبتين، راح يعدو بين الأشجار مسروراً، تبعته، أمسَكَت به عصابة من الأولاد الأشرار، ادَّعوا أنَّه كان مِلكاً لهم، لكنَّ الكلب ظلَّ يحاول التملُّص منهم والمجيء إليَّ، تركته لهم، قلت: لا بدَّ أنَّه لهم بالفعل، حاولت أن أقنع نفسي بذلك لكي لا أعترف أمامي بأنِّي خائف، وجبان، تخلَّى عن صديقه الكلب بكلِّ تلك السُّهولة.

دلَّيت أذنيَّ وعدت أجرجر أذيال خيبتي، والكلب لا زال يهمهم وينظر نحوي بحزن وكأنَّه لا يصدِّق أنَّني جبان، وأنَّني تركته خلفي!

تقيَّأت.

العجوز تزوَّج أربع فتيات وطلَّق زوجته العجوز لأنَّ الشَّريعة لا تسمح له بالزَّواج من خمس زوجات، كلُّهنَّ فُتحن بأصابع يده، وفي بعض الأحيان كان يستعمل أصابع قدميه إمعاناً في المتعة.

للحزن إيقاع بطيييييء.

دم دك، دم دك، دم دك.

كم أنا هشٌّ أمام المرأة وقابل للانكسار.

منذ أن بدأت أعي الحياة وأنا أشعر بالخوف من المجهول والمعلوم.

- لو قُدِّر لنساء هذا المخيَّم أن يعترفن بالحقيقة لشابت رؤوس الرِّجال.

اختلطت رائحة البول برائحة البخُّور، شيئاً فشيئاً كنت قد بدأت أتعوَّد كلَّ شيء: الرَّائحة، والأطفال الَّذين لا يعرفون في الحقيقة من هم آباؤهم، والعجوز الَّذي بتروا له أصابعه واحداً وراء الآخر من أثر السكَّري، فلم يعد قادراً حتَّى على الوفاء بالوعد ولو بإصبعه، فاضطرَّ إلى استعمال لسانه فقط.

كنت أتساءل ببراءة الأطفال: هل يفي اللِّسان بالوعد؟ وهل يكفي لكي تحمل أربع نساء بأربعة أطفال؟

سألته، فأجاب: ذلك يعود إلى خصوبتها، فإن كانت ذات بيوضٍ متحجِّرة مثل العجوز فلن تكفيها أربعة ألسن، ولكن إن كانت صبيَّة كفاطمة، فيكفيها لسان واحد لكي تنجب، فبيوضها طازجة، خصبة.

لكنَّ فاطمة ماتت كمداً وقهراً بعد ذلك ما اضطُرَّ العجوز إلى البحث عن بديلة لها، بعد أن قذفها بأبشع التُّهم والشَّتائم.

- رجب يعتبر الأب غير الشَّرعي لكثير من أطفال المخيَّم، قالت....

كانوا يعرفون ذلك جميعاً، ويغضُّون النَّظر، خوفاً من الاعتراف بالذَّنب، والقصاص الَّذي يبدأ همساً، وينتهي بالموت.

(17)

لم أفكِّر قطُّ بأنَّ جورجيت قد تكون أكثر من عاهرة تتاجر بالبغاء.

ظننت أنَّنا التقينا مصادفة في أحد البارات، واقتادتني معها إلى بيتها مقابل أن أدفع لها مبلغا من المال الَّذي لم أكن أملك منه شيئا في تلك اللَّيلة.

كنت قلقا بشأن المال، واعتقدت أنَّها ستستشيط غضبا حين تدرك ذلك الأمر، لذا آثرت أن أخبرها كي لا تفاجأ، لكنَّني فوجئت بردَّة فعلها.

أسأل نفسي: هل أنا غبيٌّ أم ذكيٌّ؟ فلا أجد جوابا، أشعر أحيانا أنَّني كتلة ذكاء تشتعل وأحيانا أشعر أنَّني كتلة غباء مطلق، وكأنَّني لا أعرف الوسط أبدا، كأنَّني أذهب إمَّا إلى أقصى اليمين، وإمَّا إلى أقصى اليسار، ولا حلول وسط لديَّ.

اعتذرت منها على سوء تقديري، وتناولت ملابسي ولبستها، وأنا أتساءل: إن لم تكن عاهرة فمن هي، وماذا تريد؟

بدأت أشعر بالتوجُّس والقلق، فبيروت كانت مقسَّمة مثل كعكة الزَّواج إلى ألف قطعة مختلفة الحجم، وأنا حتَّى تلك اللَّحظة لم أكن أعرف أين أنا بالضَّبط، وكيف جئت إلى هذا المكان.

قبَّلت خدَّها وحاولت الخروج فاستوقفتني....

- أنت لا تستطيع أن تتخطَّى هذا الباب.

قالت بحزم لا يخالطه شكٌّ ما جعلني أتجمَّد في مكاني، وأقف مشدوها وقلبي يخفق بقوَّة وأنا أشاهد تلك الجديَّة وذلك الإصرار في عينيها.

- هل ستمنعينني؟
- لست أنا، أنا لا أستطيع منعك.
- من إذن؟
- لا أدري، أنت بعيد عن شاتيلا.

شعرت بالارتباك، خفق قلبي، وتنبَّهت كلُّ حواسِّي، ووقفت أمامها وآلاف الأسئلة تطوف في رأسي كالذُّباب.

- أين؟
- في الحازميَّة، ولو خطوت خطوة خلف هذا الباب لمزَّقوك.

وقفت في مكاني كالمصلوب لا أعرف بماذا أجيب، ولا أعرف إن كانت صادقة أم كاذبة، سرت نحو النَّافذة المسدلة السَّتائر، رفعت السِّتارة بحذر ونظرت إلى الخارج، من أين لي أن أعرف معالم شرق بيروت من غربها، من أين لي أن أعرف أين أنا؟ عدت ورميت بنفسي فوق الأريكة...

- هل أنا سجين؟
- لا.
- ما الَّذي أتى بي إلى هنا، ومن أنت؟
- أنا جورجيت.
- ماذا تريدين منِّي؟
- لا شيء، أريدك أن تبقى فقط على قيد الحياة.
- لماذا؟ ومن الَّذي يهدِّدني؟ ولماذا أنا في الحازميَّة؟ وكيف جئت إلى هنا؟ ومن الَّذي جاء بي؟ وكيف عبرت المعبر؟ وأين أحمد؟ سألت مندفعا وأنا أشعر بالحنق، والقلق.

كزَّت على أسنانها.

- هل تعرف ذلك الشَّاب منذ زمن طويل؟
- لا.
- باعك....

ضَحِكتُ بتكلُّف وشعور بالخوف يتملَّكُني، ونفثت دخان سيجارتي في الهواء بعصبيَّة وأنا أحاول أن أخفي ارتباكي.

- باعني؟ سألت مدهوشاً، وأضفت:
- لمن؟
- "لإسرائيل".
- ولماذا ستهتمُّ بي "إسرائيل"؟ من أنا حتَّى يشتروني؟
- أنت تعرف مكان اللفافات.

سادت لحظات صمت طويلة وأنا أحدِّق إليها مصدوماً.... أَطفأتُ سيجارة وأَشعلت أُخرى.

- أيَّة لفافات؟ سألت وأنا أدَّعي الاستغراب، وقلبي يخفق، والمفاجأة تكاد تعقد لساني، وتجمِّدني في مقعدي.
- أنت تعرف.
- لا أعرف.
- بل تعرف...
- أعرف ماذا؟
- مكان اللفافات.
- لا أعرف عن ماذا تتحدَّثين، صدِّقيني، ولا أعرف ماذا تعني تلك اللّفائف.
- تستطيع الإنكار أمامي، لكنَّهم لن يتركوك....

طأطأت رأسي ورحت أفكِّر، وأسال، ولا أجد أيَّة إجابة شافية لأيِّ سؤال.

كيف يمكن أن أخرج من هذا المأزق الكبير؟ انقلب كلُّ شيء دفعة واحدة، وبات الجوُّ مشحوناً بالقلق والتوتُّر.

- وماذا تريدين أنت؟ ما هو دورك في الموضوع؟
- أن أحميك.
- مقابل ماذا؟
- لا شيء أيُّها المَجنون، فقط لأنِّي أُحِبُّك... قالت وهي تحاول أن تضع كفَّها على عنقي، فأبعدتها.

ضحكت باستهزاء في سرِّي... وتساءلت: كيف يمكن لها أن تعتقد أنِّي مغفَّل إلى هذا الحدِّ؟ لا بدَّ أنَّها ساذجة...

- كيف بوسعي الخروج من هنا؟
- أستطيع أن أتدبَّر الأمر، لكنَّ ذلك سيستغرق بعض الوقت.

تساءلت: كيف استطاعوا أن يعرفوا عن علاقتي باللفافات؟ هل قبضوا على حليم؟ هل اعترف بمكانها؟ إن كانوا قد قبضوا عليه فلماذا يبحثون عنِّي؟ هل وشى بي؟ هل كان ثمَّة من يسترق السَّمع ونحن نتحدَّث في الموضوع؟ كيف؟ أكاد أجنُّ.

أنكرت أمامها تماما معرفتي باللفافات، مع أنَّني كنت أعرف أنَّ إنكاري ذاك مجرَّد عبث فقد بدا أنَّها واثقة ممَّا تقول.

أعدَّت القهوة، ما عاد لديَّ شهيَّة لشرب شيء.

- كيف عرفتِ بالأمر؟
- أيُّ أمر؟
- أن أحمد باعني للإسرائيليِّين.

- شقيقي ضابط في "القوَّات" ويتعامل مع الموساد، كنت أتنصَّت عليه، لكنِّي لست مثله...
- وكيف أدخلتني إلى هنا؟
- بطريقتي...

وضعت ساقا على ساق فكشفت عن فخذيها الأبيضين، سحبت نفسا عميقا وراحت تنفث الدُّخان في الهواء وتلاحقه بعينيها، بدت ملامحها مختلفة عمَّا كانت عليه منذ قليل.

- أين هي؟
- ما هي؟
- اللفافات.
- أيَّة لفافات؟ صدِّقيني لا أعرف عمَّا تتكلَّمين.
- سنبيعها ونفرُّ معاً إلى أيِّ مكان في العالم، بعيداً عن هذا الجحيم، أنا أعرف مشترياً يمكن أن يدفع فيها ثلاثة ملايين دولار على الأقلّ.
- لماذا لا تصدِّقين أنَّني لا أعرف شيئاً عن تلك المخطوطات الَّتي تتحدَّثين عنها؟
- لأنَّك تعرف مكانها؟
- من أينَ لك كلُّ هذه الثِّقة؟ ربَّما أخطأتم بالشَّخص!
- قد أخطئ أنا، لكنَّهم لا يخطئون، أنا أعرفهم، صدِّقني أريد فقط أن أعرفَ كي أحميك... صدِّقني... سيقتلونك.
- لا أدري... ربَّما هناك خطأ ما.

أدركت أنَّنا بتنا نلعب لعبة القطِّ والفأر، لماذا لا ينفتح الباب الآن وتدخل مجموعة من الرِّجال، ويقتادونني إلى حيث لست أدري، ويبدؤون بالتَّحقيق معي، وبتعذيبي؟

تجوَّلت بعينيَّ في أرجاء البيت محاولاً أن أكتشف إن كان هناك كاميرات مراقبة مزروعة فيه أو ميكروفونات، لم أعثر على شيء...

كان بوسعي أن أخرج، ولكن إلى أين؟.... ربَّما وقعت في المصيدة كالفأر، وعليَّ انتظار معجزة تخلِّصني.

لم أكن أملكُ سوى المراوغة والانتظار، مع أَنِّي في الحقيقة كنت قد فقدت الأَمل تماماً بعد أَن عرفت أَنَّني في الحازميَّة.

* * *

فيما بعد، عرفت كلَّ ما جرى بالتَّفصيل.

عاد خليل من دمشق في الصَّباح، وحين علم أنِّي لم أعد من بيروت جنَّ جنونه، اتَّصل عبر اللاَّسلكي بموقع شاتيلا، وبعد ساعتين علم بكلِّ ما جرى بيني وبين ليلى.

ذهب هو وميشيل إلى بيت أمِّ أحمد الَّتي راحت تبكي، وتعتذر، وقالت إنَّها لم تكن تتوقَّع أن تصل الأمور إلى هذا الحدِّ.

أحمد كان غائباً، وليلى كانت طريحة الفراش.

خطر لخليل أن يسأل الجيران، فأكَّد له بعض الأطفال أنَّهم رأوني وأنا أصعد في سيَّارة أحمد الزَّرقاء فأدرك لحظتها أنَّ غيابي مرتبطٌ بغياب أحمد.

عادا إلى مقرِّ التَّنظيم، وبدأت رحلة البحث المضنية عنِّي وعن أحمد.

لم يبق ثمَّة بيت أو زقاق أو شارع في أيِّ مخيَّم إلاّ وبحثوا عنَّا فيه، كان أحمد قد اختفى تماماً، وكأنَّ الأرض قد انشقَّت وابتلعته، وكانت نتيجة البحث في منزله قد أسفرت عن العثور على ثلاثة جوازات سفر مزيَّفة، وعشرة آلاف دولار أمريكي، وبعض قصاصات الورق المحترقة الَّتي لم يتبقَّ منها شيءٌ مفيد.

اتَّفقـوا ليلتهـا علـى أن يراقبـوا البيـت ومـداخل المخيَّمـات وجميـع الأماكن الَّتي كان يرتادها في بيروت، وضعوا كمائن في كلِّ شارع وزقاق، وبدؤوا بالتَّقصي من خلال التَّنظيمات والأحزاب الأخرى.

مضت ساعات طويلة ثقيلة قبل أن يخشخش جهاز اللاَّسلكي في الثالثة صباحاً فوق رأس خليل وهو نائم، ويسمع الخبر الَّذي كان ينتظره على أحرِّ من الجمر: قبضنا عليه....

- وسعيد؟

- لم نجده.

أمسكوا به وهو يحاول التَسلُّل إلى البيت، أمرهم أن ينقلوه تحت حراسة مشدَّدة إلى جلالا ثمَّ أيقظ ميشيل من النَّوم، وطلب منه أن يرتدي حذاءه، وانطلقا في الظُّلمة إلى البقاع.

أمرهم خليل أن يعودوا أدراجهم إلى بيروت، وبقي مع ميشيل، بعد أن طلب من الرِّفاق مغادرة الغرفة، كان وجه أحمد مليئاً بالدَّم والخوف والذُّهول.

ناول أَحد المقاتلين قبل أَن يخرج خليلاً حقيبة جلديَّة صغيرة قائلاً:

- فيها مائة أَلف دولار، كانت معه.

تناولها خليل شاكراً وقلَّب ما فيها ثمَّ ناولها لميشيل، سحب كرسيَّاً وجلس قبالته تماماً، ناوله منديلاً ليضعه على شفته السُّفلى الَّتي كانت تنزُّ دماً من أثر الضَّرب والتَّعذيب، وقف ميشيل متَّكئاً على الباب الحديديِّ يراقب المشهد.

- أين سعيد؟ سأل خليل، فهزَّ أحمد رأسه.

- لا أدري....

غطَّى أحمد وجهه بكفِّه، ثم مسح الدَّم المتدفِّق من شفته.

- فتح لن تغفر لكم هذا.

- فتح بريئة منك، أجاب خليل.... ثمَّ أضاف:
- لن تخرج من هنا قبل أن تخبرنا بمكان سعيد.
- لا أدري، أقسم إنَّني لا أدري.

راح يروي لهم ما جرى في البيت بينه وبيني، ثمَّ كيف انتفضت ليلى وصرخت ورفضت الزَّواج، ثمَّ ما قالته أمُّه لي، وكيف خرجتُ غاضباً، وكيف لحق هو بي لكي يواسيني، ثمَّ أخبرهم بأنَّني ركبت عربة أجرة وعدت إلى عيتات بعد أن شربنا معاً زجاجتين من البيرة....

- كان متضايقاً وخرج، ربَّما تجدونه عند أحد أصدقائه... أو....

أخرج خليل جوازات السَّفر ورزمة الدُّولارات من جيبه، ومدَّها أمام عينيه...

- هل هذه لك؟
- ....
- من أين لك بكلِّ هذه الدُّولارات؟ قال مشيراً إلى الحقيبة.
- ....
- من أين حصلت على هذه الجوازات؟
- ....
- ألا تريد أن تقول؟
- ....
- نحن لسنا على عجلة من أمرنا....

رمى إليه بسيجارة وهو يخرج.

- آمل أن يكون لديك ولاّعة لإشعالها.

ابتسم له وكأنَّه يمعن في إغاظته، تأبَّط ذراع ميشيل، وخرجا وأقفلا الباب بعناية، وأمر خليل اثنين من الرِّفاق بملازمة الغرفة وحراسته على مدار اللَّحظة.

جلسوا يشربون القهوة ويدخّنون:

خليل، وميشيل، وأبو زهدي مسؤول موقع جلالة، وعودة المسؤول الأمني للموقع الَّذي كان قد عاد من سوريا للتوّ بعد أن أرسلوا في طلبه.

حاولوا أن يتوقَّعوا ما الَّذي يخفيه أحمد، وأين ذهب بي، حاولوا أن يضعوا كلَّ الاحتمالات الممكنة واللاّ ممكنة، كان السُّؤال الَّذي يدور في أَذهان الجميع:

- لماذا سعيد بالذَّات؟

كان خليل يعتقد لحظتئذٍ أنَّني قد عرفت عن أحمد سرَّاً ما، وأنَّه تخلَّص منِّي قبل أن يُكتشف.

ظلُّوا منشغلين حتَّى المساء، لم يزره أحد، ولم يطرح عليه أحدٌ سؤالاً واحداً، تركوه دون طعام، ودون ماء، قضى السَّاعات الطَّويلة قلقاً يدور في أنحاء الغرفة مثل كلب مسعور، هدَّه التَّعب، نام، أفاق، بكى.... لا بدَّ أنَّه ظلَّ يتأمَّل السِّيجارة الَّتي أعطاها له خليل، فركها مراراً وتكراراً بين أصابعه، صرخ طالباً ولاّعة ليشعلها، طلب طعاماً، طلب ماء، أهملوه، لم يجبه أحد حتَّى أحسَّ أنَّه وحيد في ذلك المكان، طرق الجدران، طرق الباب بقبضتيه، انهار، قدماه ما عادتا قادرتين على حمله، سقط على الأرض، كانت أمُّه وحدها آنذاك هي القادرة على تخليصه ممَّا هو فيه، لو أنَّها عرفت بما جرى لهرعت إلى أرفع مسؤول وبكت أمامه، ولم تفارق قدميه إلاّ حين يأمر بالإفراج عنه، كما كانت تفعل من قبل، وكنت سأذهب بعد ذلك هباءً مع الرِّيح.

حين أصبحت الدُّنيا بنظره أضيق من ثقب الباب عاد خليل ومعه بقيَّة الرِّفاق.

كان آنذاك قد بدأ بشدِّ ملابسه، وشعره، وأنشب أظافره في جلده ومزَّقه لعلَّه يتغلَّب على ذلك الألم الَّذي راح ينهش جسده ويخزه مثل الدَّبابيس.

جلس خليل أمامه مباشرة...

- الآن سنعود إلى الحديث من حيث انتهينا، قال.

رفع أحمد بصره إليه، وتجمَّد في مكانه، كان قد بدأ يتبوَّل في بنطاله.

- دعنا نتحدَّث وستحصل على كلِّ ما تريد.

قال له وهو يلوِّح في الهواء بالحقنة الَّتي أخرجها من جيبه، اندفع أحمد من مكانه وكأنَّ قوَّة هائلة قذفته، حاول أن يمسك بالحقنة لكنَّ خليلاً كان أسرع منه، أزاح يده بينما دفعه عودة فسقط على الأرض وهو يتلوَّى، ويبكي، ويصرخ بأعلى صوته، ويتوسَّل.

- هل نبدأ الحديث؟ سأل خليل بهدوء.
- لقد قلت.. لك... كلَّ ما أعرفه.... أقسم بالله، لماذا لا تصدِّقني؟
- طيِّب، حين تقرِّر الاعتراف سأكون في الجوار، قال خليل وهو ينهض من مكانه ويغادر الغرفة، ارتفعت كفَّا أحمد في الهواء وهما ترتجفان.
- أعطني الحقنة وسأقول لك كلَّ ما تريد.
- قل، وأعدك أن أعطيك كلَّ ما تريد.
- ما الَّذي تريد أن تعرفه؟
- أين سعيد؟
- سلَّمته "للقوَّات".
- لماذا؟.... ما الَّذي تريده "القوَّات" من سعيد؟
- لا أدري....
- عدت للكذب....
- صدِّقني إنني لا أدري.

أخفى الحقنة في جيبه وهمَّ بالخروج، عاد أحمد يلاحقه بكفَّيه المرتجفتين من جديد...

- سعيد يعرف مكان لفافات قمران.
- لفافات من؟
- قمران...
- قمران؟
- نعم...

نظر مذهولاً إلى ميشيل، ثمَّ إلى عودة، وكأنَّه يسألهما إن كان أحد منهما قد سمع بتلك الكلمة من قبل.

- ماذا في تلك اللفافات؟
- لا أعرف...
- ومن أين يعرف سعيد مكانها؟
- لا أعرف، كلُّ القصَّة بدأت مصادفة، سألني رجل من القوَّات عن شخص اسمه سعيد إن كنت أعرفه، لم يكن يعرف عنه شيئاً سوى اسمه الَّذي وجده منقوشاً على رصاصة وجدت في جيب أحد المقاتلين، كنت أعرف أنَّ سعيداً مهتمٌّ بهذا الموضوع من تلك الكتب الَّتي كان يشتريها من بيروت، والَّتي تتحدَّث عن اللفافات، وحين أراني كتابا مهدى لشخص لا أذكر اسمه، أدركت أنَّه المطلوب، فأنا أعرف خطَّ يده، قايضتهم عليه، وقبضت الثَّمن، بعد أن عرفت أنَّهم يبحثون عن اللفافات، وعرفت أنَّها مهمَّة جدًّا بالنِّسبة لهم، كنت أريد فقط أن أُعيل أمِّي وأختي، أنت تعرف الظُّروف....
- وأين أخذوه منك؟
- في الحمرا، في بار في الحمرا... اسمه... سافا...

- أين نقلوه؟
- لا أدري..... لا أدري انتهت مهمَّتي فور أن خرج مع إحدى الفتيات..

ألقى عليه عشرات الأسئلة الأخرى محاولاً أن يمسك بطرف الخيط الَّذي يمكن أن يقوده لي، الشَّخص الَّذي كان صلة الوصل ما بين القوَّات وأحمد، والَّذي يعمل في البار كان هو المدخل الأوَّل، بالإضافة إلى جورجيت الَّتي صاروا يعرفون أوصافها بدقَّة.

مدَّ يديه في الهواء حين أدرك من لهجة خليل أنَّ الاستجواب قد انتهى، رمى له خليل بالحقنة فتلقَّفها بيدين مرتجفتين وراح يحقن المخدِّر في وريده، لحظات وأصيب بهدوء غريب وكأنَّه بات رجلاً آخر، تمدَّد على الأرض وتنفَّس بعمق، وغاب بعيداً... بعيداً إلى حيث لا يدري أحد منهم.

خرجوا وأغلقوا الباب عليه، أمر له خليل بطعام وماء وعلبة سجائر وهو يدير محرِّك سيَّارة اللاَّندروفر، ويوصي عودة بتشديد الحراسة عليه.

حين وصلوا عيناب كانت غرفة أبي رمزي جاهزة للاجتماع، راح خليل يسرد كلَّ ما جرى مع أحمد، أطرق أبو رمزي مفكِّراً، علَّق سلطان قائلاً وهو لا يخفي دهشته:

- هذا موضوع أكبر ممَّا توقَّعنا بكثير، لا بدَّ من إبلاغ الأمين العامِّ والمكتب السِّياسيِّ لاتِّخاذ الإجراءات اللاَّزمة.

وافق أبو رمزي على الاقتراح، لكن ميشيل علَّق قائلاً إنَّ الانتظار ليس بمصلحة أحد، فوافقه أبو رمزي الرأي، وأخبره أنَّ إبلاغ المكتب السِّياسيِّ لا يعني الانتظار، فعليهم ألاَّ يخرجوا من ذلك الاجتماع حتَّى يضعوا خطَّة محكمة لتخليصي والحصول على اللفافات قبل أن أسقط وأعترف بمكانها.

* * *

كان على ميشيل أن يجري مجموعة هائلة من الاتِّصالات قبل عبوره المتحف إلى شرق بيروت، ودَّعه خليل على حاجز البربير بعد أن ذكَّره بكلِّ ما عليه فعله مرَّة ثانية، وعاد إلى شاتيلا.

للمرَّة الأولى يشعر ميشيل بالخوف والرَّهبة بتلك الطَّريقة. هو الآن سيلعب وحيدا بعيدا عن كلِّ سند، في ملعب الأعداء، مسقط رأسه،

هم من اختاروا المتحف مكاناً لعبوره، سار عبر السَّواتر الرَّمليَّة العالية منقبض القلب، كئيباً، متوتِّراً، مترقِّباً، وهو يدرك أنَّ ثمَّة من يراقب السيَّارة من مكان لا يراه، وقد يطلق عليه النَّار في أيَّة لحظة.

حتَّى أولئك الَّذين قبلوا بالتَّعاون معه وإيصاله لي قد يبيعونه في أيَّة لحظة، فهم ليسوا أكثر من تجَّار يعملون مع من يدفع أكثر، كان يعرف تماماً أنَّ الوقوع يعني الموت، لكنَّه - كما قال لي فيما بعد - كان يعتقد أنَّ المسألة أكبر من موته.

ظلَّ يتساءل طوال الطَّريق:

ما الَّذي تخفيه اللفافات؟ وكيف عرفتُ أنا بمكانها، وكيف عرف حليم بمكانها؟ ولماذا أخبرني أنا بالذَّات من دون الجميع؟

الخوف غريزة ذات حدَّين، فمن جهة يجعلك تشحذ أقصى طاقاتك لمواجهة خصمك بأفضل ما تملك، ومن جهة قد يجعلك تنهار إذا ما زاد عن حدِّه، فتسقط.

من ذا الَّذي يستطيع أن يضع خطَّاً فاصلا بين الحدَّين؟

كان في كلِّ لحظة طوال الطَّريق يتحسَّس هُويَّته في جيبه، لأنَّ الهويَّة كانت آنذاك هي الملاذ، وهي الحياة.

كنت أعرف من قبل أنَّه يعشق فتاة اسمها سوسن، حدَّثني عنها طويلا في ليالي الشِّتاء وقال إنَّه ينتظر نهاية الحرب كي يتزوَّج منها، ويسافر معها إلى باريس ليقضيا شهر العسل هناك.

قال إنَّه سيثبت لها ذات يوم أنَّه يحبُّها، لأنَّ الدَّليل الوحيد على الحبِّ لدى المرأة العربيَّة هو الزَّواج!

سينسى الدَّم والموت ويسافر، سينسى الماضي المتَّشح بلون السَّواد، ويسافر، سيتزوَّج، وينجب غسّان الَّذي حلم به طوال حياته، والَّذي سيحمل اسمه بعد مماته، سيسمِّيه غسّان، تيمُّناً بغسّان كنفاني الَّذي كان أوَّل من جعله يفتح عينيه على الدُّنيا، ويفهم ما يدور فيها، غسّان كنفاني الَّذي مات مقتولاً أمام عينيه في الحازميَّة حين كان لا يعي معنى الحياة، ومعنى الموت.

كم مرَّة روى لي ما جرى بالتَّفصيل وهو يكاد يبكي.

الحوادث الكبيرة تحفر تفاصيلها في الذَّاكرة كأنَّما أظافر ما تحفرها في الصَّخر، الحوادث الكبيرة لا تنسى، ولا تزول من الذَّاكرة أبداً.

في ذلك الصَّباح حين ودَّعته أمُّه عند الباب، وهو يهمُّ بالخروج مع والده، كان مقدَّراً لهما أن يموتا مع غسّان، أن ينفجرا بذات العبوة النَّاسفة الَّتي فجَّرت غسّان مع لميس.

كم داعبه في الصَّباح وهو خارج إلى المدرسة، كم ابتسم له، كم مسَّد على رأسه، كم سأله عن جدول الضَّرب، ومسائل في الحساب؟

من كان يظنُّ أنَّ الطِّفل المتميِّز في الحساب سيمسي ذات يوم مقاتلاً وينسى الحساب؟ لولا أنَّ والده توقَّف مع أُمِّه أَمام الباب لحظات لانفجر هو وأَبوه مع غسّان، لأَنَّ سيَّارة أَبيه كانت مصطفَّة أَمام سيَّارة غسَّان تماماً، وانفجرت هي الأُخرى مع سيَّارة غسَّان.

كيف ترتِّب الحياةُ نفسها؟ القدر هو القدر، معك أو ضدَّك، القدر هو القدر، كان مقدَّراً له أن يعيش لكي يرى السيَّارة وهي تنفجر، وهي تتطاير في السَّماء، وجسد غسّان، ولميس معها ينفجران.

يومئذ فقط أدرك أنَّ الرَّجل الَّذي كان يداعبه في الصَّباح هو رجل مهمٌّ، وأنَّ الدُّنيا كلُّها تعرفه، يومئذ فقط عرف أنَّ الرَّجل الَّذي مات هو كاتب معروف، وانكبَّ بعدئذٍ على قراءة كلِّ ما كتب قبل أن يتجاوز العاشرة، وبكى، بكى كثيراً وهو يتهجَّى الحروف، ويسأل أباه أن يشرح له الكثير من القضايا الَّتي كانت تخفى عليه، لأنَّه كان في كلِّ لحظة يتخيَّله وهو يتطاير في السَّماء.

كان يعرف أنَّ مصيره أصبح محتوماً، كان يعرف أنَّ قدره قد خُطَّ من ألفه إلى يائه، وأنَّ كلَّ شيء فيه بات واضحاً كالشَّمس.

مسح الدَّمعة الَّتي خاف أن تفضحه حين عبرت السيَّارة حاجز المتحف.

الآن سيدخل بيروت أخرى، بيروته الَّتي نسيها منذ زمن طويل.

سار بضع مئات من الأمتار قبل أن يهبط من السَّماء حاجز للقوَّات ويستوقفه، ابتلع لعابه بصعوبة، تلفَّت حوله، ابتسم له الجنديُّ الَّذي طلب هويَّته وراح يتأمَّله ببطء وهدوء، سأله السُّؤال الَّذي أَثلج صدره، وجعله يتنفَّس الصُّعداء:

- إلى أين؟
- إلى الحازميَّة، أجاب.
- هل نسيت شيئاً؟
- نسيت أَزرار قميصي....
- أَزرار قميصك معنا، اتبعنا....

أدار محرَّك السيَّارة وسار خلفهم، تلك كانت كلمة السرِّ الَّتي اتَّفقوا عليها، مرَّوا عبر جسر الواطي إلى سنِّ الفيل، توقَّفوا دقائق على حاجز للقوَّات وقلبه يخفق، تحدَّث الرَّجل الجالس إلى جانب السَّائق مع الجنديِّ دقيقة فسمحوا لهم بالعبور، تنفَّس بعمق، حاول أن يبدو هادئاً، تلفَّت

حوله وترك عينيه تعانقان المكان الَّذي تركه ذات يوم طائعاً، أو مكرهاً، لا يدري، أطلق الرَّجل الَّذي يسير أَمامه لعربته العنان فتبعه بنفس السُّرعة، سار قاطعاً دوار المكلِّس نزولاً نحو جسر الباشا، وما هي إلا دقائق حتَّى خفق قلبه من جديد وهو يصعد إلى الحازميَّة.

أيُّ جنون ذاك... أن تكون أمُّه على بعد خطوات منه ولا يراها؟

توقَّفت العربة في منتصف الطَّريق الصَّاعد نحو الكليَّة الحربيَّة فتوقَّف خلفها، ترجَّل منها الرَّجلان فترجَّل خلفهما، أشار أحدهما إلى بيت مهدَّم مجاور للمجلس الشيعيِّ الأَعلى...

- سننتظر هنا ساعتين...

ابتسم لهما...

- ما دام لدينا القليل من الوقت أنا أفضِّل أن أَذهب لرؤية أُمِّي قليلاً... البيت قريب...

قال وهو يشير إلى الأعلى...

- لا مانع قال الرَّجل الآخر على أن تكون في المكان المحدَّد على الموعد، هل تعرفه؟

هزَّ رأسه مبتسماً...

- أَنا ابن الحازميَّة... ولدت هنا....

صافحهما وصعد إلى سيَّارته وسار بهدوء وترقُّب.

لم تصدِّق أمُّه أنَّها تراه، كبر قليلاً، شارباه أصبحا عريضين يشبهان شاربَيْ غسّان، ذقنه قد خالطها الشَّيب على الرُّغم من صغر سنِّه.

ضمّته إلى صدرها، اعتصرته، بكت على صدره، تركته، عادت تضمُّه من جديد، لم تقو على الكلام، المفاجأة عقدت لسانها، أصبح رجلاً أكثر ممَّا توقَّعت بكثير، صار بوسعها أن تضع رأسها على صدر رجل بعد موت أبيه.

كم اشتاقت إليه! كم بكت غيابه، كم خافت عليه! قادته من كفِّه إلى الدَّاخل، البيت صار أصغر بقليل ممَّا كان يتخيَّل، البيت مختلف قليلاً، الأثاث تغيَّر ترتيبه، عامان تفصل بينهما الحواجز، عامان وهما على مرمى حجر من بعضهما البعض، وهو خائف من الحضور، مشغول عن الحضور، وهي تنتظر، وتبكي....

كم هو قاس ومجنون!

احتضنها من جديد، هرمت في عامين، اختلفت في عامين، كبرت عشرة أعوام أو عشرين في عامين...

أعدَّت له الماء السَّاخن فاغتسل، وحلق ذقنه، ثمَّ تناول معها الطَّعام.

شقيقته الوحيدة أمل غادرت إلى أمريكا بعد خروجه بأشهر، وبقيت أمُّه وحدها بانتظار عودة الغائبين، كم توسَّل إليها أن تخرج إلى غرب بيروت، لكنَّها رفضت، قالت له إنها لن تغادر بيتها إلاّ إلى المقبرة، فالَّذين يغادرون بيوتهم يرتكبون إثماً فاحشاً لا يغتفر، ورائحة أبيه لأحبُّ إليها من قصور الدُّنيا جميعها، مخلصة كانت ولا تزال.....

ربَّت على كتفها، عانقها، وضع اللُّقمة في فمها، ثمَّ أتبعها بأخرى.

- أنا سعيدة لأنَّك تذكَّرتني بعد كلِّ هذا الغياب.... ابتسمت....

لو قُدِّر لها أن تعرف بأنَّه لم يتذكَّرها، ولم يأت من أجلها ماذا كانت ستفعل؟ لو قُدِّر لها أن تعرف بأنَّه جاء في مهمَّة قد تكلِّفه حياته وحياتها معه ماذا ستفعل؟ كان يعرف أنَّ الفشل يعني الموت ولا شيء غير الموت، فهو الآن يقف على حدِّ السكِّين.

تناول طعامه واستأذنها بالخروج، أصيبت بالدَّهشة، لم تره بعد، لم تشبع عيناها من رؤيتِهِ بعد، قال لها إنَّه سيزور أصدقاءه وسيحاول أَن يعود.

الوقتُ كان يجري، وكم يمكن لي أن أصمد في التَّعذيب؟ هكذا كان يتساءل وهو ينظر إلى ساعة يده، دون أن يدري أنِّي كنت آنذاك غارقا في القلق بعد ليلة طويلة من حبٍّ مبتور، أفكِّر كيف يمكن لي أن أخرج من ذلك المأزق، وأنتظر.

كان بودِّه لو استطاع رؤية سوسن، لكنَّه كان يعرف أنَّ الوقت ضيِّق لذا وعد نفسه بالعودة بعد أيَّام، سار صاعداً باتِّجاه المدرسة الحربيَّة، انعطف باتِّجاه كنيسة مار تقلا، وأمام إحدى الدَّكاكين توقّف، تلفَّت حوله ودخل، قلَّب بين يديه بعض البَضائع، ثمَّ تناول زجاجة مشروب غازيٍّ، وحدّق إلى البائع وألقى بكلمة السرِّ، فأجابه البائع بالجواب المتَّفق عليه.

"كلُّ شيء يسير على ما يرام".... فكَّر....

أمره البائع أن يتبعه ففعل، فتح باباً ودلف إلى داخل غرفة خلفيَّة مظلمة فدلف ميشيل خلفه، بالكاد كان يرى الوجوه في الدَّاخل، كان يشعر في أعماقه بالخوف، لكنَّه كان قد تعلَّم كيف يسيطر على نفسه، ويردع خوفه، ويظهر بمظهر مختلف عمَّا يجول في أعماقه.

استقبله ذات الرَّجلين ومعهما رجلان آخران بكامل عتادهم وأسلحتهم، تركهم البائع وعاد أدراجه إلى الدُّكَّان.

صافحهم ودسَّ جسده بينهم فوق إحدى الأرائك، نظر أحدهم إلى ميناء ساعته المضيء وهمس في أذن ميشيل بصوت مسموع للجميع:

- بعد خمس دقائق سيتمُّ استلام نصف المبلغ، وبعدها بدقيقتين سنتحرَّك.
- هل هو قريب؟
- لو طاوعنا رفيقك ودفع ما نريد، لأحضرناه لكم إلى الجبل، بدون أن تتكلَّفوا عناء المجيء، أنت تعرف، نحن كلمتنا من ذهب...

لم يكن أحد منهم يعرف أنَّ خليلاً لم يكن يملك النِّصف الآخر الَّذي طلبوه، وأنَّه لو أراد أن يدفع لهم ما يريدونه لكان عليه أن ينتظر أسابيع لأخذ موافقة اللَّجنة المركزيَّة أو المكتب السِّياسي على المبلغ، لذا لم يجد أمامه طريقة سوى أن يعيد المقايضة على المئة ألف دولار الَّتي استولى عليها من أحمد.

فاوضهم طويلا قبل أن يوافقوا على ذلك المبلغ، كانوا يعرفون بالقصَّة كلِّها، ويعرفون أنّي بتُّ أُساوي كثيراً بعد موت زياد وحليم!

ظلُّوا على اتِّصال عبر اللاَّسلكي مع رفيقهم حتَّى أكَّد لهم بأنَّه قد استلم نصف المبلغ بالدُّولار الأمريكي، آنذاك فقط، اتَّصل أحدهم بشخص ما، وما هي إلاّ دقيقة واحدة حتَّى أمروا ميشيل بالنُّهوض وارتداء ملابس أعطوها له، تبيَّن له حين خرج إلى النُّور أنَّها ملابس "القوّات" العسكريَّة، كانوا جميعاً يرتدون ذات الملابس، صعدوا إلى العربة مسرعين، وانطلقت العربة بهدوء وسارت نزولاً باتِّجاه مبنى الصيَّاد، اصطفَّت أمام إحدى البنايات الَّتي طالتها القذائف وهدمت معظمها، فترجَّل الجميع.

لم يكن يعرف بأنَّه قريب منِّي إلى هذا الحدِّ، كانوا محترفين، وكأنَّ تلك كانت مهنتهم، لم يكلِّمه أحد، لم يجبه عن أسئلته أحد، ساروا واحداً وراء الآخر بينما بقي السَّائق في العربة الَّتي ظلَّ محرِّكها دائراً.

صعد خلفهم، أحسَّ بأطرافه ترتجف، ما الَّذي تخفيه تلك الجدران خلفها؟ هل تخفي سعيداً أم تخفي مفاجأة له ليست بالحسبان؟ هكذا كان يتساءل وهم يصعدون الدَّرج إلى الأعلى، أطلقوا النَّار على رجلين كانا يقفان عند الباب من مسدَّس مزوَّد بكاتم صوت، ثم قرع أحدهم الجرس ووقف ينتظر، وبدا أنَّه تعمَّد أن يعرض وجهه وطاقيَّته العسكريَّة، مرَّت لحظات قاسية طويلة أحسَّها ميشيل بطول الدَّهر كلِّه قبل أن يسمع

همساً من خلف الباب، ويرى العين السحريَّة للباب تظلم، أشهر الرَّجل فجأة مسدَّسه، وما إن فُتح البابُ حتَّى أطلق رصاصة على رأسها.

لم أصدِّق ما جرى، عيناها الطَّافحتان بالحزن والتوسُّل والموت جعلتاني أفقد صوابي وأتوقَّف في مكاني وقد تجمَّدت قدماي بانتظار مصيري.

مدَّت كفَّها نحوي وهي تحدِّق إليَّ، ثم ارتخت دفعة واحدة وسلَّمت الرُّوح.

اعتقدت أنَّهم سيسوقونني معهم أسيراً، وكم فوجئت بوجه ميشيل، وهو يطلُّ خلفهم، كان آخر وجه توقَّعت لحظتها أن أراه.

رميت بنفسي على صدره فأخذني بين ذراعيه.

- ماذا جرى؟

- ستفهم فيما بعد، أسرع...

أشار لي أحد الرِّجال بارتداء الملابس الَّتي رماها نحوي على عجل.

- أسرع....

ارتديت الملابس العسكريَّة، وناولني ميشيل بطاقة عسكريَّة "للقوَّات" اللبنانيَّة تحمل صورتي واسمي، وخرجنا جميعاً مسرعين، بعد أن أوصوني بألاّ أتكلَّم طوال الطَّريق كي لا تفضحني لهجتي، ولم يتركونا إلا بعد أن عبرنا المتحف إلى غرب بيروت.

(18)

هي ليست بريئة تماماً من دمي كالذِّئب، وروما لم تكن إلاّ محطَّة استراحة من دم يوسف الصدِّيق!

قال الملك: ائتوني به أستخلصه لنفسي، عزيزاً على بني إسرائيل.

لكنَّ الأرض كانت صفراء، ولم أر في المنام غير سنبلة يابسة تعانق عنان السَّماء، والأرض بين يديْ إبراهيم صحراء، جرداء، جرداء، جرداء، وإسماعيل بين قدميه يموت، وتساءلت: كيف يمكن لنبيٍّ أن يترك زوجته وطفله الوحيد في الصَّحراء للموت؟ أيَّةُ قسوة تلك، وأيَّةُ نبوَّة يا إبراهيم!

والَّذين ساروا خلف المسيح فوق الماء تاهوا، هو قدرهم فوق الماء، أو قدر الماء تحت أقدامهم.

كنت أحلم بوحيد، والدَّم الَّذي رأيته يتدفَّق من جسده كالشلاَّل، وكان عليَّ أن أقبل بموته مثلما قبلت من قبل بموت الآخرين.

بدت الأمور كأنَّها تسير بمنطقيَّة حسب قانون الكون، اجتزنا الزَّوارق "الإسرائيليَّة" الَّتي كانت تمشِّط الشَّواطئ بسلام، هبطنا من زوارقنا في منطقة مظلمة قصيَّة وبدأنا نتسلَّل بهدوء نحو نادي الضبَّاط، انقسمنا إلى مجموعتين، مجموعة كان عليها أن تتسلَّل إلى بناية عالية مقابلة لنادي الضبَّاط لخطف إسحق بتروفتش وهو عالم إسرائيليٌّ في علم اللاَّهوت، وأحدُ أعضاء الفريق الَّذي انتدبته "إسرائيل" لدى الفاتيكان لمتابعة ترجمة المخطوطات، والمجموعة الأخرى كان عليها أن تتسلَّل إلى بيت من بيوت

الضبَّاط الَّتي كانت متاخمة لنادي الضبَّاط في نهاريا لخطف ضابط، ثمَّ الالتقاء في نقطة الصِّفر الَّتي حدَّدها وحيد، والعودة إلى الزَّوارق.

كلُّ شيء سار بهدوء حسب ما خُطِّط له.

كنت مع المجموعة الأولى، وكان قلبي يخفق بعنف وأنا أتلفَّت حولي مبهورا بما أرى.

هذه إذن هي الأرض الَّتي ولدنا ونحن نهتف باسمها، صارت الآن حقيقة تحت قدميَّ ولم تعد مجرَّد حلم وخيال.

كلَّما اقتربت من حلمك اقتربت أكثر من الموت.

تسلَّلنا إلى البناية وصعدنا إلى الطَّابق الرَّابع وطرقنا الباب... ثمَّة من كان يتقن العبريَّة في كلتا المجموعتين، سمعنا صوتا هامسا يأتي من خلف الباب، كانت السَّاعة قد تجاوزت الثَّانية صباحا بخمسين دقيقة.

عشر دقائق قبيل الموت!

ردَّ أحد المقاتلين بالعبريَّة فانفتح الباب، وظهر وجه عجوز تجاوزت السِّتِّين، فوجئت بنا، وقبل أن تدرك ما يدور كان اثنان ينقضَّان على الباب ويهاجمان البيت.

بقيت واقفا مع رفيق آخر متربِّصَيْنِ أمام الباب....

حاولت العجوز أن تصرخ فضربها أحد المقاتلين على رأسها بكعب البندقيَّة فسقطت مغشيَّاً عليها، سحبوها إلى الدَّاخل وقيَّدوها، وكمَّموا فمها، ثمَّ خرجوا به وهو يبكي، ويتوسَّل تارة، ويصرخ ويتوعَّد تارة أخرى.

كمّمنا فمه وسحبناه، كان لا يزال بملابس النَّوم، والنَّوم قد فرَّ من عينيه وحلَّ محلَّه الفزع.

وصلنا إلى نقطة الصِّفر متأخِّرينَ خمس دقائق بسبب دوريَّة الحراسة الَّتي كانت تدور في الشَّارع، وفي اللَّحظة الَّتي وصلنا بها انفجرت الأرض.

اكتُشف أمر المجموعة الثَّانية أثناء العودة بعد أن أَسَرَت ضابطاً وجنديًّا.

لم أتخيَّل يوماً أنَّ الهبوط على أرض فلسطين سهل ويسير بتلك الطَّريقة، كان يهيَّء لي من قبل أنَّ المسألة ستكون أشدَّ تعقيدا، وكنت أظنُّ أنَّنا سنقع في براثن العدوِّ قبل وصولنا إلى الهدف، خصوصاً بعد تلك الزَّوارق الَّتي لاحقتنا في البحر.

انسحب عشرة رفاق مع العالم والضَّابط إلى الزَّوارق، وبقيت مع الَّذين بقوا على الشَّاطئ لحماية المنسحبين ومعنا الجنديُّ كرهينة لضمان عدم قصف المروحيَّات لنا.

ظلَّ الاشتباك حتَّى الصَّباح، ثمَّ بدأنا نتساقط واحداً وراء الآخر.

سقط سيِّد، ثمَّ أبو جميل، ثمَّ الدَّليل، ثمَّ وحيد.

ظللت أحلم بخيط الدَّم الَّذي سال من فمه، بعينيه الشَّاخصتين اللَّتين بدتا على ضوء قنابل الضَّوء كرتين معلَّقتين في الهواء، كنت أحلم بحفنة التُّراب الَّتي قبضت عليها كفُّه وهو يموت.

سبع رصاصات مزَّقت صدره فسقط يسبح في بحر دمه.

لمن سلَّمت الرُّوح يا وحيد؟ هل كان الموت قاسيا؟ هل سافرت الرُّوح بعيدا في السَّماء مع الضَّوء والضَّوضاء، أم أنَّها نامت كما كنت تنام ولم يعد ثمَّة إحساس وحواسّ؟

من أجل تلك الحفنة جئنا لنموت، من أجل ذلك التُّراب الَّذي يشبه كلَّ تراب الكون في كلِّ شيء إلاّ في عدد الموتى الَّذين ماتوا من أجله، أو دفنوا فيه!

هذه إذن فلسطين!

هذه هي الأرض الَّتي ابتلعت ملايين البشر، وما زالت تلهث وتصيح، وتتساءل: هل من مزيد!

هذه إذن هي فلسطين الَّتي جاؤوا إليها قوافل وسقطوا على طريقها موتى ولم يعودوا.

هذه إذن هي فلسطين الَّتي حلمنا بها، وقاتلنا من أجلها دون أن نعرف شكلها، أو نراها أو نعرف لونها.

هذه إذن هي فلسطين الَّتي ما تركت طفلا إلا ويتَّمته، وما تركت امرأة إلاّ ورمَّلتها، وما تركت بيتا إلاّ وعلَّمت من فيه معنى الموت والحزن والبكاء والعزاء.

انهض كي ترى فلسطينك الَّتي قضيت عمرك وأنت ترسل إليها المقاتلين أفواجا أفواجا.

انهض كي ترى فلسطينك وهي تنهض من النَّوم، وهي تبتسم للموتى القادمين من بعيد، وهي تتغنَّج كأيَّة أنثى في الكون تصاب بالنَّشوة وهي ترى عاشقها يسقط ميتاً من أجلها، تحت قدميها.

الآن حصحص الحقُّ... وامتزج التُّراب بالتُّراب.

- إن قدِّرت لك الحياة فاذهب إلى أقصى الكون، وعد لتعلَّم الحرَّاس درساً في الحياة.

لم أعرف أين هو آخر الكون، ولم أعرف من هم الحرَّاس، ولم أعرف إن كانت الحياة مقدَّرة لي أم لا!

قبض بكفِّه على حفنة التُّراب المعجونة بدمه متعمِّدا، تماماً كقصيدة تنبض بالحياة، كان يريد أن يودِّع الأرضَ الَّتي جاء من أجلها.

أنكون قد خلقنا حقًّا من ترابٍ معجونٍ بالدَّم لا بالماء؟

انهض فالحرب لا تزال في أوَّلها، والأرض ما زالت تئنُّ تحتك من الموت.

مات وحيد، وبقيت وحيداً في المعركة أواجه الموت، أفرغت جيوبه، أخذت دفتره الصَّغير الَّذي لم يفارق جيبه يوماً، وذخيرته...

هل انتصرنا؟
يسأل الظلُّ الحزين ويحتضر
اكتبْ إليَّ رسائلا بحروف ماء
فوق ياقات الجنود
ستنقل الرِّيح الحزينة وعدنا ما بيننا
وإذا وقفت أمام قبري ذات يوم
لا تلمني
ما كتبت براحتي
ما جاء عنِّي فوق قبري بعد موتي
ما كتبت براحتي
ما جاء عنِّي فوق ألواح القدر

* * *

ظلَّ الرَّصاص يعوي حولي وأنا أحاول أن أناور، كنت أعتقد أنَّني ميت لا محالة، أين أمضي؟ أين أمضي؟ لا عصا موسى في كفِّي لأفلقَ البحر، لا سفن طارق بن زياد أحرقها خلفي كي أدَّعي أنَّ بوسعيَ أن أتقدَّم خطوة إلى الأمام.

كنت عاريا من كلِّ شيء، إلاّ من فلسطين الَّتي عشَّشت في أعماقي منذ ولادتي.

كنت أعتقد أنِّي لن أعود إلى أيِّ مكان سوى التُّراب، لذا كان عليَّ

أن أموت رابط الجأش بلا هلع ولا خوف، وأن أكون سعيدا لأنِّي سأدفن في فلسطين، على الأقلّ، حاولت أن أقنع نفسي بذلك.

تحسَّست السِّلسلة الذَهبيَّة في عنقي وودَّعت حليماً، استسلمت للواقع، الذَّخيرة سوف تنفذ، ولكلِّ رصاصة ثمن.

مرَّت في رأسي كلُّ الوجوه.

لا وَقت للعزاءِ أو البكاء.

رأيت الموت.

الرَّصاصة الأخيرة لي!

ركَّزت كعب البندقيَّة في التُّراب بعد أن أطلقت آخر الرَّصاص، أصبت بالدَّهشة وأنا أرى الجنديَّ الأسير يحدِّق إليَّ، كنت قد نسيته تماما في غمرة الموت والرَّصاص، بدت عيناه تلمعان مع ضوء الصَّباح، الهلع والخوف بدآ شيئا فشيئا بالانسحاب وحل محلَّهما التَّرقُّب.

كان قد أيقن أنَّه نجا، وأنَّه انتصر.

سحبت فوَّهة البندقيَّة الملتهبة من أمام شفتيَّ، سدَّدتها إلى رأسه وأطلقت الرَّصاصة الأخيرة.

شعرت بالرَّاحة والرَّصاص ينهال عليَّ.

سقطت على الأرض.

لم أكن أعرف لحظتها أنِّي قد أصبت بثلاث رصاصات إحداها كانت في موقع قاتل.

(19)

لم أفهم شيئاً مما جرى، يومان في الجنَّة الَّتي لم أحلم يوماً أن تطأها قدماي، يومان والدُّنيا تضحك.... وأنا أحلِّق عالياً في السَّماء بين الطُّيور، ودهر في جهنَّم كي تكتمل دورة الحياة.

الله الَّذي خلق البشر، يعرف ما تريده النَّفس، وما يستهويها، ويسحرها، يعرف ما يجعلها تذوب وترقُّ وتهيم في غياهب الغيب: المرأة، والخمر، لذلك كان أوَّل ما وعد به الرِّجال في الجنَّة هو المرأة والخمر، أن تصوم كلَّ عمرك بانتظار حوريَّة الجنَّة، وبانتظار نهر من الخمر جار تحت قدميك قد يكون شيئاً قاسياً إذا ما جرَّبت الحوريَّة والخمر.

لكنَّها مع ذلك ماتت، المرأة الوحيدة الَّتي فتحت لي صدرها على اتِّساعه وأعطتني الحبَّ بلا مقابل في ليلة واحدة مرَّت كلمح البصر، كانت مجرَّدَ فقاعة هواء، لم أكن أريد أن أصدِّق أنَّها جاسوسة "لإسرائيل"، كنت أريد أن أحبَّ، أن أحبَّ فقط، وأن أشعر أنَّ ثمَّة امرأة فوق هذه الأرض تفكِّر بي، وتنتظر عودتي، ويقلقها غيابي.

كم تعطَّشت لامرأة تبادلني الحبَّ بصدق وجنون!

صورتها لا تفارق رأسي وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة ممدَّدة أمام الباب، تحدِّق إلى وجهي وكأنَّها تستجير بي، كأنَّها تمدُّ يدها لأسحبها من ذلك المنزلق السَّحيق الَّذي كانت تغوص فيه إلى اللارجوع، كأنَّها تبكي آخر لحظة لها على الأرض.

كان فحيح الصَّمت هو كلُّ ما يمكن سماعه من الجميع.

السُّؤال مؤجَّل، وكلُّ شيء مؤجَّل.

لم يأخذوني إلى عيتات كما كنت أظنُّ، بل ظلَّت العربة تسير حتَّى قطعت الجبل كلَّه وبدأت بالانحدار نحو البقاع، وصلنا جلالا عند الغروب، أغلقوا باب البيت الَّذي كان بلا نوافذ عليَّ، ووضع خليل أمامي رزمة أوراق وثلاثة أقلام:

- أريدك أن تكتب كلَّ شيء، كلَّ شيء منذ ولادتك حتَّى الآن، لا تنس شيئاً أبداً، أبداً.

بعد عام واحد فقط أو أكثر بقليل، بعد أن أسلم الدَّليل روحه ورحل، بعد أن سقط وحيد أمام عينيَّ مقتولا بسبع رصاصات، وأفقت من الموت، سأجلس في تلِّ أبيب في غرفة مشابهة تماماً وسيطلب منِّي ذات الطَّلب، وسيأتونني بنوع الورق نفسه، ونوع الأقلام نفسها...

كنت فرحاً بخروجي من ذلك المأزق الَّذي وجدت نفسي فيه، لكنِّي كنت متعباً، لا أفهم شيئاً مما يدور حولي، مأخوذاً بمعاملتهم القاسية تلك لي، لماذا ساد الصَّمت طوال الطَّريق؟ لماذا تجاهلوني؟ لماذا لم يجيبوا عن أسئلتي؟ لماذا كان خليل متجهِّما وعاملني بتلك الطَّريقة؟ من مع من؟ ومن ضدَّ من؟ وأنا... أين موقعي من الحياة؟... ما الَّذي يريدونه منِّي؟ ولماذا انقلبوا عليَّ وعاملوني كعدوٍّ؟

أحسست بالشَّفقة على نفسي....

السَّعادة الَّتي شعرت بها بين يديها انقلبت تعاسة والجنَّة صارت فجأة أقسى من الجحيم، السَّعادة الَّتي شعرت بها وأنا أتحرَّر منها وأرى ميشيل انقلبت إلى ضدِّها، لماذا عليَّ أن أدفع دائماً ثمن الفرح؟ كأنَّ الحزن قدر، كأنَّه محفور على جبيني إلى الأبد، أريد أن أهزأ بكلِّ شيء، بثورة القوَّادين، بالدُّنيا الملعونة، بالمفاهيم المقلوبة، بكلِّ شيء، أريد

أن أخرج عضوي وأشخَّ على كل من حولي، هل أصبحت متّهما بالخيانة؟

أعرف أنهم يريدون معرفة كلِّ شيء عن اللفافات لا قصَّة ولادتي ومماتي، ماذا سأكتب بثلاثة أقلام؟ هل سأكتب قصَّة الكون؟

الآن صار بوسعي أن أنفجر حزنا على حليم، وأبكيه، هل مات حقًّا؟ هل كانت جورجيت تعرف ما تقول؟ هل مات حقًّا حليم؟

حليم شمعة الأمل الَّتي توهَّجت ذات يوم في حياتي ساعة واحدة واختفت دون مقدِّمات، هل مات؟ تحسَّست السِّلسلة الَّتي تتدلَّى من عنقي، وشعرت بأنَّه يطلُّ عليَّ بالسرِّ من مكان ما، ويراني.

أمسكت بالورقة وبالقلم، ورحت أحاول أن أرثيه...

أيُّ شعر يمكن أن تكتبَ وأنت في أتون النَّار، في السَّعير؟ كيف يمكن أن ترثي من هم أكبر من الرِّثاء؟

صَمَت الكلام، صَمَت الورق، صَمَت القلم، وصَمَتُّ أنا، لا أعرف إن كنت حقًّا قد نمت أم لا، لكنَّي أعرف أنَّني لم أكتب كلمة واحدة في تلك اللَّيلة لا لحليم ولا لخليل.

جنَّ جنونُ خليل في الصَّباح، وحاول أن يهدِّدني، لكنِّي كنت أصمَّ كالصَّخر، كيف تنقلب العلاقات بين البشر؟ ألم نكن منذ يومين صديقين حميمين؟ ألم نكن أخاً وأخاه؟ كيف تُرسَم العلاقات في ظلِّ المصالح: مصالح البشر، ومصالح الأحزاب، ومصالح الدُّول، ومصالح البزنس؟ وما الفرق بين المصالح العليا، والمصالح الدُّنيا؟ الأمن هو الأمن أينما ذهبت وأينما حللت.

حاول أن يسترضيني، حاول أن يهدِّدني، جرَّب العصا والجَزرة، كنت عنيدا وربَّما أورثتني أُمِّي ذلك العناد.

قادوني إلى السِّجن، كان السِّجن مجرَّد حفرة تحت الأرض تفتقر إلى أدنى مقوِّمات الحياة، تفوح منها رائحة العفونة والتُّراب والبراز، وأرضها قد تعفَّنت وأنتنت من ماء المطر الَّذي تجمَّع فيها طوال الشِّتاء، مغلقة من الأعلى بباب من القضبان الفولاذيَّة السَّميكة، هبطت السُلَّم المعدنيَّ، وبدأتْ عيناي بعد قليل تعتادان الظَّلام، هناك، في تلك الحفرة العميقة تحت الأرض، كان فؤاد يقبع منذ أسابيع بانتظار اللاّشيء، كان هزيلا شاحبا محطَّما خائفا من كلِّ شيء، وبدت آثار التَّعذيب واضحة على جسده، جلسنا كلٌّ في زاويته يجترُّ الأمل والذِّكريات.

مضت ساعات طويلة قبل أن استوعب ما جرى معي، أحاول أن أرتِّب أفكاري فأفشل، الأمن هو سلطة تحاول أن تقود السُّلطة بحجَّة الأمن، وربَّما يكون دائما هو السُّلطة العليا المطلقة الَّتي لا تقبل الجدل.

إن كنت ألوم الأنظمة الَّتي تبرِّرُ كلَّ أساليب القمع والبطش والنَّهب والقتل والتَّعذيب والتَّنكيل والتَّرهيب وتكميم الأفواه باستتباب الأمن، فماذا أقول لمن يرفعون راية الحريَّة والتَّحرير؟

آنذاك فقط أدركت ما كان يرمي إليه وحيد حين قال لي في المعسكر إنَّ كلَّ شيء بحاجة إلى إعادة ترتيب.

من أجل ماذا نحارب؟ دكتاتوريَّة الحزب؟ دكتاتوريَّة الدَّولة؟ دكتاتوريَّة الفرد؟ دكتاتوريَّة المجموعة؟ ما الفرق؟ ما الفرق حين تصبح الحريَّة الَّتي متنا من أجلها هي الأنشوطة الَّتي تلتفُّ حول رقابنا وتخنقنا؟ ما الفرق حين تصبح الحريَّة هي حريَّة مجموعة صغيرة مقابل عبوديَّة الآخرين؟

هبط الظَّلام فغرق الخندق في العتمة تماماً، لم نذق طعاما أو ماء، ولم نكن نسمع سوى وقع خطوات الحارس في الأعلى تدقُّ الأرض بصوت رتيب، كنت انتفض طوال اللَّيل، كاد البرد يفتك بي، من أَجل هذا جئت؟ من أَجل هذا حاربت؟ من أَجل ماذا؟

لم نستطع النَّوم، نهضنا وجلسنا نرتعش كلٌّ في زاويته، شعرت به يزحف نحوي في الظَّلام، اقترب منِّي كثيرا ما جعلني أتوجَّس خيفة منه، شعرت بكفَّيه تمتدَّان نحوي في الظَّلام، خفت، مددت يديَّ لا أَدري إلى أين محاولا أن أدافع عن نفسي، خُيِّل لي أنَّه رجل شاذٌّ يبحث عن اللذَّة في هذا اللَّيل المجنون، حذَّرته هامسا وهدَّدته، راح يتمتم، ويهدِّئُ من روعي، ألصق جسده بجسدي وقال:

- هكذا أفضل، هكذا يمكن لنا أن نشعر بقليل من الدِّفء.

الغريب أخ للغريب، المحروم أخ للمحروم، والمكلوم أخ للمكلوم،

بدا أنَّ الوقت الَّذي قضاه هنا في البرد، علَّمه كيف يتعايش مع هذا السِّجن البغيض.

- انفخ باتجاهي، وأنا أنفخ باتجاهك.

بدأ ضوء الصَّباح يتسلَّل إلى داخل الحفرة ببطء ونحن لا نزال مستيقظين، لم نذق طعم النَّوم، ظللنا طوال اللَّيل نتحدَّث هامسين، حدَّثني عن نفسه، قال لي إنَّه أحد كوادر الحزب، وقد انقلب على الحزب بعد عودته من دورة في الاتِّحاد السُّوفييتي، بعد أن اكتشف أنَّ اليسار يحفر قبره بيديه.

- نحن مجرَّد حركة تحرُّر لا تمتلك وطناً إن تاهت بوصلتها ماتت، وضاع معها الوطن، مرَّة وإلى الأبد، لا يمكن لنا أن نسمح بالخطأ، لأنَّه نهاية كلِّ شيء، كلِّ شيء!

ظننته مجنونا، لم أكن أدري بأنَّ أعتى القوى أيضا بوسعها أن تموت.

قال إنَّ أيَّة قوَّة في العالم تنغلق على ذاتها ستنهار عاجلاً أم آجلاً لأنَّها تسير عكس فطرة البشر، ضحكوا مثلي في البداية منه، وحاولوا إقناعه بوجهة نظرهم، ثمَّ أمروه أن يحتفظ بأفكاره لنفسه، منعوا ترفيعه، ثمَّ خفَّضوا رتبته الحزبيَّة، ثمَّ جرَّدوه من كلِّ الرُّتب وطردوه، وحين ظلَّ مصمِّما

على أن يقود ثورة داخل الحزب الَّذي كان يعتقد أنَّه يعشقه مثلهم، ويريد أن يحرِّره من أوهامه، ومن مغبَّة سقوطه اعتقلوه، كان عنيدا ولم يشأ أن يترك الحزب ويمضي إلى أيِّ مكان! يردِّد دائما أَنَّ الحزب للجميع، ويجب أن يتَّسع للجميع، وأَنَّه يسير إلى طريق مغلق، وعليه أن ينقذه من السُّقوط.

كدت أضحك في سرِّي ليلتها، واعتقدت أنَّه مجرَّد مجنون أودت بعقله الفلسفة الَّتي كنت أعرف أنَّها تودي بعقول الكثيرين.

لم أكن يومئذ قادرا على رؤية ما رآه هو قبل السُّقوط بزمن طويل.

في موسكو أصيب بردَّة فعل عكسيَّة حين رأى المحلاَّت الفارغة الَّتي تصفر فيها الرِّيح، والبيروقراطيَّة، والهروب من الواقع إلى الفودكا، ودكتاتوريَّة الحزب تحت شعار دكتاتوريَّة البروليتاريا، فعاد وهو يقول: لست أدري إن كان عليَّ أن أناضل مائة عام لكي أصبح شيوعيًّاً، جائعاً، سجيناً في بلدي لا يُسمح لي حتَّى بمغادرة الحدود، مقهوراً ليس بوسعي أن أعبَّر عن وجهة نظري، لماذا أناضل إذن؟ لماذا أحمل نظريَّة هشَّة لا تستطيع حتَّى أن تدافع عن نفسها كأصنام مكَّة؟...

لم تعجبهم تساؤلاته، فسجنوه، ولم يعجبهم سكوتي فسجنوني.

بدأت مقاومتي تنهار شيئا فشيئا، كان ذلك هو الاختبار الأوَّل وكان عليَّ أن اثبت لنفسي أنَّني قادر على الصُّمود.

في لحظة الموت، لحظة العذاب، ينهض السُّؤال الكبير الَّذي تسأله دائما لنفسك في الرَّخاء: هل أنا قادرٌ على الصُّمود، هل سأستسلم؟ هل سأسقط في بئر الاعتراف؟ من أصغر الاعترافات تولد أكبر الأحداث، من أصغر سقوط يولد السُّقوط المدوِّي الَّذي يخلق الزَّلازل والبراكين.

حين تعتقد أنَّ المعركة مجرَّد سكون وصمود تكون قد أخطأت.

هم يمسكون بطرف الخيط، يدلُّونه، وتصبح أنت دمية تتدلَّى في الهواء، قابلة للشدِّ والارتخاء، فإذا اعترضت لا يقطعون الخيط إنَّما يرفعونك حتَّى تظنَّ أنَّك قد انتهيت من عذابك، ثمَّ يخفضونك حتَّى تظنَّ أنَّك ستسقط في قرارة البئر إلى الأبد، كلّ منَّا يمارس جنونه بطريقته الخاصَّة، وأنا أمارس جنوني بالعناد، كنت دائما مسالماً، ولم أكن أعرف أنَّني أمتلك كلَّ ذلك العناد، حين أصنِّف نفسي الَّتي لا أفهمها كثيرا أقول إنَّني من أولئك الَّذين يتجنَّبون التَّحدي كثيرا لأنَّهم يخافونه، لكنَّهم إذا ما وقعوا في أتون النَّار اكتشفوا أنَّهم يمتلكون طاقات بلا حدود.

ما الَّذي أريده؟ وما الَّذي يريدونه منِّي؟ لم أستطع أن أصدِّق ذلك الانقلاب الغريب، ربَّما لو أعطوني فرصة لما تردَّدت لحظة في الإفصاح عن مكان اللفافات، لكنَّ خليلاً اختار العناد، وأنا اخترت الصُّمود.

في الحقيقة كنت منذ زمن طويل أبحث عن تلك الحلقة المفقودة بيننا، ثمَّة ما كان دائما يستحثُّني على تحدِّي خليل الَّذي كان يهابه الجميع، كنت أريد أن أنتقم لذلك الشُّعور المقيت الَّذي كان ينتابني كلَّما أمرني بإعداد القهوة، فأقوم لأعدَّها بلا جدل وكأنَّني أقوم بواجب وطنيٍّ، لماذا كان عليَّ الخضوع إلى ذلك الحدّ؟.

ثلاثة أيَّام لم أذق إلا خبزا يابسا وماء كان يدلَّى من الأعلى إلى الأسفل بالحبل، ثلاثة أيَّام ثمَّ ظهر فجأة خلف القضبان الحديديَّة ذلك الوجه الَّذي لم أحلم أبداً بأن أراه من جديد..... وجه وحيد.

رميت برأسي على صدره، الآن صار بوسعي أن أنهار وأَبكي بلا خجل، كنت حاقداً على كلِّ ما حولي، على التَّنظيم، وخليل، وميشيل، والثَّورة، والبنادق الَّتي كانت مسلَّطة إلى رأسي، ضمَّني وحيد إليه، قادني من يدي إلى غرفة صغيرة وطلب لي طعاما لكنِّي آثرت أن أشرب القهوة وأدخِّن.

كم كنت مشتاقا إليه!

دخَّنت وشربت القهوة بشراهة، ثمَّ حين فرغت من تناول طعامي أخذني من يدي إلى عربة اللاَّندروفر وانطلقنا معا إلى بيروت.

ارتخيت فوق المقعد، كنت أشعر بالتَّعب والهزال، جسدي صار مثل إسفنجة امتصَّت أوساخ الأرض وماءها النَّتن فأنتنت رائحتها، روحي كان قد علاها الصَّدأ، شعرت بالذُّلِّ، طوال الطَّريق ظلَّ يحدِّثني عن ضرورات الأمن، والواقع الفلسطينيِّ الصَّعب، ويحاول أن يبرِّر ما فعله خليل بي، حدَّثني عن المركزيَّة الديمقراطيَّة، والنَّقد الذَّاتي، وقال إنَّه كان بوسعي أن ألجأ إليه أو إلى من أراه مناسبا لكي أشرح له وجهة نظري...

كان يحاول أن يجد مخرجاً لخليل....

خليل هو سلطة داخل سلطة، ولكي أستطيع أن أدافع عن نفسي أمامه كان عليَّ أن أجنِّد طاقات لا أمتلكها... وأنا لست إلا عنصراً محضاً لا يمتلك أيَّة سلطة على الأرض.

كيف أصبح الأمن يتحكَّم بالثَّورة مثلما يتحكَّم بالحكومات؟ وهل الأمن فوق الثَّورة أم أنَّ الثَّورة فوق الأمن؟ هل الأمنُ فوق القانون؟

لم أكن مقتنعا بالكثير ممَّا سمعته من وحيد، كنت أدرك أنَّه جاء خصِّيصاً من درعا لحملي على أن أعترف بمكان اللفافات، فقد كانوا يعرفون عن علاقتي الوثيقة به.

الشُّعراء كالعصافير لا يمكن لهم أن يؤمنوا بغير حريَّتهم، ولو دخلوا الجنَّة فعليهم – حتَّى لو تغنَّوا بمحاسنها، وجمالها – أن يبحثوا عن عيوبها، تلك هي مهمَّتهم في هذا الكون، وذلك هو السَّبب الحقيقيُّ الَّذي يجعلهم دائماً على صدامٍ مع كلِّ الأنظمة الَّتي تحاول ترتيب هذا الكون حولهم، أو تطويعه، أو جعله يسير وفق نظام معلوم.

كنت أحمل في أعماقي شاعراً متمرِّداً مع أنَّني كنت دائماً أعتقد أنَّني مجرَّد شاعر فاشل.

قضينا معا أيَّاما في مخيَّم البرج، كنت مشتاقا للذَّهاب إلى شاتيلا لكنِّي كنت أكتم ذلك الشَّوق في أعماقي، ليلى خلقت في أعماقي حالة من الهذيان الَّذي لا أستطيع أن أتخلَّص منه أبدا، وكأنَّها داء بلا دواء، أو قدر مكتوب.

كلُّ ما جرى لم يمنعني من التَّفكير بها، والحلم، والتَّساؤل، ماذا تخبِّئ ليلى؟ علمت أنَّها مريضة، وأنَّ خليلاً وميشيل زاراها يوم كانا يبحثان عنِّي، ووجداها في الفراش.

غريبة هي، وغريب ذلك التَّناقض الَّذي أعيشه معها.

قرَّرت أن أذهب إليها، وأعترف لها بكلِّ ما كان، بعد أن أخبرني وحيد بسقوط أحمد، واعترافه بكلِّ شيء.

الآن سقط الجدار الَّذي كان يفصل بيننا، وصار بوسعي أن أقول لها الحقيقة، كلَّ الحقيقة.

* * *

عشر دقائق بُعيد الموت.

أمضي وراء البحر بلا سماء ولا غطاء، لا طريق يفتحه أمامي البحر، لا بريق سوى انعكاس الشَّمس فوق الماء، وأنا أ... هـ... ذ.. ي.

ما عاد ثمَّة مكان للأنبياء فوق الأرض، الأنبياء ماتوا، وأنا لا اسم لي، ضيَّعته عند مفترق الطَّريق، وحين عدت لأبحثَ عنه في الرَّمل ضعت في مفترق الطَّريق.

- من أنت؟

- أنا المهرِّج في بلاط الوزير.

أُغنِّي، وأبكي مثلما تعوَّدت دائماً أن أبكي.

"وبعد أن سهرت اللَّيل بطوله في البرد والصَّقيع طامعاً في أميرة الأحلام، بزغ الفجر، وجاء السُّلطان، والحاشية، أشار إلى القمر وقال:

- هل كان القمر في السَّماء اللَّيلة؟

- نعم، قلت.

- إذن فقد دفَّأك القمر، قال.

- القمر بعيد، قلت.

- هل يكذب السُّلطان؟

فكَّرت: لو قلت نعم فسأموت، ولو قلت لا فسأخسر الحلم، آثرت أن أبقى على قيد الحياة وأنجو بجلدي، فصمتُّ.

ضَحِكَ السُّلطانُ وَعَلَّمَني أَنَّ الدُّنيا كِذبَةُ سُلطانْ.

كنت أحلم.

كم كنت ساذجاً وبسيطاً وأحمق آنذاك!

اعتذر خليل منِّي أمام الجميع بعد أن طلب منه وحيد ذلك، ومقابل ذلك الاعتذار اعترفت بمكان اللفافات، ورويت لهم كلَّ ما جرى بيني وبين حليم، بعد أن أخذت وعدا من وحيد وخليل أن أكون جزءاً من أيَّة عمليَّة في المستقبل تخصُّ اللفافات.

أكَّد خليل أنَّ ما فعله لم يكن سوى درس لي لأكون أكثر صدقاً وحرصاً على مصلحة التَّنظيم، لم يفطن إلى ليلى، ولو سألها ربَّما لأخبرته بمكان اللفافات، فهي أيضاً تعرف مكانها!

ثمَّة مسافة صارت تفصل بيننا، أحسست أنَّ ما انكسر وتشظَّى لا يمكن له أن يعود كما كان، عدت إلى الخمسين فوجدته لا يزال على ذات الحال، وعيتات غارقة في الحديث عنِّي.

سرت الشَّائعات بين المقاتلين كما تسري النَّار في الهشيم...

كلٌّ كان يجتهد وكأنَّه عالم ببواطن الأمور، يفسِّر ويدافع عن وجهة نظره كأنَّها حقيقة لا جدل فيها، منهم من قال إنَّني تركت التَّنظيم وفررت عائداً إلى عمَّان، ومنهم من قال إنَّني كنت عميلاً للموساد وفررت بعد أن اكتشف أمري، ومنهم من قال إنِّي أُسرت، ومنهم من قال إنِّي متُّ.

أبو الفوز الَّذي كان يملؤه الفضول والغيظ، حاول أن يستثمر تلك الشَّائعات بالضَّغط على خليل لمعرفة مصيري، لكنَّه فشل بمعرفة أيِّ شيء، لذا لجأ إلى بيروت، وبدأ سرَّاً بالبحث والسُّؤال والتقصِّي حتَّى استطاع معرفة كلِّ ما جرى معي، لكنَّه مع ذلك وقف في منتصف الصَّالة في الخمسين، وراح يصرخ ويشتم خليلاً قائلاً إنَّ من حقِّه وحقِّ باقي الرِّفاق معرفة مصيري.

جورج حاول أن يهدِّئ من روعه، وأبدى استعداده شخصيَّاً لسؤال خليل، والبحث عنِّي لكنَّ أبا عبد الله ربَّت على كتفه قائلاً:

- الَّذين أرسلوه قادرون على أن يستعيدوه.

عشرات من المقاتلين كانوا يتوافدون أثناء النَّهار إلى الخمسين والستِّين من القوى والتَّنظيمات كافَّة للسُّؤال عن مصيري.

لم أكن أعرف حتَّى تلك اللَّحظة أنَّني مهمٌّ إلى هذا الحدِّ، حتَّى أبو طلال قرَّر أخيراً أن يخرج من صومعته بعد غياب إدريس لأيَّام عنه، ويزور الستِّين متسائلاً عن سرِّ غياب إدريس، وحين علم بالأمر صار يسأل إدريس كلَّ يوم عنِّي.

كنتُ أعتقد أنَّني مجرَّد رقم من بين عشرات الأرقام المنتشرة في عيتات، على طول خطِّ التَّماس.

حالة من الفوضى دبَّت في المحور ما ترك متنفَّساً للبعض في تغيير نمط حياتهم اليوميِّ، توافد الكثيرون إلى الخمسين بعد عودتي، وعادوا إلى

مواقعهم خائبين لأنَّهم لم يُشبِعوا فضولَهم، ولم يعزِّزوا تلك الأساطير الَّتي نسجوها حولي.

ظلَّ كلُّ شيء طيَّ الكتمان، لم أبح بشيء ممَّا حصل معي، واضطُررت إلى الادِّعاء بأنَّني كنت في مهمَّة خارج لبنان، وأبو الفوز لم يتجرَّأ على أن ينطق بكلمة واحدة لأحد.

حتَّى جورج تعلَّم أن يسأل مثل الآخرين، وربَّما أصبح فضوليًّا أكثر منهم.

لغته العربيَّة أصبحت أحسن حالا من السَّابق، وعاداته الَّتي جاء بها من فرنسا بدأت بالتَّلاشي ببطء، والصُّفرة الَّتي كانت تظهر وجهه وكأنَّه بلاستيكيٌّ تحوَّلت إلى لونٍ بنيٍّ فاتح، كان أميناً على حضوره في الخمسين حين غاب الجميع، حتَّى أنَّه وجد نفسه في الاشتباك الَّذي وقع عند ظهر اليوم السَّابق لعودتي إلى الخمسين وحيداً مع سليم، وبالكاد استطاعا أن يسيطرا على الموقف.

كلَّما كنَّا نسهر معا كان لا يتوقَّف عن الشَّكوى والكلام.

كانت أحلامه قد بدأت تنهار، لكنَّه كان يحاول أن يقنع نفسه بأنَّه مخطئ.

كيف يمكن له أن يستسلم للصِّفر مرَّة أخرى بعد كلِّ ما كابده وعاناه عند المنتهى، وعند البدء، وكيف يمكن أن يعود لبداية جديدة؟

الدُّنيا ما عادت قادرة على أن تتَّسع لحزنه وألمه، ولبنان ما عاد هو لبنان يوم جاء مدجَّجاً بالأمل والحلم، يوم جاء فارَّاً من الماضي ليفتح صفحة جديدة ناصعة بيضاء، كيف ظنَّ أنَّ الثَّورة يمكن أن تكون صافية بلون البحر؟

هل لبنان هو الَّذي تغيَّر أم أنَّنا كنَّا قد بنينا حين جئنا قصورا من الرَّمل أخذها الماء؟ أو ربَّما نحن الَّذين تغيَّرنا دون أن ندري؟

حتَّى في الحرب، حين لا تكون ثمَّة لغة إلاّ لغة الرَّصاص هناك من يبيع ويشتري، هناك من لا يقامر إلاّ بالكلام، هناك من يبحث عن ذاته دائماً وسط الدَّمار، والموت...

لا شيء نقيٌّ تماماً كالبلُّور، ولا شيء قذر تماماً...

ثمَّة خطوط رماديَّة ما بين الأسود والأبيض، لكنَّه اعترف بأنَّه لم يكن يعلم بوجودها من قبل، ويعترف الآن بأنَّه لا يريد أن يراها كي لا ينكسر الحلم:

- "أنت أكثر قدرة على الرُّؤية وفهم اللّعبة والانخراط فيها، أما أنا فقد ظللت واقفاً أفكِّر، وكلَّما قذفت بنفسي إلى الأمام وجدت الدوَّامة تلفظني نحو الخارج، وكأنَّني لا أصلح لأن أكون هناك، في أعماقها"، قال ونحن ننظِّف السِّلاح.

كيف يمكن أن يعتقد أنِّي بتُّ داخل حلقة اللَّعِب وهو خارجها؟ وأين حدود الحلقة بالضَّبط؟ لماذا انفرط العقد فجأة وتناثرت حبَّاته فوق الرَّمل؟....

أبو رمزي قال له في لحظة صدق وتجلٍّ إنَّ اليسار ما عاد يساراً، واليمين ما عاد يميناً، الخطوط الفاصلة بينهما بَهتَت، وكادت تنمحي، فالدُّنيا انقلبت بعد الخروج، والثَّورة تطيش الآن على شبر ماء، والنَّاس عاجزون عن الإحساس والرُّؤيا، لكنَّهم سيبكون ذات يوم دماً على الخروج من بيروت.

قال إنَّ الَّذين خرجوا من اليسار مع اليمين أعطوه لوناً رماديَّاً، والَّذين بقوا من اليمين مع اليسار أعطوه ذات اللَّون الرَّماديِّ، كلُّ شيء بات متشابهاً بعد الخروج....

سيخطو خطوة إلى الخلف، ويعود إلى العمليَّات، إلى أبي رمزي، لعلَّه يعيد النَّظر هناك في كثير من الأشياء، قال....

جلسنا نرتِّب الذَّخيرة...

كنت أرى الحزن والقلق في عينيه، فأعتقد أنَّ ذلك الحزن هو حزن عيتات المعتَّق الَّذي لا ينتهي.

سليم علَّق قائلا إنَّه لا يفهم معنى نقاء الثَّورة، كلُّ الَّذي كان يعرفه أنَّ الحرب هي الحرب فيها قاتل ومقتول، غالب ومغلوب، وعليه أن يكون القاتل كي لا يكون المقتول.

هكذا فسَّر علاقته بالثَّورة ببساطة، ما جعل جورج يصاب بمزيد من الإحباط....

أخرج من جيبه ورقة مطويَّة بعناية وناولها لجورج الَّذي راح يحاول قراءة ما فيها....

– إنَّها مكتوبة بالألمانيَّة...

– هذا هو العنوان الَّذي سأذهب إليه عند وصولي إلى ألمانيا، سأذهب مع أبي عبد الله، وهناك سأبدأ حياتي من جديد، سأتعلَّم القراءة والكتابة باللُّغة الألمانيَّة، سأعمل وأجتهد وربَّما سأصبح ذات يوم عظيماً مثل العظماء الَّذين تسمع بهم، ما زلت صغيراً، وما زال الدَّرب أمامي طويلا، هكذا قال لي أبو عبد الله.

ابتسم جورج....

– أيُّ عظماء؟

– دانتشي.

– تقصد دافنشي.

– نعم، هو.

ضربت بكفِّي على جبيني، وتساءلت في سرِّي إن كان ثمَّة علاقة مشبوهة بينه وبين ذلك الزِّنديق.

- كلُّ بداية جديدة هي تعبير عن فشل ما، لماذا لا تحاول أن تبدأ من هنا؟ أو ربَّما تفكِّر بالعودة إلى البيت... سأل جورج.
- لا بد أنَّك تمزح، وهل عندي أنا بيت؟

راح يغنِّي ورأسه يتمايل:

"إنتِ وأنا يا ريت عنّا كوخ....."

- أليس لك أقارب؟... قاطعه جورج.
- لي، ولكن كلٌّ همُّه على قدِّه...
- ولماذا أنت واثق من أنَّه سيأخذك معه؟
- هو قال.
- لماذا سيأخذك؟
- هو وعدني، أنا لم أطلب منه ذلك، صدِّقني إن لم أسافر سأموت.

قال مندفعاً، والحزن يطفح من عينيه، فأشفقت عليه.

- لن تجد في السَّفر إلاّ الوهم.
- هل تقصد أنِّي فاشل؟
- أقصد أن السَّفر في كثير من الأحيان هروب.... عودة إلى الصِّفر.

طأطأ رأسه وانشغل في تنظيف سبطانة البندقيَّة من الدَّاخل....

- لو خيِّرت لما سافرت إلاّ إلى فلسطين.... هي الأرض الوحيدة الَّتي أحلم بأن أراها ولو مرَّة وأموت.... قال جورج، كان قد طلب من سلطان أن يدرج اسمه ضمن أسماء الرِّفاق الَّذين يريدون أن يشاركوا في عمليَّات في فلسطين، وظنَّ أنَّ عليه ألاّ

يضيِّع وقته، رسم لنفسه برنامجاً تدريبيّاً شاقّاً، بدأ يتدرَّب على دقَّة التَّصويب، ومهارة الميدان، أخضع جسده ونفسه لكثير من الألم ربَّما لكي يعوِّض تلك الفضيحة الَّتي كان يحسُّ أنَّها تلازمه يوم نقل إلى المشفى في المعسكر.

كان يقول إنَّ الجنديَّ الإسرائيليَّ مدرَّب على القتال في أعتى الظُّروف، ولكي تواجهه وتنتصر عليه لا بدَّ أن تكون أقوى منه، فالحرب، على الرُّغم من كلِّ التكنولوجيا هي أوَّلاً وأخيراً حرب بين جسد وجسد، روح وروح، مقاتل ومقاتل.

قفزت واقفاً حين سمعت وقع أقدام عند مدخل الخمسين، انتظرت قليلاً وسليم يقف إلى جانبي، أطلَّ رأسُ زينب ومن خلفها عيسى، فشعرت بالفرح، رحَّبت بهما، كنت أنتظر حضورها منذ أيَّام، طلبت منها الدُّخول إلى الصَّالة، ثمَّ طلبت من سليم إعداد القهوة لكنَّها أصرَّت على إعدادها بنفسها....

كأنَّها واحدة من أصحاب الدَّار...

كنَّست، ونظَّفت المكان، وأعدَّت الطَّعام، ونامت ليلتها تلك في سرير أبي علي، وعيسى في حضنها.... اعتذرت عن عدم حضور زوجها معها لأنَّهم لم يمنحوه تصريحاً، أبدى أبو الفوز غبطته بوجودها، قال مبتسماً في الصَّباح إنَّ الخمسين انقلب رأساً على عقب، وبات مختلفاً، فألف رجل لا يساوون رائحة امرأة واحدة في البيت، شعرت هي بالفخر، والحبور، وشكرته، ثمَّ استأذنت عائدة إلى صور، بعد أن اتَّفقنا على أن تعود قريباً لنذهب معا إلى دمشق.

* * *

انحنى كعود الخيزران ليربط حذاءه فالتمعت صلعته، كان دائما حريصا على أناقته حتَّى في أحلك الظُّروف، تفوح من جسده رائحة عطر آسرة، كفَّاه على الرُّغم من الزَّمن الَّذي قضاه بيننا في عيتات لا زالتا ناعمتين، راح يلبس قميصه المصنوع من الحرير وهو يحدِّق إلى نفسه في المرآة...

الآن فقط تذكَّرت أين رأيت الوشم المنقوش على صدر جورجيت!

- أعجبك؟
- كثيراً، إنَّه دقيق وجميل.
- صديق ألمانيٌّ نقشه لي.
- هل يعني شيئا؟

رفع حاجبيه مندهشاً:

- ألا تعرف ماذا يعني؟
- لا....
- ألا تعرف الكبش المقدَّس؟
- لا...

بدا عليه التعجُّب...

- هل هناك من لا يعرف الكبش المقدَّس؟
- أنا.... هل هو إله؟....
- إنَّه رمز للمعذَّبين على الأرض، رمز لك أنت.
- المعذَّبين؟
- نعم.

وقفت أحدِّق إليه مشدوهاً.

- وهل تؤمن بهذه الخرافات؟
- لماذا تعتقد أنَّها خرافات؟ سأل ممتعضاً.

كنت كثيراً ما أحاول استفزازه، فيتملَّقني، محاولاً أن يتَّقي الاصطدام بي.

- لأنَّها خرافات...
- كيف حكمت عليها؟
- الحقيقة واضحة كالشَّمس؟

ابتسم باستهزاء...

- لو كانت الحقيقة كما تقول لكانت الدُّنيا بألف خير.

قال وهو يدير لي ظهره ويخرج.

اقترب جورج الَّذي كان يتابع الحديث بيننا، كان أكثر من اختلط به في الخمسين بعد سليم:

- إنَّه رمز لإبليس.
- إبليس؟
- نعم.
- هل يعبد هذا الرَّجل إبليس؟
- نعم... بشكل ما، يعتقدون أنَّه أصل كلمة "لا" على الأرض، أصل الرَّفض، والمقاومة، وأنَّه الوحيد القادر على فهم نفس الإنسان، ولذلك رفض قانون الربِّ، ووقف في وجهه دفاعاً عن الإنسان، فهو لا يقلُّ قوَّة وبأساً عنه... والمعركة بينهما باقية حتَّى يتغلَّب أحدهما على الآخر، أمَّا الإنسان فهو ضالٌّ لأنَّه لا يعرف حقيقة إبليس... هل تعرف أين كان إبليس يوم الطُّوفان؟
- وهل كنت معه؟
- أليس إبليس من نار؟
- بلى.

- ألا يطفئ الماء النَّار؟
- بلى.
- لماذا إذن تظنُّ أنَّ الطُّوفان أغرق الأرض؟
- لا أدري.
- للقضاء على إبليس، أيُّ تبرير تقدِّمه الأساطير والأديان للطُّوفان هو تبرير لا علاقة له بالمنطق، تلك هي الحقيقة المنطقيَّة فقط للطُّوفان، هكذا يقولون، تلك كانت أكبر المعارك بينهما، وأشرسها.

"أووووه، إذن كانت جورجيت منهم...." فكَّرت، وتساءلت: "ما الَّذي يجمع ما بين جورجيت وأبي عبد الله؟"

- بماذا يؤمنون أيضاً؟ سألت.
- بأنَّ الكبش هو رمز المحرومين على هذه الأرض.
- لماذا؟
- لأنَّه كان أوَّل الرَّافضين، هو صورة الإله الَّذي اغتصبت ممالكه في السَّماء، وما زال يحارب من أجلها، لذلك تقبَّل الله قربان هابيل، لأنَّه كان يعلن بقربانه ولاءه لله الخالق، ورفضه للكبش: إبليس، لماذا برأيك رُفِضَ قربان قابيل؟

أشحت بيدي، لم أكن أريد أن أغوص كثيرا في مثل تلك الخرافات الَّتي لا تعرف كيف تبتدئ ولا كيف تنتهي.

كان جورج أوَّل من انتبه إلى أنَّ أبا عبد الله لا يترك أوراقه خلفه أبدا، كان إذا خرج يحملها معه، وإذا جلس يضعها مطويَّة بعناية إلى جانبه، وإذا نام أخفاها تحت وسادته، وكانت تلك الرُّزمة في كلِّ يوم تكبر وتكبر، ثمَّ تعود لتصغر، دون أن نعرف لماذا!

الشكُّ بدأ ينهبني بعد أن أدركت أنَّه يعبد إبليس، من الَّذي جاء به إلى الخمسين؟ وما الَّذي جاء يفعله؟ هل حقّاً جاء ليكتب كتاباً عن الحرب أم أنَّه جاسوس؟

اتَّفقت مع جورج على أن نضع خطَّة لقراءة أوراقه بأيِّ ثمن، وتفتيش أمتعته لعلَّنا نجد ما يقودنا إلى شخصيَّته.

حين خرج أبو عبد الله صباحا عدت إلى الموقع، وتسلَّلت دون أن يراني أبو علي الَّذي كان يعدُّ طعام الغداء في المطبخ، دسست يدي داخل حقيبته محاولاً ألاّ أغيِّر من شكل محتوياتها كي لا أثير انتباهه، بحثت طويلا لكنَّني لم أجد شيئاً فيها، تساءلت مخنوقا وأنا أعيد تفتيش الحقيبة من جديد: أين يذهب بكلِّ تلك الأوراق؟ وما الَّذي يكتبه فيها؟

* * *

اعترف أحمد بكلِّ شيء، انتزع منه خليل كلَّ ما يريد، على مهل، على مهل، وكأنَّه كان يريد أن يستنزفه حتَّى آخر قطرة فيه.

كان الموساد قد جنَّده أثناء الاجتياح، وأطلق يده في بيروت، يطلق الإشاعات، ويروِّج للنظريّات، ويراقب الأحداث ويرفع بها تقارير إلى مسؤوله المباشر عبر نقطة ميتة، ثمّ تطوَّرت مسؤوليَّاته إلى تجنيد العملاء، ومراقبة النُّشطاء في مخيَّمات بيروت، وإقناعهم بالهجرة إلى أوروبَّا، بعد أن يقدِّمَ لهم كلَّ الإغراءات والمساعدة الممكنة، وجوازات السَّفر الحقيقيَّة والمزوَّرة، وبلغ به الأمر أنَّه جنَّدَ سبعة على الأقلِّ للعمل مع الموساد.

كانت تلك الشَّبكة تمتلك علاقات واسعة مع الأحزاب والتَّنظيمات كافَّة، وكان لها عيون في كلِّ مكان، حتَّى شرق بيروت.

سقط فسقط معه بعض أعضاء الشَّبكة، وفرَّ منها من فرَّ.

لم تستطع دلال أن تشفع له.

سافرت إلى سوريا، وقبّلت الأكفّ والأقدام لكنّ أحدا لم يستمع إلى توسُّلاتها. كان الذّنب أكبر من أن يغتفر.

عادت خاوية الوفاض، تندب حظّها وتبكي، حمّلتني مسؤوليّة ما جرى لابنها، وأقسمت على أن تنتقم منّي.

حتّى بعد أن اعترف أحمد أنكرت أنّ له علاقة بالموساد وراحت تدافع عنه أمام النّاس، وتقسم أنّه أنقى من الثّلج.

لا عزاء في السّاقطين.

عرّجت على مقرّ التّنظيم فوجدت ليلى هناك.

كم كنت أتحرّق شوقاً لرؤيتها! لست أدري إن كان حبّي لها هو مجرّد وهم خلقه إصرارها على رفضي، أم أنّني أحببتها بالفعل، كلُّ شيء كان يقف حائلاً بيننا، بدءاً من نضال وخليل، وانتهاء بها.

كانت تجلس خلف الجهاز المركزيّ في مقرّ التّنظيم بملابسها السّوداء الّتي لم يتغيّر لونها أبداً، فوجئت برؤيتي، ونهضت مرحّبة بي، فرحت أعتذر لها عمّا جرى....

إن اقتربتَ منها فرّت منك، وتسرّبت من بين يديك كالماء، وإن ابتعدتَ عنها وجدتها تفتح لك ذراعيها على اتّساعهما، كأنّها سراب.

جَلستُ، أسقتني شاياً، ثمّ خرجنا وسرنا معاً في المخيّم.

حدّثتها عن كلّ ما جرى، أخبرتها بما فعله أَحمد بي، وبكلّ الأوامر الّتي تلقّيتها من خليل... قلت لها إنّني لم أكن سوى أداة في يد التّنظيم كأيّ شخص آخر، ولم يكن لديّ خيار.

أحسست في عينيها بإشفاق كبير...

- أحمد ما عاد يؤمن إلاّ بالمال، سقط، كان يجرُّ إلى الهاوية آلاف البشر، كان يجب أن يسقط.

- هل كنت تعرفين؟

هزَّت رأسها بالإيجاب...

- كنت أعرف...

جلسنا في المقهى، لم أكن أصدِّق أنَّا معاً من جديد، أمسكت بيدها فسحبتها من يدي.... حدَّقتُ إلى أعماق عينيها المليئتين بالحزن، والدُّموع.

- لماذا تهربين منِّي؟
- لأنِّي لست لك؟
- لمن إذن؟
- فات قطاري، ما عدت لأحد.
- له؟
- ما عاد منه إلاّ الذِّكرى.
- وأنا؟
- أنت مجرَّد حلم جميل.
- لكنِّي أحبُّك.
- لا أعتقد.
- هل تشكِّين بحبِّي؟
- أشكُّ بنفسي، وبكلِّ شيء يدبُّ على هذه الأرض.

أيُّ جنون يتلبَّسها فجأة، هكذا، بلا مقدِّمات، أيُّ حُزنٍ كان يربض في أعماق عينيها لحظتذاك، وهي على أُهبة الانفجار.

بكت، نهضت من مكانها، تركْتُ كلَّ شيء ولحقت بها، كانت ترتعش، ضممتها إلى صدري، حاولت أن أهدِّئَها، ظلَّت تبكي وترتعش كالعصفور المبلَّل بالماء، وقفنا طويلاً وهي تسند رأسها إلى صدري، وأنا أشعر بالألم يعتصر قلبي.

ربَّما كان عليها أن تبكي هذا البكاء منذ زمن طويل لكي تطرد ذلك الألم المعشِّش في أعماقها.

– صدِّقيني، أنا أحبُّكِ.

انهارت، بدا بكاؤها عواءً طويلا، بدت كذئبة أكلت السِّباعُ صغارها، أبعدتني عنها، وأمام المارَّة وقفت بعيداً عنِّي ثلاث خطوات، ورفعت فستانها الأسود إلى الأعلى كاشفة عن فخذيها فكاد يُغشى عليَّ، لوح زجاج سقط من السَّماء وتناثر إلى آلاف الشَّظايا، تطاير الزُّجاج في كلِّ زاويةٍ وحارةٍ وشارع، كدت أن أخرَّ على الأرض، أيُّ سرٍّ كانت تخبِّئ كلَّ ذلك الوقت؟ أيَّ ألم كانت تحتضن؟ أيُّ جنون كان يعتصرها؟

كان النِّصف السُفليُّ منها كلُّه مشوَّهاً تماماً، النَّار كانت قد أكلت لحمها ولاكته حتَّى اختلط بعضه ببعض، وما عادت له معالم.

– الآن بوسعك أن تجيب إن كنت تحبُّني أم لا، وسأصدِّقك.

صرخت بوجهي ما أثار انتباه المارَّة الَّذين وقفوا يراقبون المشهد مشدوهين، التفتُّ حولي، حدَّقت إلى وجوه النَّاس، ومقاعد المقهى الفارغة، وساقاها تثيران القشعريرة في بدني، مسحت وجهي بكفِّي المُرتجفة، لم أَدر بماذا أجيب، أيقدر حبِّي أن يعيد الحياة إلى هذا الجسد المذبوح؟

ظلَّت متسمِّرة تحدِّق نحوي، وأطراف فستانها بين يديها، ترتجف، وتبكي.

طأطأت رأسي، مددت يدي أَدعوها للعودة فلم تستجب.

– الآن عليك أن تجيب.

بقيت صامتاً، وقدماي ترتجفان، ما كان بوسعي أن أكذب عليها أو على نفسي.

– الآن عليك أن تجيب.

ظلَّت واقفة كالحجر، وأنا أحاول أن أقنعها بالمسير، ماذا بوسعي أن أقول لها؟ اقتربت منها، حاولت أن أضمَّها إليَّ من جديد فصدَّتني.

- الآن عليك أن تجيب.

صَرَخت، بَكَت، تجمَّع النَّاس أكثر، شعرت بالارتباك، ماذا بوسعي أن أقول؟ نظرت حولي كأنَّني أحاول أن أعتذر، كأنَّني أحاول أن أخفي فخذيها المحترقتين عن عيون النَّاس.

أعادت عليَّ السُّؤال فلم أجب، ظللت أمدُّ يدي في الهواء نحوها، أنزلت أطراف فستانها وراحت تعدو بعيدا وأنا متسمِّرٌ في مكاني أراقبها دون أن أجد في قدميَّ القوَّة على أن أتحرَّك من مكاني، لماذا لا تطاوعني قدماي على أن أركض خلفها؟ لماذا لا أعدو خلفها وأضمُّها إلى صدري من جديد وأخبرها بأنِّي أَحبُّها؟ وأنَّني قادر على أن أتعايش معها، أو على الأقلِّ أن أبذل جهدي بإرسالها إلى بلد اشتراكيٍّ لكي يجروا بعض عمليَّات التَّجميل لساقيها؟ ألم أكن أُحبُّها؟ ألا أُحبُّها بالفعل؟ ما الَّذي يجري؟ كيف تركتها تمضي هكذا مكسورة كعود حطب جاف؟ كيف استطاع شاعر مثلي أَن يتنازل بتلك الطَّريقة المقزِّزة؟ الـمُذلَّة؟ أُريد أَن أَركض خلفها، أُريدُ.... ما الَّذي أُريده بالضَّبط؟

شعرت بالارتخاء، جرجرت قدميَّ أخيراً وسرت بعيداً، بعيداً، بعيداً، وأنا أبكي.

كان مشهد ساقيها المحترقتين كبيراً، أكبر منِّي، وأوسع من البحر، وأبعد من السَّماء، كم كنت أكذب حين اعتقدت ذات يوم أنِّي أحبُّها! كم كنت أكذب عليَّ!

"أيقدر حبُّك أن يعيد الحياة إلى جسدي؟"

ظلَّ سؤالها يلاحقني وأنا أسير مبتعداً عنِّي في الفراغ والعتمة نحو العدم، دون أن أدري إن كانت هي الَّتي ألقت به أمامي، أم أَنَّه هُيِّئ لي ذلك.

* * *

وحيد اختفى فجأة كما ظهر، ثمَّ عاد وظهر فجأة كما اختفى، وعاد ليختفي من جديد.

كنت أَعرف أنَّه في لبنان ولم يعد بعد إلى درعا، لكنَّني لم أكن أعرف آنذاك أين يسكن، وماذا يفعل.

كان عليَّ أن أبدأ بإعداد العدَّة للقاء بين أمِّي وزوجة أخي في دمشق، فبدأت أبحث عمَّن يستطيع أن يوصل رسالتي إلى عمَّان، ويحضر أمِّي من هناك محاولاً أن أنسى ليلى الَّتي كانت لا تفارقني صورتها لا في اللَّيل ولا في النَّهار.

ثمَّة سائق تبرَّع أن يوصل الرِّسالة مقابل مبلغ من المال، رجوتها فيها أن تقابلني في استراحة التَّنظيم في مخيَّم اليرموك بعد أيَّام، يوم الجمعة، ووعدتها بمفاجأة لن تخطر على بالها أبداً.

رتَّبت أوراق زينب، وعيسى، وانطلقنا يوم الخميس إلى دمشق، بتنا ليلتنا في الاستراحة في اليرموك، كنت أشعر بالزَّهو والشَّوق والحنين، لكنَّ حزني على ليلى كان يسيطر على مشاعري.

أُخفي وجهي بين كفيَّ هاربا بدموعي من عيسى الصَّغير الَّذي كان قد بدأ يتعوَّد عليَّ، ويحبُّني لكثرة ما كنت أغدق عليه العطاء، لكنَّها كانت دائماً تلازمه كظلِّه ولا تتركه أبداً وحده معي.

صحونا في الصَّباح متعبين، تناولنا إفطارنا وجلسنا بانتظارها، ارتفع أَذان الظُّهر ولم تكن قد وصلت بعد، منذ الصَّباح وأنا أسأل نفسي إن كانت رسالتي قد وصلتها أم لا، وإن كان بوسعها أن تحضر أم لا، وإن كان هناك من بوسعه أن يحضرها أم لا؟

بذلت مجهوداً هائلاً وأنا أحاول أن أتذكَّر رقم هاتف صديق قديم لي كان معي في المدرسة، وضعت أربعة احتمالات للرَّقم، خرجت إلى مبنى البريد أبحث عن هاتف، وبعد أكثر من عشرين محاولة عثرت عليه.

فوجئ بصوتي، رجوته أن يذهب إلى البيت لمعرفة ما جرى مع أمِّي وإخوتي، جلست أنتظر على أحرِّ من الجمر، دخَّنت، وانتظرت، وعدت للاتصال من جديد فأخبرتني أمُّه أنَّه لم يعد بعد، أعدت الكرَّة بعد ساعة فأخبرني أنَّها رحلت من البيت.

- كيف أستطيع أن أهتدي إليها؟
- سألت الجيران، وسأسأل من جديد، بوسعك أن تعيد الاتصال عند المساء.

أقفلت الخط، وعدت أدراجي إلى الاستراحة، كانت زينب بانتظاري على أحرِّ من الجمر.

طوال الطَّريق من الجبل إلى دمشق وأنا أحدِّثها عن أمّي وعن عيسى.

جلسنا نشاهد تلفزيون عمَّان.

الأشياء البسيطة الَّتي لا تلفت انتباه أحد أحيانا تصبح أشياء عظيمة لها وقع وحنين.

شعرت بالحنين إلى الماضي، إلى كلِّ الوجوه الَّتي تركتها خلفي ولم يعد بوسعي أن أراها، عجيبة هذه البلاد الَّتي تتفنَّن في خلق الحدود، والألم، والشَّوق، والحنين، حتَّى إنَّ العبور فيها من جهة إلى جهة يصبح أحياناً أكبر الأحلام.

كان الخروج من الأردنِّ إلى سوريا آنذاك يثير حفيظة المحقِّقين الَّذين كان عليهم أن يتأكَّدوا من وجهة المسافر وهدفه!

بقينا ننتظر، كنت قد أدركت أنَّها لن تأتي، وأنَّ السائق لم يصلها ما دامت قد رحلت، وأنَّه لن يكلِّف نفْسهُ عناء البحث عنها ما دام قد قبض ثمن رحلته إليها مُسبقاً.

الأمل الوحيد المتبقِّي هو الهاتف.

عند الغروب عدت إلى البريد مع زينب وعيسى، وطلبت صديقي من جديد، أُصبتُ بالإحباط حين أخبرني أنَّه سأل الجيران جميعا ولم يعثر لها على عنوان.

عاتبتها في سرِّي، ما زالت تحترف الرَّحيل والاختباء!

ربَّما هو الَّذي أقنعها بالرَّحيل، لا بدَّ أنَّه أنهى دراسته الثَّانويَّة والتحق بجامعة بعيدة وأجبرها على الرَّحيل كي يكون قريبا من الجامعة.

كان عليها أن تترك ولو عنوانا للوصول إليها.

- ما العمل؟ سألتني زينب.
- الانتظار.... أجبت.
- لكنِّي لا أستطيع أن أنتظر طويلاً، أنت تعرف، لديَّ زوج وبيت وأولاد.
- أعرف، لن نتأخَّر كثيرا، يومان ونكون قد وصلنا إلى العنوان.

كنت متفائلا أكثر ممَّا يجب، عدت بعد يومين إلى الخَمسين خاوي الوفاض.

* * *

ما إن عدنا أنا وزينب إلى عيتات حتَّى انقلبت الدُّنيا حولنا، ثمَّة سيَّارة كانت قد توقَّفت منذ دقائق أمام موقع شملان، وترجَّل منها السَّائق، ودلف إلى الموقع، وسأل عن المسؤول، فعرَّفه مالك على نفسه.

دعاه إلى الدَّاخل فاعتذر، قال إنَّه جاء فقط لكي يخبره أن شابًّا كان معه في السَّيارة أوقفوه في بحمدون على أحد الحواجز واكتشفوا أنَّه مسيحيٌّ، فادَّعى الشَّاب أنَّه ينتمي إلى التَّنظيم، وأوصاه أن يأتي ليبلِّغ رفاقه بما جرى.

ضرب مالك كفّاً بكف وهو يشكر الرَّجل ويركض إلى جهاز اللاَّسلكي....

ركضت إلى الستّين بعد أن أدركت أنَّ المعنيَّ هو ميشيل، فوجدت خليلاً يجري مجموعة من الاتِّصالات، تدخَّل سلطان، وأبو رمزي، وحاولوا الوصول إلى شريف بيك الَّذي قام بدوره بالاتِّصال بالحاجز عبر اللاَّسلكي، فأخبروه أنَّهم قد قتلوا الرَّجل منذ دقائق فقط.

ركض خليل إلى الخارج فركضت خلفه وخلفنا كان عبد الكريم يعدو.

صعدنا إلى العربة الَّتي انطلقت تنهب الطَّريق إلى بحمدون.

كان شريف بيك قد سبقنا إلى هناك، وأقام الدُّنيا ولم يقعدها.

المئات توافدوا لا أعرف لماذا وكيف، لكنَّ منطقة الحاجز كانت تعجُّ بالبشر، رأيتهم يُخرِجون ميشيل جثَّة هامدة من خلف الحاجز، ودمه لا زال يقطر من مؤخَّرة رأسه.

طلقة واحدة فقط في الجمجمة من الخلف، وسقط ميشيل ميتا، وهو يتوسَّل أن يتحقَّقوا من هُويَّته قبل أن يقتلوه.

كانت تلك هي المرَّة الأولى والأخيرة الَّتي يخطئ فيها بإخراج الهويَّة المطلوبة في المكان المطلوب، عبثاً حاول أن يقنعهم بأنَّه ينتمي إلى التَّنظيم بعد أن أخرج الهويَّة الأخرى وقدَّمها لهم، لم يحاولوا أن يصدِّقوه فقتلوه!

كلُّ شيء هنا قابل للموت حتَّى الحجر.

لم أتمالك نفسي، تذكَّرت الوجه الَّذي أطلَّ عليَّ وأنا في الحازميَّة، تذكَّرت الكتف الَّذي رميت برأسي عليه، وبكيت.

ميشيل مات!

لم يُقدَّر له أن ينفجر بذات العبوة الَّتي زرعت أسفل سيَّارة غسّان كنفاني قبل اثني عشر عاما فمات هنا، في بحمدون، بطلقة مجنونة لم

تستطع أن تقرأ ما يجول في الرَّأس، لم تستطع أن تقرأ السُّطور خلف العينين، طلقة عمياء عمياء لا ترى ولا تعقل.

مات ميشيل!

أمُّه الَّتي ودَّعته قبل أيَّام فقط وقال لها سأعود قريبا لم تكن تعرف أنَّها ودَّعته إلى الأبد، وأودعته الموت، وسوسن الَّتي كانت لا تزال بانتظار نهاية الحرب كي يسافرا معاً إلى باريس لقضاء شهر العسل، ما عاد بوسعها أن تسافر معه.

لن يتزوَّج، ولن ينجب غسّان الَّذي حلم به طوال حياته، والَّذي سيحمل اسمه بعد مماته.

حملناه إلى بيصور وسط اعتذارات لم تنته بصعودنا إلى عربات اللاَّندروفر، أيَّة اعتذارات تُعيد إلى ميشيل الحياة؟ أيَّة اعتذارات؟

كلُّ الَّذين أعرفهم يتناقصون بلمح البصر ويموتون بلا مقدِّمات.

عليك دائما أن تقبل بالخسارة حتَّى لو كانت الخسارة هي أنت.

تحسَّست عنقي بأصابعي وتساءلت: متى يحين موعدي؟

كلُّنا مشاريع موتى.

تهالكت على مقعد وتركت لدموعي العنان، بكيت، لأنَّني لم أجد أنَّني أحسن غير البكاء، ما الَّذي بوسعك أن تفعله أمام الموت غير الصَّبر والبكاء؟

في تلك اللَّيلة جاء وحيد، وعرفت منه أنَّ ميشيل كان عائدا من زحلة باللفافات، كانت اللفافات قد أَصبحت بحوزة خليل، ولم يكن أَحد قادرا على أن يفهم ما كان مكتوبا فيها.

الوقت لم يكن يسمح بالحديث عنها، لذا ظلَّ الموضوع صامتا لأيَّام.

ترجَّل الفارس عن الحصان، وكما كان يحدث لكلِّ الفرسان صار طيَّ النِّسيان، صار مجرَّد ملامح في الذَّاكرة، وملصقا على الجدار.

كم علينا أن ندفع ثمن اعوجاج الكون، كم علينا أن نخسر لنتوِّج كلَّ خساراتنا ذات يوم بالنِّسيان!

ذكَّرت وحيداً بوعده فربَّت على كتفي.

- لا عليك.

جلسنا على حافَّة إسمنتيَّة عند مدخل الستِّين، ورحت أروي له ما يجري، وكيف أنَّ الثَّورة تسير على ماءٍ آسن.

لا شيء صلب تتشبَّث به بكفَّيك فيقيك شرَّ السُّقوط، أو الهبوط، لا أرض صلبة تسير عليها فتقيك من الانزلاق.

سألته عن الكبش المرسوم على كتف أبي عبد الله، فأخبرني بأَنَّه باب تروِّج له "إسرائيل" لتدخل منه إلى العقول، وأَنَّه مجرَّد وهم كذَّاب، سألته عن منطق وجود رجل مثله بيننا في عيتات، فأخبرني بأنَّه سعي واهم وراء الرَّأي العامِّ العالميِّ الَّذي بات الجميع يتحدَّث عنه، وكأنَّه قدر.

دلفنا إلى الستِّين وما إن جلسنا حتَّى دخل مروان الصَّفدي، عاد من صور خصِّيصا متحمِّلا عناء الخروج والعودة كي يرمي أمامي بتلك الورقة ويعود أدراجه، قرأت الورقة مرَّتين فلم أفهم ما فيها، حدَّقت إليه متسائلاً بينما كان خليل يمسك بالورقة بين يديه، قطب حاجبيه، وأعاد قراءتها مرَّتين، ثمّ ناولها لوحيد...

أشار مروان إلى خليل وهو لا يزال ينظر لي:

- هو قد فهم كلَّ شيء.

كانت تلك الورقة صورة عن شهادة ولادة زينب، وما إن رأى خليل اسمها حتَّى ضرب على جبينه بكفِّه وهو لا يصدِّق.

- هل أنت متأكِّد؟

- لو لم أكن متأكِّداً لما جئت بها إليك.

- كيف؟

- ذهبت وتأكَّدت بنفسي من أهل زينب، زينب ابنة الفرَّان ماتت منذ سنوات، كانت بالفعل قد تزوَّجت عيسى قبل أن يموت بأيَّام، لكنَّها لم تنجب منه أطفالاً.

كنت أتابع الحديث وأنا لا أفهم ما يجري، نظر خليل نحوي ونحو وحيد:

- زينب الَّتي جاءت هنا ليست زينب ابنة الفرَّان، هذه المرأة هي شقيقة أبي الفوز.

صاعقة نزلت على رأسي فلم أعد أستطيع الوقوف على قدميَّ.

لم أصدِّق ما أسمعه.

- كيف؟
- هذه المرأة الَّتي جاءت هي شقيقة أبي الفوز.
- كيف؟
- الآن فهمت لماذا يطالب أبو الفوز لها برواتب عيسى منذ استشهاده حتَّى الآن..... ضرب على جبينه... الآن فهمت ذلك الكرم، وتلك الأخلاق... قال خليل.

فغرت فمي لا أصدِّق ما أسمع.

أيَّة فكرة جهنَّمية خطرت له؟ وكيف تلاعب بي بكلِّ تلك البساطة، وبمشاعري، وبكلِّ التَّنظيم؟

- ثلاثون ألف دولار إذا افترضنا حسن نيَّة فتح، قال خليل.

تساءلت في سرِّي إن كان ذلك المبلغ يستحقُّ أن يبيع أبو الفوز كلَّ شيء من أجله.

تذكَّرت إحدى الجارات وهي تروي لأمِّي كيف كانوا يخدعون موظَّفي الأمم المتَّحدة بعد الهجرة، ويقومون بتسجيل شخص ميت في التّعداد للحصول على حصَّة إضافيَّة من المؤن الَّتي كانت تقدِّمها الأمم

المتَّحدة للمهجَّرين، كنت حينئذ أيضاً أتساءل ببراءة: هل حصَّة المؤن تلك مهمَّة إلى ذلك الحدِّ؟

أبو الفوز بعد التَّحقيق معه أجاب عن سؤالي.

لو كان الأمر بيدي لعفوت عنه، ولاعتبرت أنَّ شيئاً لم يكن، لكنَّ الأمر كلَّه كان في يد التَّنظيم، شكرت الله لأنَّني لم أجد أمِّي، ولم تصلها رسالتي الَّتي وعدتها فيها بمفاجأة لن تصدِّقها ففوجئت أنا برحيلها، وفوجئت فيما بعد بأنِّي مخدوع حتَّى النُّخاع!

أبو الفوز برَّر الأمر قائلاً إنَّه كان يرى شقيقته طوال عمره وهي تعيش الفاقة والفقر والعوز، دون أن يستطيع أن يقدِّم لها شيئاً، فقرَّر أن يفعل ما فعل لعلَّه يقيها شرَّ الفقر.

قال إنَّه لم يكن يريد شيئاً لنفسه، كان يريدها ألاّ تمدَّ يدها للنَّاس الَّذين كانوا إذا ما أعطوها ساوموها، لأنَّ زوجها مات بقذيفة في الحرب، وذنبه أنَّه لم يكن قد سجَّل اسمه مع أيِّ تنظيم كبقيِّة النَّاس الَّذين اتَّخذوا من التّنظيمات مصدر رزق وتكسُّب.

قال إنَّ ذلك لم يكن ليضرَّ بأحد، وإنَّه كان سيطلعني على الحقيقة بعد أن يحصل لها على المال، لم يكن نادماً على ما فعل، قال إنَّ الغاية أسمى من الوسيلة بكثير.

طردوه، فخرج بعد أن لملم أشياءه غير نادم على شيء، عانقته حين خرج، ودَّعته، وشددت على يده، واعتذرت منه، وسامحته.

عالم ينهار كأنَّه من طين.

عالم يحترق كأنَّه من ورق.

اختفت زينب، واختفى الحلم.

أيُّ كفر وأيُّ جنون؟

انهارت الأحلام وعدت إلى نقطة الصِّفر أو أقلَّ بقليل.

لماذا يعود الصِّفر دائماً فارداً ذراعيه الحديديَّتين ويحتويني، ويعصر عظامي؟

لم أكن أريد أن أخسر كلَّ شيء دفعة واحدة.

لم أكن أريد أن أصدِّق أنَّني صدَّقتها مخدوعا، وعانقتها مخدوعا، وأحببتها مخدوعا، ورحت أبحث عن أمِّي لكي أخبرها عن حفيدها مخدوعا، لا أريد أن أصدِّق أنَّني كنت مخدوعا إلى ذلك الحدِّ.

لملمت جراحي وطويت سرِّي بين ضلوعي.

أريد أن أكتب فيفرُّ الكلام منِّي، الواقع أكبر من الكلام، الحياة أكبر من تلك الخرافات الَّتي نكتبها كي نذود بها عن ذواتنا.

أيُّ ألم، وأيُّ حزن!

أريد أن أفرَّ إلى حرب السَّكاكين.

أيُّ فرار من الحرب، والحرب تحاصرك وأنت وقودها؟

جاؤوا في اليوم التَّالي بوجه جديد إلى الخمسين كي يسدَّ الفراغ فيه، كان سيريلانكيَّاً من أولئك الَّذين كان يعجُّ بهم لبنان، أولئك الَّذين كانوا يبحثون في أيِّ فراغ في هذا العالم عن عمل، ولا يضيره لو خدم مع نمور التَّاميل – القوَّة الانفصاليَّة في سيريلانكا – في ذات الثَّورة ما دام يقبض راتباً آخر الشَّهر، وأصبح أبو علي مسؤول الخمسين.

* * *

عاد السَّائق، ولم تعد عظام عيسى إلى بيروت، لم يجد أحدا في العنوان الَّذي أعطيته له، فقرَّر أن يدفنها بالسرِّ تحت أنقاض بيت مهدَّم مهجور، لم يشأ أن يخاطر بإعادتها مجَّاناَ، لذلك اقترح أن أدفع له مقابل إعادتها، ولأنَّني لم أكن أملك المال قرَّرت أن أتركها حيث دفنها، كتبت

العنوان الَّذي أعطاه لي، على أمل أن أجد أمِّي ذات يوم فأخبرها بمكانها.

منذ ذلك اليوم لم يتوقَّف بحثي عن أمِّي، كنت كلَّما سافر أحد إلى عمَّان أوصيه بالبحث عنها، وكلَّما عاد أحد أعود وخيبتي تملأ وجهي.

ثمَّة علاقة غريبة بيني وبين الشَّمس، كلَّما غابت وراء الغيوم الدَّاكنة شعرت بالكآبة والحزن، حين تغيب الشَّمس يعني أنَّ كلَّ شيء قابل للغياب.... غياب الشَّمس هو أوَّل الصِّفر، وعودتها بداية الحياة!

كان الورد قد بدأ بالظُّهور على الأشجار الَّتي اكتست خضرة بعد أن ذاب الثَّلج، جمعت باقة، فعبِقت رائحتها بصالة الخمسين، فهزَّ أبو علي رأسه ممتنَّاً.

كلُّ شيء قابل للزِّيادة والنُّقصان!

كيف يمكن لي أن أتقن الحياة مثلما أتقن الموت؟ وهل أتقن الموت مثلما أتقن الحياة؟ وهل أتقن الحياة أصلا أم أنَّني جئت كيفما اتُّفق؟ وأعيش كيفما اتُّفق؟ وسأموت كيفما اتُّفق؟

كلَّما سقط أحد تضع كفَّك على عنقك، وتسأل: متى يحين موعدي أنا؟

كلَّما سقط أحد تسأل: هل كان الموت عبورا من حالة إلى حالة؟ هل كان الموت صعباً؟ طويلاً؟ قصيراً؟ هل ثمَّة مِنْ كلِّ ما يُقال عن الموت ما هو صحيح؟ أم أنَّ ما يقال هو مجرَّد اجتهادات لا صحَّة لها، ولا علاقة لها بالحقيقة؟ هل هو نوم أبديٌّ أم خلود؟ هل الله موجود؟ هل ينتظر عودتنا من رحلتنا الطَّويلة كي يحاسبنا على ما اقَتَرفتْ أيادينا من آثام؟

أيُّ تناقض كان يضجُّ به رأسي؟ لم يكن بوسعي أن أعبِّر عن قلقي ببساطة مثلما فعل أبو عبد الله، لذلك كنت أحسده، الموت لعنة تطارد

الإنسان من الأزل إلى الأبد، وهو يتجلَّى هنا، في عيتات الملعونة أكثر ما يتجلَّى.

الحرب هي أصابع الموت الَّتي تلتقط الرُّوح وتلقي بها إلى الهاوية.

غسلت وجهي بالماء البارد، وخرجت إلى قبر شمون، اشتريت زجاجة عرق وجلست عند النَّبع أشرب وأفكِّر.

ليلى ماتت، أو ربَّما أنا متُّ، منذ أن هربت منها، منذ أن تركتها وحيدة وعدت وأنا لا أستطيع أن أنسى خسَّتي.

هل كان نضال يعرف ذلك ويخفيه؟

الآن تنفتح الكلمات على الخديعة، والصَّمت، الآن صار للصَّمت صوت يشبه نزيز همسها، وضحكها، وبكائها، وسكوتها.

كنا التقينا ذاتَ حُلم في الحلمْ
تتشابَكُ الأَسماءُ، والأَقدارُ
مِثلَ شَوارع المُدُن الكَبيرَةِ في الزِّحامْ
ما كانَ لي غَير الصَّدى
وَرَسائِل الأَحباب والأحلامْ
أَمشي لأَنِّي واقِفٌ
وَالظِلُّ يَمشي في الظَّلام وَيَنحَني
ما عادَ وَقتي كافِياً
ظِلِّي يَنوءُ بِحِملِهِ
أَلبَستهُ مُنذُ الطُّفولَة ثَوبَ ماءٍ باردٍ
عَلَّمتهُ طولَ المَسير
حَذوته
لكنَّهُ يَنسى وَصايا الأَنبياءْ
لا فَرقَ بَينَ مُحارِبٍ وَمُكابِرٍ

بَعضُ الوَصايا تَقبَلُ التَّأويل:
مَملَكَةُ الفَراغ
وَبيتُ شِعر حالِم
حِبرُ الحَقيقَةِ
وَالسُّؤالُ عَنِ السُّؤال
وَظلٌّ أنثى في الرَّسائِل
قبلَةٌ...
وَشِعارُ مَن رَفَعوا شِعارَ هَزيمَةِ الأيَّامْ
ما غادَرَ الشُّعَراءُ مِن حُلم
وَلكنِّي عَلى إيقاعِ أَنفاسي
أُرَتِّبُ وَحدَتي وَحدي
بَقايا اللَّيل أَنشُرُها عَلى أَطرافِ شُبَّاكي
أُعِدُّ القَهوَةَ السَّوداء
أَكتُبُ عَن رَمادِ الحُلم والمَنفى
عَنِ امرَأَةٍ تعِدُّ اللَّيلَ لِلعُشَّاق
تَكسرُ شهوة الأَحزان
وَالذِّكرى
مَن يَعرِفُ الأَحزانَ مِثلي يا رَفيقةُ؟
عَلَّمتني وَحدَتي حُمَّى السُّؤال
ووحدَتي مَع ما تَرَكتُ وَراءَ عُمري مِن أَنايَ:
قَصيدَةَ الذَّاتِ الَّتي ذُبِحَت أَمامي في الزِّحامْ

* * *

لجأت إلى خليل، منذ زمن ونحن لا يجمعنا إلاّ سلام عابر، أو أوامر أنفِّذها بلا نقاش، كان قد غسل يديه منِّي، ولم يعد يوكل لي أيَّة مهمَّات، كنت قد أخفقت بنظره في مهمَّتي الأولى بجدارة.

بعد أن مات ميشيل، صار جورج ذراعه الأيمن، جورج رجل غريب، كلَّما تعلَّم العربيَّة تعلَّم معها القدرة على الاحتمال، وكأنَّها لغة تدرِّب أهلها على الصَّبر، وقوَّة الاحتمال، وكثرة الكلام.

رأيته مؤخَّرا يعذِّب نفسه أكثر ممَّا يجب، يدرِّبها على الصَّبر، والخضوع، يجوع لأيَّام، يحبس نفسه في مكان ضيِّق مغلق لأيَّام، يتدرَّب على تطويع الجسد، والرُّوح، ما الَّذي كان يسعى إليه بالضَّبط؟

اللُّغة جزء لا يتجزَّأُ من شخصيَّة الإنسان، كلَّما اختلفت لغته اختلف كلّ شيء فيه، كيف يتغيَّر البشر؟ وهل تتغيَّر الدُّنيا أم نحن الَّذين نتغيَّر؟ لا أدري، كلُّ الَّذي أدريه أنِّي أحاول أن أمسك برأس الخيط فأفشل.

جورج بعد موت ميشيل أصبح الأقرب إلى خليل، لذلك نقله خليل إلى الستّين، وأَرسل ثلاثة من السِّيريلانكيين إلى الخمسين.

صار الخمسين غريباً لا يطاق! لم أعد قادرا على تحديد اتِّجاه البوصلة، لململت حزني، وألمي، وجسدي، وسرت مترنِّحاً إلى الستِّين، ربَّما تكون أوَّل خصلة يتمُّ اختيار رجل الأمن على أساسها هي خصلة الحزن، فرجال الأمن لا يحزنون أبداً، وكأنَّهم بلا قلوب، لذلك كان فشلي مؤكَّداً سلفاً قبل أن أبدأ عملي مع خليل.

جلست أمامه ورائحة العرق تفوح من فمي، كنت أكثر حزناً على ميشيل منه، طلب من جورج إعداد القهوة، فشربتها وأنا أشعر برأسي يدور، وبرغبة في التقيُّؤ، سألته إن كان يعرف مسبقاً حين أوكل لي مهمَّة متابعة أحمد عن تلك الحروق الَّتي نهشت نصف جسد ليلى السفليّ،

فأخبرني بأَنَّه لم يكن يعرف شيئاً عنها آنذاك، لكنَّ أحمد في معرض اعترافاته الطَّويلة اعترف بأنَّه قدَّمها على طبق "للقوَّات" ليلة المجزرة، اعترف أمامهم بأنَّه عميل لإسرائيل لكنَّ ذلك لم يشفع له لديهم، وقف متفرِّجاً وهم يغتصبونها واحداً وراء الآخر، واعترف أيضاً بأَنَّه كان أوَّل من اغتصبها حين كانت في العاشرة من عمرها، قبل المجزرة بكثير، أيَّام تلِّ الزَّعتر.

اغتصبوها واحدا وراء الآخر، واغتصبوا شقيقتها، بعد أن قتلوا سعدي الصَّغير حين استلَّ سكِّيناً وحاول أن يدافع عن شقيقتيه، وأمُّ أحمد مغمى عليها، بعد أن ضربوها بكعاب البَنادق.

رُفِعت الأقلامُ، وجفَّت الصُّحف!

سكبت على نفسها الكاز وأشعلت بنفسها النَّار، وحين حاولت شقيقتها أن تنقذها احترقت وهي تحاول أن تطفئ النَّار الَّتي اندلعت في جسدها، لكنَّ الأوان كان قد فات.

ماتت شقيقتها، وظلَّت هي على قيد الحياة تندب حظَّها العاثر، وتتألَّم.

رُفِعت الأقلامُ، وجفَّت الصُّحف!

أيُّ بكاء فوق الأرض سيتَّسع لعينيَّ، أيُّ وعاء فوق الأرض سيتَّسع لمصيبتي؟ أَيَّة كلمات ستتَّسع لكلِّ هذا الحزن؟

تركتُ الستِّين ورحت أعدو، وأعدو، وأعدو.

أَشرت إلى سيَّارة عابرة، حملني صاحبها إلى جلالا، طوال الطَّريق وأنا أُقاوم البُكاء، طوال الطَّريق وأنا أَهذي، وأَرتجف من شدَّة انفعالاتي، كيف استطاع أَن يفعل كلَّ ما فعل؟ كيف اغتصبها وهي طفلة؟ أَلم يتقيَّأ بعد ذلك؟ أَلم يبكِ؟ ثمَّ كيف وقف مكتوف اليدين ليلة المجزرة متفرِّجاً؟ إن هان شيء يهون كلُّ شيء! إن كان هو الذِّئب فكيف سيلوم بقيَّة

الذِّئاب؟ الآن فقط فهمت سرَّ حقدها الدَّفين عليه، الآن انكشف السرُّ وظهرت الشَّمس جليَّة واضحة في السَّماء، أيَّة حقيقة مجنونة كانت تحمل على كتفيها الصَّغيرين كلَّ هذه السِّنين؟

أُريد أَن أُغرق هذا العالم بالدَّمع، وبالدِّماء.

الحقيقة أعمتني، ذبحتني، وما كان يذبحني أَكثر هو أَنِّي بين الحين والآخر كنت أَتذكَّر خسَّتي، وقذارتي وأنا أراها تبتعد عنِّي دون أَن أُحرِّك ساكناً، كيف استطعت أَن أَفعل ذلك؟ ما الَّذي كانت تفكِّر فيه بالضَّبط لحظتها؟ هل شبَّهتني بأحمد؟ هل قالت لنفسها وهي تضحك هازئة في سرِّها: كلُّ الرِّجال سواء؟ ماذا قالت عنِّي؟ وأَيُّ شعور مجنون كان يتلبَّسها وهي تتركني مبتعدة نحو العَدم؟

ترجَّلت من السيَّارة، ركضت نحو سجنه، طلبت من الحارس الواقف أمام الباب أَن يفتح لي الباب فرفض، خطفت بندقيَّته من يديه وسحبت "الأقسام" ووضعت فوَّهتها في رأسه، امتدَّت يده إلى المفتاح ببطء، فتح الباب، ووقف جانباً، نهض أحمد على قدميه، تجمَّد فجأة في مكانه حين رأى ما تنضح به عيناي، غبت عن الوعي تماماً ولم أصح إلاّ وجثَّته مكوَّمة بين قدميَّ، ودمه يملأ الجدران، والأرض، أطلقت عليه ثلاثين رصاصة، والحارس الواقف أمام بابه لا يزال يحدِّق إليَّ باستغراب غير مصدِّقٍ ما جرى أمام عينيه.

كان يجب أن يموت.

كان يجب أن يموت.

ألقوا القبض عليَّ، اعتقلت خمسةَ أشهر لم أشعر خلالها يوماً بالنَّدم على ما فعلت، كان يجب أن يموت، ومات.

(20)

هل أنا مجنون؟!

ضحك الباشا، كان قد رسم دائرة بإصبعه فوق البلاط، ورحت أنا أدور في محيطها كالقِطار، وكأَنَّها طوق محكم، أشعل سيجاراً فاخراً ونفثَ دخانه في الهواء:

- أَين كمال؟ سألته وأنا أدور.
- كمال عاد من حيث أتى، كمال لا يستطيع أن يتقن العربيَّة، لذا عاد يرطن بلغة أهل الشِّمال.
- الشَّمال؟
- الشِّمال!

تقيَّأت، وارتجفت، كنت أبحث عن ثياب تصلح للحداد لكنِّي لم أجد إلاّ ثياباً بيضاء.

- الزَّمن تغيَّر، ما عاد أحد يلبس الحداد على أحد، صار النَّاس أكثر إيمانا بالقدر، الله الَّذي خلق النَّاس هو الَّذي كتب الموت، فلماذا تعترض على مشيئته وتلبس الحداد؟ سأَلني.
- لست أَدري! أَجبت....

كنت أرتجف، لست أَدري أين كنت، وماذا كنت أَفعل، كلُّ شيء كان كالخيال.

- لماذا بقيتم مصرِّين على ما كنتم مصرِّين عليه؟ سأله رجلٌ كان يقف في زاوية الغرفة ذليلاً.
- لأنَّنا كنَّا قد اتَّفقنا على أنَّه مات، هل تعتقد أنَّنا أولاد؟
- حاشا لله.

ضحك الباشا واهتزَّ كرشه الكبير، كان كلَّما ازدرد شيئاً يشرب وراءه الماء كي لا يغصَّ به، حكَّ فتحة استه، وقرَّب سبَّابته من أنفه، واشتمَّها، هزَّ رأسه وابتسم.

- هل تعتقد أنَّنا أولاد؟
- حاشا لله، حاشا لله.
- ماذا إذن سنقول للندن؟ مات وعاد إلى الحياة؟ ماذا سنقول لواشنطن وباريس، كنَّا نكذب عليكم؟ ونلفِّق الأسماء والدَّلائل؟ لحم كلاب في ملوخيَّة، كلُّهم أولاد شرموطة، هؤلاء الشيوعيُّون كالسُّوس يفسدون الشَّجر، هل سنقول إنَّا أولاد؟
- حاشا لله، حاشا لله، لكنَّ بيريز يا سيِّدي مصرٌّ على أنَّه سعيد، ماذا سيقول لهم؟
- بيريز حرٌّ، ذلك شأنه، أما نحن فلدينا مبادئُ وقيمٌ وأخلاق.

بوسعك دائماً أن تهرب من هذا الكون، أن تفرَّ منك، لكنَّ الكون ليس إلاّ ما تعجنه أنت، ما ترسمه، وما تصدِّق به، الكون أعمى وأنت الَّذي يرسم له عينين، أنت عكَّازه وبك يشقُّ الطَّريق إليك.

كنت قبل ألف عام مجرَّد فكرة عابرة، لا معنى لها، والآن ها أنت كما أنت، تخطو إلى الأمام ولا تقع، السَّير على القدمين ليس إلاّ وقوعاً مستمرّاً أتقنته ذات يوم فما عدت تسقط، فلماذا إذن سقطت الآن من كلِّ هذا العلوِّ؟

كلُّ شيء في الكون خاضع للعبة الكلمات، والحواسِّ، والدَّال، والمدلول، كلُّ شيء يدور في فلك الكلمات فاحذرها، واحذر أن تسقط في بئرها العميق.

كلُّ قاموس في هذا الكون يحيلك إلى قاموس آخر، ستبقى دائماً تائها تلهث خلف الكلمات خلف الدَّال والمدلول، تبحث عن معنى لاسمك فلا تجد له معنى، سوى ذلك المعنى الَّذي سيحيلك إلى معنى جديد، وستسأل، دائماً ستسأل: من أنا؟ فيك أنت، فقط فيك أنت تكمن الحقيقة، ويكمن الجواب.

(21)

السِّجن تغيَّر، ما عاد مجرَّد حفرة تحت الأَرض.

الحفرة كانت هي السِّجن الحقيقيُّ، أَما هذا السِّجن فهو شيء آخر.

اقتادوني مكبَّل اليدين والقدمين إلى مخيَّم نهر البارد في طرابلس، استقبلني الرِّفاق هناك وأَخذوني بالأحضان، كنت أَعرف اثنين منهم: عبد الفتَّاح، وأَمجد، كانا كثيراً ما يأتيان إلى عيتات لزيارة خليل.

فكُّوا وثاقي، وأجلسوني في غرفة الحراسة، جاء بعد قليل يحيى – مسؤول التَّنظيم في المخيَّم– صافحني، رحَّب بي، وجلس.

قال لي إنَّهم جاؤوا بي إلى البارد خوفاً على حياتي من انتقام مَنْ يمكن أن يكونوا وراء أَحمد: الموساد، أو أهله، أو بعض أَعوانه، أَو أَصدقاؤه، أَو حتَّى فتح الَّتي يمكن أَن تفطن له وتطالب بدمه بضغط من أُمِّه، وأَنَّ السِّجن ليس سجناً بالمعنى الدَّقيق.

- لكنَّه عميل للموساد، كيف ستدافع فتح عنه؟ سأَلته.
- حين نكون قد أَثبتنا لهم ذلك تكون أَنت قد متَّ، أَجاب، ثمَّ أَضاف:
- أَنت طبعاً لا تعرف أَنَّ هناك من كان يفاوض لإخراجه من السِّجن، لقد اختصرت أَنت كلَّ شيء وأَرحتنا من عناء المفاوضات بشأنه، كان يجب أَن يُعدم في ساحة الـمُخيَّم ليكون عبرة لغيره.

كان يحيى دمثاً، طيِّب القلب، مخلصاً لعمله، مؤمناً بالتَّنظيم، وكثيراً ما جاء بعدها لزيارتي والاطمئنان على أَحوالي.

أَفرد لي الرِّفاق غُرفة في المقرِّ، كنت شبه سجين، كان بوسعيَ أَن أَفعل كلَّ ما أُريد باستثناء الخُروج إلى الشَّارع، تكتَّموا حول وجودي هناك، أَحاطوني بكلِّ العِناية حتَّى أنِّي أَحياناً كنت أَشعر بالخجل من لطفهم.

جاؤوني بكلِّ الكتب الَّتي طلبتها، كنت أَقضي يومي بالقراءة والكتابة، أَشياء كثيرة كانت غائبة عنِّي من قبل صرت أُدركها جيِّداً، وكثيراً ما كُنَّا نتحاور ونتجادل حتَّى ساعة متأخِّرة من اللَّيل.

أَكثر ما كان يجذبني هو قصَّة اللفافات الَّتي باتت لغزاً محيِّراً بالنسبة لي.

كنت أَتحرَّق شوقاً لمعرفة ما جرى باللفافة، لكنَّ أَحداً لم يكن بوسعه أَن يفيدني بأَيِّ خبر عنها، لم يكن ثمَّة من سمع عن الموضوع بعد.

كنت أَقضي لياليَ كثيرة وأنا أُفكِّر بليلى، وأَبكي بالسرِّ خوفاً من أَن تفضحني دموعي أَمام الرِّفاق.

كيف استطعت أَن أُدير لها ظهري بتلك السُّهولة؟

تساءلت مرَّة أَمام يحيى عن المدَّة الَّتي كان عليَّ أَن أَقضيها في ذلك المكان فلم يجب.

كنت أَعتقد أَنَّني سأقضي سنينَ في سجني ريثما تهدأ الأمور، ويُنسى أَحمد، لكنَّني كنت مخطئًا.

جاء وحيد بعد خمسة أَشهر، في نهاية العام، قبل رأس السَّنة الميلاديَّة بيوم واحد، وعانقني.

ظهر في تلك الأثناء، فأحسست أنَّه سقط من السَّماء.

- وفيت بوعدي، قال وهو يشدُّ على يدي.

- كيف؟ لم أفهم.
- ستفهم ذات يوم.

كان عائداً في تلك الأيَّام من لندن... وكانت اللفافات قد فُقدت.

أخبرني أنَّهم بذلوا مجهوداً هائلاً لجمع قطع اللفافة المتآكلة الَّتي تشظَّت إلى آلاف القطع الصَّغيرة الَّتي لا يجمع بينها شيء.

كانوا قد استقدموا علماء من الاتِّحاد السُّوفييتي، بدؤوا فور وصولهم بحثا طويلاً شاقًّاً ووصلوا اللَّيل بالنَّهار وهم يجمعون شظايا اللفافة، كانوا على وشك نقل اللفافة إلى موسكو حين سرقت، جنَّ جنون السُّوفييت، والسُّوريين، وراحوا يحرثون لبنان شبرا شبرا بحثا عن اللفافة إلاّ أنَّهم لم يصلوا إلى أيَّة نتيجة.

من الَّذي سرق اللفافة؟

كان لبنان يغصُّ بكلِّ أنواع البشر، بكلِّ المخابرات، بكلِّ الدُّول، كان ألف ألف دولة في دولة بحجم الكفِّ أو أصغر بقليل.

أيَّة خسارة تقابل بذلك البرود، أيَّة هزيمة تقابل بذلك الصَّمت؟

اعتبر وحيد نفسه مسؤولاً عن تلك الخسارة، فراح يبحث هو وخليل عنها، بعد أن وظَّفوا العشرات حول العالم للبحث عن السَّارق الَّذي فرَّ باللفافات وسلَّمها "لإسرائيل".

العميل اعترف، وقتل في لندن، لكنَّهم عادوا بدونها.

اللفافة أصبحت داخل فلسطين، ولم يعد بالإمكان استعادتها.

اقتادني إلى عيتات الَّتي لم تعد عيتات، إلى الخمسين الَّذي لم يعد الخمسين.

وتيرة الأحداث في لبنان كانت لا تقاس بالزَّمن، كانت خارج الزَّمن.

ثمَّة ملايين الأحداث الَّتي لا يمكن لك أن ترصدها في اللَّحظة الواحدة، وتسجِّلها.

كان كلُّ شيء قد انقلب خلال الصَّيف!

أبوعلي حين أحسَّ بأَنَّ الرَّقابة تضيق عليه، ترك رسالة خلفه يعتذر عمَّا فعله بعد أن سدَّد دينه، اعتذر عن سرقة الذَّخيرة وبيعها لأبي أرسلان الَّذي كان يتاجر في السُّوق السَّوداء، ووعد أن يسدِّدَ للتَّنظيم ذات يوم كلَّ ما سرقه حين تتحسَّن أحواله.

ترك الرِّسالة وغاب، ولم يره أحد بعد ذلك.

وصدى كتاب أبي عبد الله الَّذي ثبت أنَّه كان يهرِّب أوراقه أوَّلاً بأوَّل من خلال أبي أرسلان ذاته إلى خارج لبنان كان يملأ أوروبَّا الَّتي وقفت تنادي بإخراج من تبقَّى من المقاتلين الفلسطينيِّين من لبنان حفاظاً على حقوق الإنسان الَّتي تُخرق كُلَّ يوم أمام العالم في العلن، وبلغت الأمور مطالبة فرنسا بالتَّدخُّل من جديد عسكريَّاً في لبنان لفضِّ النِّزاع، ووقف الحرب، وطرد ما تبقَّى من المقاتلين الفلسطينيِّين منها، بعد أن حمَّلتهم مسؤوليَّة كلِّ ما كان يجري هناك!

صار أبو عبد الله أشهر من نار على علم، لكنَّه لم يصبح ثريَّاً كما كان يحلم لأنَّه كان قد قُتل!

كان سليم قد عاد للتوِّ من رحلة علاج طويلة في بلغاريا.

صغيراً كان، لفظته الدُّنيا من أحشائها فظلَّ يحلم بالسَّفر، يحلم بأن يكون مثل دافنشي، مع أَنَّه لم يكن يعرف شيئاً عن دافنشي حتَّى اسمه...

حين سألته عمَّا يعرفه عن دافنشي خبَّأ خيبته وخجله خلف عينيه وابتسم...

- كان عظيماً ومشهوراً.
- وماذا كان يصنع؟
- مغنّياً كما أَذكر.

ضَحِكتْ، ساذجاً كان سليم، لم يكن يعرف سوى أنواع الخضروات، ومواسمها، وأسعارها باللَّيرة السوريَّة، حتَّى ألمانيا نفسها لم يكن يعرف أين تقع.

كنت أركض وراء المعرفة، أدوِّن في دفاتر كثيرة كلَّ ما تصل إليه معرفتي، محاولاً أن أقتدي بوحيد الَّذي كان لا يترك سؤالا إلاّ وأجاب عنه، كنَّا نحاول أن نعرف كلَّ شيء إلاّ ذواتنا! كنَّا ننسى ذواتنا ونسبح بعيداً وراء التَّيار الَّذي كان يقودنا للأعماق، ثم اكتشفت بعد كلِّ هذه السِّنين أنَّ المعرفة ليست إلاّ أكياسا من الرَّمل تضعها على كتفيك لكي تثقل كاهلك، وتزيد من ألمك وهمَّك وسهرك وتعاستك.

كان سليم يتَّقي شرَّ المعرفة بالجهل، والابتسامة البريئة، وكانت ألمانيا بالنِّسبة له جنَّة عرضها السَّموات والأرض لم يفلت من حدودها سوى مخيَّم النَّيرب، وعيتات.

حين ضبطته ذات يوم يقبِّل نفسه في المرآة لم يخجل منِّي كما توقَّعت، بل التفت إليَّ وابتسم:

- أتدرَّب على تقبيل النِّساء، هل تتوقَّع أنَّهم يقبِّلون الشَّفة العليا أم السُّفلى حين يقبِّلون؟ كنت أراهم في التلفاز......

ابتسمت بوجع، وربتُّ على كتفه.

ما كان يجب أن نتركه فريسة سائغة بين فكَّيْ أبي عبد الله الحديديَّين.

الآن ما عاد له شفة سفلى ولا فكٌّ سفليٌّ، وما عاد بوسعه أن يقبِّل امرأة قط، ثمَّة رصاصة اخترقت أسفل الفكِّ السُفليِّ وخرجت من فمه فمزَّقت فمه ولسانه، حملوه إلى المستشفى وهو ينزف، وشيَّعوا أبا عبد الله إلى مثواه.

لم يستطع أحد أن يعرف ما جرى بينهما بالضَّبط، كانا وحيدينِ في الخندق حين سمعت عيتات عند العاشرة صباحا صدى صوت خمس طلقات، ثمَّ أُتبعت بطلقة واحدة فقط، وهدأ كلُّ شيء.

هرعوا جميعاً إلى مصدر الصَّوت، وجدوه ممدَّداً إلى جانب أبي عبد الله ينزف، وأبو عبد الله قد فارق الحياة، حملوه إلى المشفى، أجروا له عمليَّتين ثمَّ أرسلوه إلى بلغاريا، فعاد بعد أشهر بفكٍّ صناعيّ، كان قد فقد معظم لسانه فلم يعد يتكلَّم، وما عاد قادراً إلاّ على تناول السَّوائل فقط، وصار بحاجة إلى من يرعاه، رفض الذَّهاب إلى اليَرموك، أو النَّيرب، وآثر أن يبقى في عيتات، ملازماً لأبي طلال، يؤنس كلٌّ منهما وِحدَةَ الآخر، ولم يعرف أحد تماماً ماذا جرى بينه وبين أبي عبد الله في ذلك اليوم.

الغربة قاسية، وأنا غريب أسند رأسي بعد ستَّة حروب على ح... ج.... ر.

الأنبياء وحدهم كان بوسعهم العبور دون وقوف أمام الإشارات الحمراء الَّتي امتلأت بها الشَّوارع، ولا بدَّ أنَّ ثمَّة من سقط منهم ولم تأت على ذكره الكتب، لأنَّه ما عاد نبيَّاً بعد السُّقوط.

الطَّلقة الَّتي أخطأت رأسي ألف مرَّة حيَّرتني، والحبُّ الَّذي أخطأني ألف مرَّة عذَّبني، وما زلت أدور باحثاً عن نفسي.

كلُّ البلاد كانت أكفُّها اليمنى مشغولة بالدُّعاء، وأكفُّها اليسرى مشغولة بالاستمناء.

من دخل بيتي فهو آمن، ومن دخل بيت أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل الجنَّة فهو آمن.

أين ضاع التَّاريخ؟ وأيُّ يد لم تغتسل بالدَّم الفلسطينيِّ بعد؟ حتَّى يد الفلسطينيِّ ذاته جرَّبت حظَّها في دم الفلسطينيِّ.

لم أكن أتخيَّل أنَّ الوطن يمكن أن يكون بهذا الجحيم!

حين تخلع دوَّامة الوقت، وتكسر قفل الجسد، يصبح التَّاريخ كلُّه مجرَّد رياء.

كلَّما عصف بي الشَّوق أكثر، فرَّت الطُّرق منِّي، وتهت، كلُّ الأشياء الَّتي اقترب منها تبتعد، وتصبح بين كفَّيْ سراب.

لست إلاّ تائها يدبُّ على الأرض لا يدري من أين أتى، ولا أين يمضي، وكأنَّ الحزن قدر مكتوب في اللَّوح البعيد البعيد.

كيف يمكن أن تقتنص لحظة الحياة من براثن الموت؟

كثرة الموت تنسينا الحياة، كثرة الموت تجعله مجرَّد روتين يوميٍّ.

جسد الغريب يصير عبئا في بلاد تلفظ الغرباء.

يا أيُّها الملك السَّراب تكسَّرت على دروبك خطاي، كلَّما أمعنتُ أكثر في التَّفاصيل الصَّغيرة تهتُ أكثر لا أنا أنا، ولا أنت أنت...

نهران نجري كلٌّ في مجرى إلى مصبٍّ، نهران لا يلتقيان، ضدَّان، تماما كخطَّين مستقيمين.

من أنت قل لي؟

هل فاقد الشَّيء يعطيه؟

كنت قد أصبحت تقريباً خارج كلِّ شيء، متفرِّجاً، حين وفى وحيد بوعده، كم كنت أشعر بالوحدة، الدُّنيا أغلقت أبوابها، لا جورج عاد جورج الَّذي عرفته ذات يوم ولا عدت قادرا على أن أتأقلم مع المقاتلين السِّيريلانكيين.

اقترح وحيد أن يختطفَ عالماً إسرائيليّاً وبعض الضبَّاط الإسرائيليِّين انتقاماً لسرقة اللفافات وربَّما لمحاولة مقايضتهم بها، فقوبل اقتراحه بموافقة الجميع، وبدأ بالتَّحضير لتلك العمليَّة، جاء ليخبرني بأَنَّه اختارني لكي أكون ضمن المجموعة، ففرحت، ودهشت لأنَّ جورج رفض المشاركة في

تلك العمليَّة مع أنَّه لم يتوقَّف أبداً ذات يوم عن الحديث عن أمانيه بالعودة إلى فلسطين لو شهيداً، وقضى شهوراً وهو يعدُّ نفسه لمثل تلك العمليَّة!

ما الَّذي غيَّر جورج؟ ما الَّذي جعله يعود عن رأيه؟

كنَّا عشرين موزَّعين على خمسة زوارق مطاطيَّة ستعبر الماء من صور إلى نهاريا، ولم نكن نعلم الكثير عن التَّفاصيل.

اقتادونا أوَّلا إلى حلوة، ثمَّ انتقلنا إلى طرابلس وقضينا عشرة أيَّام هناك، أربعون يوما بطولها لم نجد لحظة فيها لكي نستريح، كان التَّدريب شاقَّاً ومرَّاً ومُتعِبا، ثمَّ أعلن وحيد بعد ذلك أنَّنا أصبحنا جاهزين.

* * *

الكلمات الَّتي استطاع السُّوفييت ترجمتها من اللفافات، كانت قليلة لا تكاد تفهم منها شيئاً، كتبت ما جاء فيها في دفتري:

لأنَّهم احتقروني
ولم يكن لديهم أيُّ تقدير لي
وجعلوا روحي مثل مركب في أعماق البحر
لأنَّهم تاجروا بي
وجعلوني محتقراً لديهم
واعتبروني مثل آنية لا فائدة منها
لأسلطنَّ عليهم شريعة الكذَّاب
ولأجعلنَّهم يتمسَّكون بحبال السَّراب
ولأعطينَّهم في الآخرة ضعفين من العذاب

....
....
....
....
يسوقونهم كالأغنام إلى الذَّبح
....
....
....
ويعذَّبون
ويحتقرون
....
....
وتشرب الأرض من دمائهم حتَّى تنجَّس
فنغسلها بطوفان جديد
سيقاتلون
ويهزمون
ويكون السَّبت أوَّل هزائمهم
ودليلها إلى أبد الآبدين
....
....
ويحشرون.....
....

لم أَفهم تماماً ماذا كانت تعني تلك الكلمات، لكنَّني أدركت أنَّها لعنة ما لبني إسرائيل، بلغتهم، وعلى لسان آلهتهم.

ربَّما أدركوا أيَّ فضيحة تحملها اللفافات لادِّعاءاتهم فسرقوها، ربَّما هناك الكثير من هذه اللفافات الَّتي أخفوها لديهم أو حتَّى أحرقوها.

بعد عشر سنوات، ستنكر حكومة إسرائيل سرقة اللفافة من جديد، وستنشر صوراً مزوَّرة أخرى بدلاً منها مترجمة أمام كلِّ العالم، على أنَّها سفر إستير الَّذي لم يعثر عليه بين اللفافات، دون أن يدري أحد أنَّني آنذاك سأكون مصلوباً على صليب من نار من أجل ذات اللفافة، ودون أن يدري أحد أنَّها قايضت حكومة روسيا الَّتي ستكون غارقة في الدُّيون بعد سقوط الاتِّحاد السُّوفييتي على الصُّور الحقيقيَّة الَّتي التقطت لتلك اللفافة، وعلى دعم مزاعمها بأنَّ الصُّور الَّتي نُشرت هي الصُّور الَّتي التقطها السُّوفييت للفافة، مقابل دعم الأمريكان مطالبَ روسيا بالحصول على قرض ماليٍّ كبير من صندوق النَّقد الدوليِّ.

(22)

كلُّ شيء يوجعني حتَّى الموت!

من مع من؟ ومن ضدُّ من؟ وأنا، أين أنا؟

- ما اسمك؟...

فتحت عينيَّ، لم أجد حولي سوى وجوه بيضاء بيضاء من أثر الموت، ورائحة الدَّواء الَّتي كانت تزكم الأنوف، أحلِّق عالياً في السَّماء وروحي كأنَّها قطعة إسفنج تمتصُّ الماء كلَّما ارتفعت، فتصبح أثقل ثمَّ تهوي إلى الأرض.

سألني رجل أبيض متجهِّم، فانفتحت فجوة صغيرة في الجدار، بدأت تكبر حتَّى تحوَّلت إلى سيل كان ينتظر أن أفتح عينيَّ ليتدفَّق بلا توقُّف ويغرق الأرض.

طنين حادٌّ كان يملأ أذنيَّ ويكاد يفجِّر رأسي، أعضائي كأنَّها مصنوعة من الحجر لا أستطيع أن أحرِّكها، سادت لحظة صمت، مرَّ الشَّريط طويلا أمام عينيَّ، سالت دمعة واحدة من عيني حين تذكَّرت وحيداً.

مات وحيد، مات ابن الشَّهيد!

- ما اسمك؟

ظللت صامتا أحدِّق إليه، كنت أخرج لحظتئذ من الموت.

أمسك ببطاقتي العسكريَّة ومدَّها أمام عينيَّ:

- أعرف أنَّه الاسم الحركيُّ، أريد اسمك الحقيقيَّ.

حين طلب منِّي المسؤول الَّذي نظَّمني وأصدر لي البطاقة العسكريَّة أن أختار اسما حركيَّاً ثلاثيَّاً اخترت اسمي ذاته، لم أغيِّر به شيئاً، اعتقدت أنَّ آخر ما يمكن أن يفكِّر به عدوُّك حين يبحث عن اسمك الحقيقيِّ هو اسمك الحركيُّ، تماماً كاللِّص الَّذي يسكن مقابل مركز الشُّرطة حين يعلم أنَّهم يبحثون عنه، لأنَّه يعرف أنَّهم سيجوبون الدُّنيا ولن يبحثوا عنه أمام المركز....

هكذا أصبحت أخفي اسمي وراء اسمي.

- هذا هو اسمي.
- هذا اسمك الحركيُّ، أريد اسمك الحقيقيَّ.
- لا يوجد لي أسماءٌ أخرى.
- دعنا نتَّفق منذ البداية، أنت الآن في "إسرائيل"، لا مناص لك، ستعترف بكلِّ شيء على مهل، لدينا وقت طويل، طويل، بطول ما تبقَّى من عمرك.

ما الَّذي تبقَّى بعد الخروج من الموت، وإعلان ماراثون العذاب؟

اقتادوني معصوب العينين لا أدري إلى أين بعد أن أخرجوني من المشفى، تركوني وحدي بعدما أعطوني أوراقاً وقلماً لأكتب كلَّ شيء عن نفسي، ثمَّ حملوني في اللَّيلة التَّالية بعيدا، سارت بنا العربة ساعة قبل أن تتوقَّف، ترجَّلنا منها ونزلنا الكثير من الأدراج، ثمَّ عبرنا أزقَّة ودهاليز امتلأت برائحة الرُّطوبة، أجلسوني بعد ذلك على مقعد، وفكُّوا عصابة عينيَّ.

عاد السُّؤال الأوَّل من جديد.

- ما اسمك؟

أربعة محقِّقين كانوا يجلسون قبالتي، ويداي مقيَّدتان خلفي، والجوع يأكل أمعائي.

- اسمي مكتوب على بطاقتي.

لم أدر من أين جاءت الضَّربة بالضَّبط، لم أكن أعرف أنَّ هناك من يقف خلفي.....

فقدت السَّيطرة على نفسي، وسقطت على الأرض.

انهالوا عليَّ بأحذيتهم العسكريَّة السَّوداء، لم أكن أرى سوى النِّعال وهي ترتفع في الهواء وتهوي على وجهي، على جروحي، فأصيح، وأصرخ، وأتداعى.... وأَصواتهم بالعبريَّة تردِّد صداها الجدران.

كلُّ شيء كان مثلي يهوي إلى القاع.....

سال الدَّم من جروحي فغطَّى الأرض، سقطت مغشيًّا عليَّ، أفقت بعد قليل على الماء البارد ينصبُّ على جسدي، عدت أتأوَّه وأصرخ من جديد، والنِّعال لا تزال تهوي على رأسي، والنَّار تأكلني، والألم يعتصرني.

- ما اسمك؟

لم أجب، هل كنت مخطئا حين اخترت اسمي الحركيَّ مطابقا لاسمي الحقيقيِّ؟ هل كنت مخطئا حين زرعت الحقيقة في أقرب مكان من الوهم؟

- ما اسمك؟

ذات السُّؤال لا ينفكُّ يتردَّد صداه في أنحاء تلك الغرفة البعيدة تحت الأرض، وأنا أهذي، وأصرخ، وأتلوّى تحت أقدامهم من الألم.

اللَّيلة الأولى هي ليلة العذاب الأكبر، هي ليلة تعرُّف الجلاَّد إلى الضحيَّة، والضحيَّة إلى جلاَّدها، اللَّيلة الأولى هي ليلة الحسم، إمَّا أن تكون أو لا تكون.

الآن كان عليَّ أن أحفظ غياب وحيد، كان عليَّ أن أحفظ موته، وألاّ أنهار، لكنِّي وجدت أن اللَّيالي كلَّها موصولة بعضها ببعض، لا يوجد ثمَّة فراغ في الوقت، كأنَّما الوقتُ مسبحة تدور وتدور وتدور في كفٍّ عمياء لا تعرف التَّعب ولا الملل.

حوصرت بالأسئلة والمحقّقين والجلاّدين، حرمت من النَّوم، داسوا من جديد على جراحي وحين ظللت مصرًّاً على عدم الاعتراف بالوا في فمي واحداً وراء الآخر!

أحسست بأنَّي مكسور وفقدت كلَّ إحساس بالحياة.

كانوا لا يتركوني لحظة لأنام أو أغيب عن الوعي، يريدونني أن أبقى مستيقظا كي أنهار، لم يتركوا وسيلة تعذيب إلاّ وطبّقوها عليَّ، وحين يئسوا منّي رموني في السِّجن مع أحد العملاء، وحين أدركوا أنَّني أعرف اللِّعبة أخرجوني من السِّجن إلى السِّجن الكبير في عسقلان، لكنَّني بقيت وحيدا في زنزانة بالكاد تتَّسع لجسدي.

كنت حينئذ أعتقد أنَّ الحياة قد توقَّفت عند ذلك الحدِّ، وأنَّ عليَّ أن أتعايش مع واقع حياتي الجديدة، وأحلم مثل أيِّ سجين يقع في قبضة "إسرائيل" بتبادلٍ للأسرى يعيدني إلى الحياة، ما دمت قد رفضت السُّقوط.

الوقت لا يمكن أن يسير باتِّجاه واحد، الوقت دائرة واسعة تركض فيها بين موتين، لذلك ترى ثمَّة عشرات الأحداث الَّتي تتكرَّر وتعيد نفسها من جديد مرَّة بعد أُخرى.

أيُّ قدر كان يختبئُ خلف الباب؟ أيُّ شيطان يتلبَّسني؟ قادني جنديٌّ عبر الدَّهاليز الطَّويلة من يدي، سلَّمني لآمر السِّجن، كانت تلك المرَّة الوحيدة الَّتي أصل فيها لآمر السِّجن بلا قيود في يديَّ، استقبلني الآمر ببشاشة وابتسامة عريضة أثارت فضولي واستغرابي، أجلسني على مقعد وثير، وطلب لي قهوة، وأعطاني سيجارة فرفضت أن آخذها، ثمَّ أمام إصراره تناولتها فأشعلها لي.

كنت ممتلئا بالحيرة والتَّساؤل، أخرج من درجه بعض الأوراق، وطلب منّي أن أوقِّع عليها فرفضت، عاد ومدَّها نحوي مبتسما:

- وقِّع "خبيبي"، تلك أوراق خروجك من السِّجن.
ملأتني الحيرة أكثر.
- خروجي؟
- نعم.
- أين سأذهب؟
- ستعود إلى بيروت، إلى المُخرِّبين.

لو قدِّر لي العودة إلى بيروت، فأوَّل ما سأفعله هو الزَّواج من ليلى، كم كنت أَحلم بها في السِّجن! كم كنت قاسياً وتافهاً حين تركتها تبتعد وعدت أدراجي إلى عيتات، وسؤالها الأخير كمطرقة يدقُّ رأسي، ويدقُّ، ويدقُّ، ويدقُّ بلا توقُّف.

يمكن لها أن تجري بعض عمليَّات التَّجميل وتعود إلى طبيعتها، ما الَّذي يمنع ذلك؟!

شعرت بالفرح، لكنَّني حاولت أن أسيطر على نفسي كي لا تكون الخيبة كبيرة – إذا ما كان الآمر يخدعني – بحجم فرحي.

كانت تلك هي المرَّة الأولى الَّتي أرى فيها بيريز.

دخل فجأة كعاصفة إلى غرفة آمر السِّجن وسط حراسة مشدَّدة، مع رجلين آخرين، كنت أعرف وجهه جيِّداً من صوره الَّتي أراها في التلفاز والصُّحف، جلس في مقعد آمر السِّجن.

راح يعتذر عن تلك المعاملة القاسية الَّتي عاملوني بها في السِّجن، قال لي إنَّ أمن "إسرائيل" يتطلَّب ذلك وإلاّ لسقطت "إسرائيل" منذ زمن طويل.

حدّثني عن قسوة الحياة، وقسوة الحرب، والخسارة، والفقدان، والأطفال الَّذين فقدوا آباءهم وأمَّهاتهم في الحرب.

أيَّة خواطر انتابتني لحظتها؟ ما الَّذي يريده منِّي أنا شخصيَّاً حتَّى يعاملني بتلك الطَّريقة ويشكو لي هموم حربه وأناسه الَّذين

يَقتلـون ويَبكـون؟ كـان رجـلاً غريبـاً يفتنـك هـدوؤه وثقتـه بنفسـه، ودبلوماسيَّته، كـأنَّني أحلـم، كـأنَّني مـتُّ وصـرت الآن أشـاهد أسـرار مـا خلف الموت!

أنـا وبيريـز شخصيَّاً هنـا، في فلسـطين؟ في غرفـة آمـر السِّـجن؟ أيُّ حلم!

ما الَّذي يريده منِّي بيريز؟

تحسَّست جيوبي الفارغة من كلِّ شيء باحثاً عن الصُّورة، ثمَّ رحت أبحث عن السِّلسلة الَّتي كانت في عنقي فلم أجدها، تذكَّرت أنَّ حليمة ألقت بالصُّورة إلى النَّار، وسألت في سرِّي عن ذلك الدَّفتر الصَّغير الَّذي أخرجته من جيب وحيد، ولم يكن قد تسنَّى لي أن أقرأ ما كتبه فيه.

وضع ساقاً على ساقٍ.

"بيريـز هـو الـذِّئب الَّـذي يرتـدي بدلـة وربطـة عنـق، ويخبِّـئ أنيابـه ومخالبه في جيوبه" فكَّرت.

- ما اسمك؟
- اسمي سعيد.

كان يرسم كلَّ حركة وكلَّ كلمة كأنَّه ممثِّل بارع.

أطرقت، تناولـت كأس الماء الَّذي كان أمامي وتجرَّعته دفعة واحدة، كـان طعمـه أكثـر مـرارة مـن الحنظـل، لمـاذا أصبحـت فجـأة مهمَّـاً هكـذا بالنِّسبة للجميع؟

تصفَّح ملفاً بدا لي أنَّه ملفِّي أنَا، رفع عينيه بعد دقائق نحوي وقال من خلف نظَّارتيه:

- لست أدري لماذا تصرُّون على حربكم الخاسرة، لم أجد في كلِّ ما قرأت طوال عمري من هم أعند من العرب، ألا تريدون أن تعترفوا بهزيمتكم؟

هززت رأسي دون أن أجيب.

أَلقى عليَّ الكثير من الأسئلة هو والرَّجلان، ثمَّ خرجوا بسرعة كما دخلوا.... وسط دهشتي وتساؤلي عن سرِّ حضوره بالذَّات.

عاد آمر السِّجن إلى الجلوس مكانه...

- ألا يقول لكم القرآن بأنَّ هذه الأرض هي هبة الله لليهود؟ وأنَّه فضَّلنا على العالمين؟ سأَلني ساخراً...
- أنا لا أؤمن أصلاً به، لكنَّني أعتقد أنَّه لا يعمل وكيلاً لعقاراتكم على الأرض، لا بدَّ أن لديه ما هو أهمُّ من هذا!
- ألاّ تؤمن لا يعني أنَّ الربَّ غير موجود، وأنَّه لم يهب هذه الأرض لليهود.
- وهل انتهت أعماله وأشغاله وما عاد لديه من عمل سوى أن يهب اليهود أرضاً؟
- هذا هو الفرق بيننا، نحن أكثر إيماناً منكم، وأكثر التصاقاً بالله!
- من يمتلك القوَّة يفرض شروطه، أنت تعيد منطق الحروب الصَّليبيَّة، منطق الحقِّ المسيحيِّ لأوروبّا في البلاد المقدَّسة، ستخرجون يوماً كما خرج الصَّليبيون، وتعودون إلى أوروبّا الَّتي أنجبتكم.
- أنت تحلم، إسرائيل باتت واقعاً أكبر من أيِّ بلد عربيٍّ آخر، لكنَّكم تتجاهلون عين الشَّمس، أنتم العرب عميٌ.
- أنا لا أنكر أنَّ بعض اليهود عاشوا هنا، لكنَّهم جاؤوا مغتصبين ذات يوم كما جئتم أنتم، واندحروا، ورحلوا، وما بقي من اليهود هنا هم عرب اعتنقوا اليهوديَّة وعاشوا بين العرب الآخرين، مسيحيِّين ومسلمين ووثنيِّين وصابئة وأناس

من كلِّ الملل والدِّيانات، هذه الأرض لنا، للعرب، مسلمين كانوا أو مسيحيِّين أو يهوداً، أو علمانيِّين، أو حتّى وثنيِّين، هذه أرض العرب، حتَّى الربُّ بذاته لا يملك حقَّ إعطائها لأحد إن كان ذلك هو منطقكم المجنون......

- أنت أعمى، قال يقاطعني.
- إن كان البصر يعني رؤية "إسرائيل" فأنا لا أريد عينين.

* * *

في هذا الكون المقلوب عليك أن تخرج من منطق المنطق لكي ترى الحياة على حقيقتها، كم يمكن أن تكون الهوَّة هائلة بين الحقيقة والمنطق! أيُّ منطق يمكن أن يجعل الأسود أبيض، والأبيض أسود؟ أيُّ منطق ذاك الَّذي يتَّخذ منه العقل مِسطرة يحاكم بها الجميع بذات القياس، وبذات المقياس!

ثمَّة ما لا يمكن للعقل أن يدركه أبداً، ولا يخضعه لمنطقه القاصر،

العقل يصبح مجرَّد أداة بدائيَّة للقياس إذا أعماه منطق المنطق، من الَّذي وضع الخطوط العريضة لذلك المنطق متجاوزاً كلَّ معطيات التَّاريخ الحقيقيَّة، والمكان؟

اقتادونا إلى الحافلات تحت إشراف رجال الصَّليب الأحمر الدَّوليِّ، وانطلقنا عند الظُّهر إلى لبنان، وأَنا بعدُ غير مصدِّق أَنِّي خرجتُ من السِّجن.

شعرت بنفسي وحيداً حتَّى النُّخاع.

أعادوا لي قبل خروجي كلَّ أشيائي، حتَّى الدَّفتر الصَّغير الَّذي ورثته عن وحيد، أعادوا كلَّ شيء باستثناء الخريطة الَّتي أهداها لي حليم، قالوا

إنَّ الخريطة تزوير للحقائق، فتلك أرض "إسرائيل" لا فلسطين كما حفر عليها، وإمعاناً في الأمانة دفعوا لي ثمنها حسب القيمة العالميَّة للذَّهب بالدُّولار الأمريكيِّ!

استجوبوني طويلاً في عيناب بعد أن وصلنا، رويت كلَّ ما جرى معنا بالتَّفصيل، كتبته على الورق، وسلَّمت الأوراق لأبي رمزي، التقيت مالكاً وأخبرته بما جرى لسارة وأنا أشعر بالألم يعتصرني.

الآن أدركت إصرارهم على وضع اسمي على رأس قائمة التَّبادل، وأَدركت سرَّ اهتمامهم بي، وحضور بيريز لرؤيتي شخصيَّاً، ربَّما لمحاولة معرفة سرِّ ذلك الاهتمام، والإصرار على إخراجي من السِّجن رغم اعتراض "إسرائيل" الَّتي كانت ترفض الإفراج عمَّن قاموا بقتل "إسرائيليين".

سألني أبو رمزي إن كنت أعرف شيئاً عن النِّصف الآخر المفقود من اللفافات، فأنكرت، لم أكن أدري إن كان هناك بالفعل نصف آخر أم لا، كلُّ ما كنت أعرفه عن اللفافات هو ما أخبرني به حليم فقط.

استجوبوني طويلاً مرَّات، ومرَّات، ثمَّ أدركوا أنِّي كنت صادقاً في كلِّ كلمة أقولها، لذلك تركوني وبدؤوا بمتابعة الخيط الَّذي كان يبدأ بموت ميشيل، ولا أعرف أين ينتهي!

كانت العمليَّة قد فشلت، المروحيَّات لحقت بالزَّوارق إلى البحر، وحين عجزت بعد معركة طويلة عن تحرير الضَّابط والعالِم بتروفيتش أحرقت الزَّوارق بمن فيها، فكنت الوحيد الَّذي نجا من كلِّ الرِّفاق الَّذين شاركوا في تلك العمليَّة.

كم أخطأني الموت!

هل ثمَّة حكمة ما في ذلك أم أنَّه مجرَّد وعدٍ بالعذاب؟

(23)

كأنَّني أحلم.

كأنَّني أحلم.

كيف تنقلب الأشياء فجأة وتصبح بلا ملامح مثل صخرة صمَّاء؟ كيف تتغيَّر الوجوه والأحلام والتَّفاصيل؟ كيف يصبح المستحيل ممكناً، والممكن مستحيلاً؟ والذَّليل عزيزاً، والعزيز ذليلاً؟ والحرُّ عبداً، والعبد حرَّاً؟ ومن ذا الَّذي يرسم وجوه انقلاب المعاني والمفاهيم؟

قد تمسي الحرب مطراً من رصاص أعمى!

من الَّذي يحدِّد عدالة الحرب؟ كيف تغيَّرت وجهات النَّظر؟ كيف تغيَّر حتَّى مفهوم العدالة ذاته؟ كلُّ شيء يتغيَّر حولي، وأنا كأنَّني قنديل نحاس عتيق قد علاه الصَّدأ، والغبار....

ما عاد ثمَّة من يستطيع أن يفهمني، حتَّى أنا بتُّ لا أفهم نفسي، ما الَّذي أريده منِّي بالضَّبط؟ الكون لا يسير إلى الخلف، الدُّنيا تدور، وتركض، وعليَّ أن أدور وأركض، وإلا سأصبح مجرَّد حجر مهمل على قارعة الطَّريق.

السُّكون يعني الموت، يعني أنَّك أصبحت خارج الزَّمن.

أحاول أن أدخل الماراثون، أحاول أن ألحق بركب الحياة، لكنَّ الحياة أسرع، ربَّما هرمت وما عاد بوسعي أن أسرع أكثر!

كم كنت أودُّ رؤية ليلى!

انقلب كلُّ شيء فجأة وما عاد بوسعي الذَّهاب إلى شاتيلا.

حاصرت حركة أمل المخيَّمات، فسقط مخيَّم الدَّاعوق، وسوِّي بالأرض، وتكاثفت الجهود كي لا يسقط شاتيلا.

ما الَّذي يدور هناك؟ وكيف هي أحوال ليلى، والرِّفاق، والأحبَّة، والنَّاس؟ والشَّوارع، والأزقَّة، كيف هي أحوال الموتى؟

كان الحصار محكماً كالسِّوار، النَّاس في صبرا وشاتيلا صاروا يأكلون القطط والجرذان والكلاب من شدَّة الجوع، وأحياناً يأكلون لحم الموتى.

حوصرت المخيَّمات بحجَّة القضاء على بقايا زمرة عرفات، وقصفت بالمدافع، وهدِّمت البيوت على رؤوس قاطنيها.

الحرب حين تكون بين الإخوة تكون أشدَّ شراسة وفتكاً.

عدت إلى الخمسين، ثمَّة وجوه جديدة كانت قد نبتت في المكان، وغادر السِّيرلانكيون إلى حيث لا أدري.

غسَّان، ومحمَّد، وأدونيس، وأيهم، وإدريس الَّذي صار مسؤولاً عن الخمسين، وخليل ما زال هو خليلاً، وعبد الكريم، وأبو حميد، ومقاتلان جاءا من الشَّمال لتأدية الخدمة الثوريَّة في السِّتين، أمَّا جورج فكان قد عاد إلى تونس.

رحَّبوا بي جميعاً، وجلسنا نحتسي الشَّاي، ونستعيد ذكريات الماضي القريب، ونستمع إلى أصوات الانفجارات.

كان علينا أن نفعل أيَّ شيء من شأنه أن يخفِّف من وطأة حصار المخيَّمات الَّتي كنَّا نشرف عليها، ونرى الدُّخان يتصاعد في سمائها كلَّ لحظة.

كنت لا أزال أُعاني من آثار إصابتي، لذا كان عليَّ أَن أَلزم الهدوء والرَّاحة، لكنَّني كنت أُكابر.

كان التدخُّل في الحرب من الجبل ممنوعاً، ربَّما خوفاً من غضب سوريا، وربَّما بسبب الحلف الهشِّ الَّذي يجمع بين الحزب الاشتراكيِّ وأمل، لكنَّا مع ذلك قرَّرنا أن نتدخَّل أخيراً بالسرِّ دون علم أحد.

نصبنا قواعد خشبيَّة للصَّواريخ، وأطلقنا أوَّل رشقة صَواريخ من الجبل، ولملمنا كلَّ شيء على عجل، وعدنا إلى مواقعنا مسرعين، فقامت الدُّنيا ولم تقعد.

المناطق الَّتي نتحصَّن فيها في الجبل هي مناطق تشرف على جنوب بيروت، على حيِّ السلَّم، والمطار، والمخيَّمات، ومن شأنها، جغرافيَّاً، أن تغيِّر مسار المعركة، ونتائجها.

كان لا بدَّ ممَّا ليس منه بدٌّ.

الحرب على أشدِّها، والموت على أشدِّه، والوفود تقاطرت من بيروت إلى الجبل، وراح الاشتراكيّون المتعاطفون مع المخيَّمات ينفون بشدَّة أيَّ تدخُّل لأحد في الحرب من الجبل، أعدنا الكرَّة في اليوم التَّالي، وعدنا إلى مواقعنا سالمين، فعادت الدُّنيا لتنقلب من جديد.

كانت أخبار المخيَّمات تصلنا عبر اللاَّسلكي، وكنَّا في بعض الأحيان نبكي على فقدان أصدقائنا وأحبَّتنا، لم يكن باليد من حيلة، كانت أيادينا مغلولة إلى أعناقنا، كنَّا مقيَّدين.

أُعلنت الهدنة أخيراً، لكنَّنا لم نستطع أن نعبر الحدود إلى شاتيلا، كلُّ فلسطينيٍّ كان مطلوباً لعدالة الرُّؤيا كي تستقيم الحياة.

ما الَّذي كان يمنع حركة أمل الَّتي ورثت سلاح الثَّورة قبل خروجها من بيروت، أن تجرِّب ذات السِّلاح في الدَّم الفلسطينيِّ، ما دام الفلسطينيُّ ذاته قد جرَّب سلاحه بدم الفلسطينيِّ من قبل؟

أصبت بالإحباط، وانعدام الرُّؤية.

كيف أستطيع أن أفسِّر الحرب؟

من أين أبدأ، وأين يمكن لي أن أنتهي؟

كيف يمكن للأحلاف أن تبنى، وأن تهدم مثل جدار من رمل البحر، كيف يمكن للدَّم أن يتعمَّد مع الدَّم، ثم ينفصلان، ويصبح لكلٍّ منهما منبع وقناة ومصبٌّ؟

دلال ماتت بقذيفة أثناء الحصار، وليلى تزوَّجت قبل الحصار بشهر واحد فقط من رجب!

لم أصدِّق أُذُنيَّ حين سمعت الخبر، سألت إدريس أن يعيده على مسامعي فعاد ليؤكِّده من جديد.

أيُّ جنون!

هل يمكن أن تتزوَّج ليلى من رجب؟

أيُّ جنون!

كفرت بليلى، وشاتيلا، والثَّورة، ونفسي، وعدت إلى دمشق!

أيُّ جنون!

عدت إلى جامعة دمشق، لكنَّني كنت حينئذ قد كفرت بالتَّاريخ، لذلك آثرت أن ألتحق بكليَّة الحقوق، وكان عليَّ أن أعمل كي أعيل نفسي، وأدرس.

كنت أريد أن أهرب من الماضي، وأرسم لنفسي مستقبلاً جديداً بيديَّ، دون تدخُّلٍ من أحد.

كنت أهذي، أو أخدع نفسي، أو أهدهدها، وأكذب عليها.

الماضي هو الشَّيء الَّذي لا يمكن لك أن تخرج منه لأنَّه دثارك الَّذي يغطِّي عورتك، فإن سقط، انكشفت عورتك.

الهروب هو مجرَّد وهم تقنع نفسك به، وأنت وحدك من يعتقد مخدوعاً أنَّكَ بتَّ بعيداً عن حدِّ السكِّين، كلُّنا شياه معدَّة للذَّبح من أجل المصالح العليا لشيء ما يُسمَّى الوطن!

لست أدري من أين انشقَّت الأرض ذات يوم وأخرجته من بطنها، حاملاً كلَّ الماضي على كتفيه.

كنت قد نسيت أنَّ لي أهلاً وعائلة على هذه الأرض، واستسلمت للواقع بعدما قلبت الدُّنيا بحثاً عن أمِّي، وإخوتي، دون طائل.

فتحت باب الغرفة المتهالكة الَّتي كنت أقطن فيها، فوجدت أمامي وجها لا أَعرف إن كان قد هبط من السَّماء أم نبت من الأرض.

في البداية شككت بعينيَّ، فركتهما وأنا أحدِّق إليه، كان أطول قامة منِّي، بثياب بيضاء ولحيته تتدلَّى على صدره، وعيناه أصبحتا أكثر قسوة من ذي قبل، وبشرته سمراء من أثر الشَّمس.

كان أصغر منِّي بعام فقط، لكنَّني بدوت أكبر منه بعشرين عاما.

رمى بنفسه على صدري وأجهش بالبكاء، فأطلقت لنفسي العنان.

أيُّ ضياع كنت أشعر به، أيَّة غربة كانت تعتصرني حتَّى آخر قطرة حزن في أعماقي؟

دخل أَخي سامي وهو يحدِّق إلى محتويات الغرفة تارة، وإلى وجهي تارة أخرى، وكأنَّه لا يصدِّق عينيه هو الآخر.

الغرفة كانت شبه فارغة إلاَّ منِّي، ومن بعض الذِّكريات، والأثاث المتآكل: صور عتيقة على الجدران، وبساط، وموقد للحطب، وسرير يئنُّ من وطأة الزَّمن، وكرسيٌّ خشبيٌّ عتيق، وطاولة، وكتب وأوراق، وأقلام، وبعض أواني المطبخ.

جلس على السَّرير، وجلست قبالته على الكرسيِّ الخشبيِّ الوحيد.

كنت على وشك أن أنهي دراستي الجامعيَّة عامذاك.

كم كنت فرحاً بلقائه! أحسست أنَّ الدُّنيا اتَّسعت، وصارت بلا حدود.

عدت أرحِّب به من جديد، أشعلت "بابور" الكاز، أعددت الشَّاي، رحنا نتبادل الحديث، كأنَّه تعارف جديد، كأنَّ الزَّمن قد عاد إلى الصِّفر، وكأنَّ علينا أن نعيد تعارفنا حتَّى في أبسط الأشياء.

كنت لا أصدِّق أنِّي أراه، وكان لا يصدِّق أنَّه يراني!

قصصت عليه ما جرى معي منذ أن غادرت عمَّان باقتضاب، أخبرته بقصَّة زينب، ومكان عظام عيسى، بعد أن شكَّكت بأنَّ العظام يمكن أن تكون له، وراح هو يخبرني بما جرى بعد خروجي. قال إنَّ رجال المخابرات استدعوه بعد سفري مرَّتين، وسألوه عنِّي، وهدَّدوه، لذا كان عليه أن يغيِّر مكان إقامتهم، تنقَّلوا من بيت إلى بيت، حتَّى استقرَّ بهم المطاف أخيراً في مخيَّم البقعة، هناك أسلمت أمِّي روحها، ماتت وهي لا تزال رافعة كفَّيها إلى السَّماء تدعو بعودتنا، دفنوها في مقبرة المخيَّم، وبعد أشهر تقدَّم رجل كان يقيم في الرِّياض للزَّواج من خلود، فزوَّجها له، وانتقلت إلى هناك كي تعيش معه، وبقي هو وحيداً في البيت.

بكيت أمِّي حتَّى نضبت الدُّموع من عينيَّ، كنت أحسُّ بموتها، لكنَّني كنت بحاجة إلى من يؤكِّد لي ذلك، يؤكِّد حزني، وحسرتي، وخسارتي، وألمي، وحرقتي.

ضممته إليَّ، قبَّلته، اعتذرت منه، قدَّمت له ولي العزاء.

لا عزاء في الأمَّهات.

كم كنت أشتهي رؤيتها، كم كنت أشتهي أن ألمس كفَّيها، أن أودِّعها، أن أحلِّق في عينيها، كم كنت أشتهي أن ألقي عليها لو نظرة وداع!

لا عزاء في الأمَّهات!

- استدعوني مرَّة أخرى كي أستلم جثَّتك رسميَّاً، وأوقِّع على استلامها!

- جثَّتي.... أ.... ن.... ا؟ كيف؟
- قالوا إنَّك قُتلت...
- أ.... ن.... ا؟
- نعم...
- ميت؟
- نعم...

قَطبتُ حاجبيَّ مدهوشاً، شعور غريب ذلك الَّذي يعتريك حين تعرف بأنَّ لك قبراً في مكان ما، على هذه الأرض، نُقش عليه اسمك وأنت لا تزال على قيد الحياة!

- هل هي لعبة؟
- لا أدري... كانت الجثَّة في صندوق مغلق، خرج كلُّ المخيَّم في الجنازة، ورجال الشُّرطة والأمن يحيطون بالنَّاس، وحين أخرجنا الجثَّة كي نودعها القبر، وجدنا أنَّها ملفوفة جيِّداً بالكتَّان الأبيض، منَعونا من رؤية شيء، كان رجال المخابرات يشرفون على الجنازة كلِّها، قالوا إنَّ الجُثَّة محترقة ولا مبرِّر للكشف عنها.
- عجيب..
- دفنَّاك إلى جانب أُمِّي، وعدنا إلى بيوتنا، كانوا يحاولون أن يسيطروا على الموقف كي لا يتحوَّل إلى مظاهرة.

ها أنا ذا أخيراً أجد – حتَّى ولو كنت ميتاً – من يهتمُّ لأمري.

- صرت وحيداً بعد موتك، وزواج خلود، الدُّنيا أَغلقت أَبوابها في وجهي، قرَّرت أن أسافر بعيداً، بعيداً، إلى أبعد ما يمكن أن تصل إليه قدماي، إلى أفغانستان.
- أفغانستان؟

- كنت قد تعرَّفت إلى بعض العائدين من هناك في السِّجن، والتقيت بهم في جنازتك ورتَّبوا لي السَّفر.
- ألم تجد مكاناً أقرب؟ ألم تكن لبنان أقرب قليلاً من أفغانستان؟ ألم أكن أنا أقرب إليك؟
- الجهاد هو الجهاد، كلُّ أرض المسلمين لله، الدِّين يا أخي لا يعترف بالوطن!
- كيف؟ لا أفهم، والأقصى؟ والقدس؟ هل تتساوى مكَّة مع بقاع الأرض؟ هل يتساوى المسجد النَّبويُّ والأقصى مع باقي الأرض لدى المسلمين؟
- لا، بالطَّبع لا هذه أماكن مقدَّسة.
- إذن......
- الظُّروف لا تسمح بتحرير الأقصى.
- من قال؟
- الواقع هو الَّذي يقول.
- أيُّ واقع؟ وماذا نفعل نحن هنا؟ هل كنَّا نلعب؟
- ....

شعرت بالإحباط، لكنِّي لم أكن أملك سواه أخاً، كان كلَّ ما تبقَّى لي من العائلة، عدت أسأله:

- ألم تسمع كلام الله تعالى وهو يقول: "أُذن للَّذين يقاتلون بأنَّهم ظلموا وأنَّ الله على نصرهم لقدير، الَّذين أخرجوا من ديارهم....."

لماذا يعطيك الله دياراً وأنت ترفض أن تعترف بها؟ ألم يقصد مكَّة بالَّذات هنا؟

- بلى.

- إذن لماذا لا تعترف بالوطن؟
- كان ذلك قبل أن تصبح الأرض كلُّها دياراً للمسلمين....
- ألا تـدرك أنَّ أمريكـا وراء دعـم المجاهـدين هنـاك لـدحر السُّوفييت؟
- أعرف، لكنَّه التقاء مصالح مشروع.
- مع عدوِّك؟
- ماذا يمنع؟

هززت رأسي بأسى....

كنت أنا على جهة وهو على جهة.

كنَّا عدوَّين كلٌّ في جبهة يحارب الآخر: هو مع أمريكا يحارب ضدَّ السُّوفييت، وأنا مع السُّوفييت أحارب في مكان آخر ضدَّ أمريكا.

كيف ترتِّب الأقدار نفسها؟ كيف تطحننا ماكينة الحياة، وتعصرنا، وتسرق أجمل ما فينا؟

- كيف عرفت أنِّي لا أزال على قيد الحياة؟
- مصادفة، حين عدت من أفغانستان تعرَّفت في السِّجن إلى رفيق لك، اسمه....

حكَّ رأسه، وبدا كأنَّه يحاول أن يتذكَّر....

- اسمه فؤاد....

هززت رأسي وأنا أتذكَّر فؤاد المسكين، كلُّهم الآن أصبحوا يعرفون أنَّه على حقّ، حتَّى أنا، كنَّا في الماضي نهزأ به، والآن أثبت الواقع أنَّه كان العاقل الوحيد فينا!

- لم أكن متأكداً تماماً حين جئت من أنَّني سأجدك، ومن أنَّك المعني في الموضوع، لكنَّ المسألة كانت تستحقُّ أن أجرِّب، سألت طويلاً، تعبت وأنا أبحث حتَّى اهتديت إليك.

قال، وأراح ظهره على الجدار الَّذي تفوح منه رائحة الرُّطوبة، وأراح كفَّه على فخذه.

بدا عليه الأسى، والحزن.

- هل تدخِّن؟

سألته وأنا أمدُّ السِّيجارة إليه، اعتذر.

- أنا لا أدخِّن....

استراحت شُعيرات لحيته على صدره، تنهَّد.. أشعلت سيجارتي ورحت أنفث الدُّخان في الهواء....

- جدَّتك جاءت إلى عمَّان، قال....

- كيف فعلتها؟ سألت مبتسماً، ربَّما لكي أُغيِّرَ رتابة ذلك الجوِّ الكئيب.

- تلك قصَّة طويلة، بالكاد تستطيع أن تمشي، أصبحت على حافَّة القبر، لكنَّ لسانها ما زال حادّاً كالسكِّين، جاءت وقلبت الدُّنيا فوق رأسي، ثمَّ عادت إلى الخليل.

انفجر فجأة في البكاء، ما أثار دهشتي وحيرتي.... ضممته إلى صدري، هدَّأت من روعه، ظللت أحتضنه بين ذراعيَّ وأنا أتساءل عن سرِّ بكائه حتَّى صَمَت، وجفَّت دموعه.

- أتعرف سرَّ عداوة جدَّتي لأمِّي؟

فردت كفِّي في الهواء....

- لا... أنت تعرف أمِّي.... كانت لغزاً...

- جاءت خصِّيصاً من الخليل لكي تقول لي كلَّ ما كانت أمِّي طوال عمرها تحاول أن تخفيه...

طأطأ رأسه، شعرت بوقع نبضي عالياً، خفق قلبي، واندفع الدَّم إلى رأسي، أشعلت سيجارة من سيجارة ورحت أحدِّق إليه باهتمام.

- ماذا جاءت تقول؟
- قالت إنَّ أمِّي اغتُصبت ليلة الخروج من حيفا.

سادت لحظة صمت طويلة وأنا أحاول أن أستوعب ما قال، كنت أريد أن أتأكَّد من أنَّه أخي أنا، وأنَّه موجود معي بالفعل، وأنَّه يتحدَّث عن أمِّي أنا، وأنَّه يعني ما يقول، ويعيه.

- أمِّي أنا؟

هزَّ رأسه.....

- أنت متأكِّد؟.....
- نعم!....
- كيف؟
- ....
- أُمِّي أَنا؟
- نعم...
- متأكِّد؟
- ....

تفتَّحت أبواب للرِّيح الَّتي هبَّت من السُّكون فحملت كلَّ شيء في طريقها، هدَّمت قلاعاً، وسماوات، وأرواحاً، ونجوماً، وأبراجاً، وأحلاماً، ورؤى، وخيالات.

أكاد أجنُّ، أكاد أفقد البوصلة والاتِّجاهات، ذلك آخر ما كان يمكن أن يخطر لي، كنت أعرف أنَّها تخفي أسراراً، لكنَّ ذلك السرَّ كان أكبر من أن أفكِّر به، أو أن أستوعبه أو يخطر ببالي.

قال إنَّها حين جاءت إلى الخليل لم تكن عذراء، وإنَّهم اكتشفوا فيما بعد أنَّها حاملٌ بعيسى وكان عليهم أن يقتلوها، لكنَّ جدِّي رفض، وراح

يدافع عنها، ولا أحد يدري كيف استطاع جدِّي أن يقنع أبي – ابن أخيه – بالزَّواج منها لكي يتستَّر على فضيحتها.

تزوَّجها أمام الجميع، ظلَّ معها ثلاثة عشر عاماً صورة بلا أصل، وحين قرَّر أخيراً أن ينسى الماضي، ويطويه إلى الأبد، نهض الماضي من الرَّماد.

ذلك ما كان يفسِّر الفجوة الزَّمنيَّة الطَّويلة بيني وبين عيسى!

حين تقرِّر أن تنسى الماضي، تجد الماضي يخرج من التُّراب كأنَّه يحتجُّ، كأنَّه بشر من لحم ودم يرفض أن يُنسى.

الماضي هو أنت، هو أنت كما كنت دائماً، وكما ستكون.

التقيا ذات يوم مصادفة بعد سقوط الخليل بعامين أو ثلاثة، وانفجر الماضي كأنَّه قنبلة موقوتة.

أصبح مردخاي الَّذي كان ليلة سقوط حيفا ملازماً، هو القائد العسكريُّ لمنطقة الضفَّة بعد سقوطها، التقت العيون مصادفة في السُّوق، غضَّ جدِّي بصره وانسحب يجرُّ أذيال الخيبة هارباً من مردخاي، لكنَّ مردخاي استدعاه في اليوم التَّالي، حقَّق معه، سأله عنها، كان لا يزال يذكرها جيِّداً، تعمَّد إهانته، واستفزازه، وتذكيره بتفاصيل تلك اللَّيلة السَّوداء، ثار جدِّي، لكنَّهم أمسكوا به، قيَّدوه، عذَّبوه، وأشاعوا خبر اغتصاب أُمِّي في كلِّ أنحاء الخليل.

خرج من السِّجن مكسوراً بعد أيَّام، كانت القصَّة قد طافت كلَّ زقاق وشارع وبيت في الخليل، فمات قهراً في اللَّيلة التَّالية لخروجه.

كلُّ ما بناه كان بيتاً للعنكبوت! كلَّ ما حاول أن يخفيه طوال تلك السِّنين انهار دفعة واحدة.

بعد سقوط الضفَّة تكشَّفت أسرار وحكايات وألغاز.

كنَّا صغاراً آنذاك، وكان عيسى أكبرنا.

طردتنا أمِّي إلى الشَّارع، فوقفنا أمام الباب مذعورين لا نعرف سبباً لتلك الثَّورة المفاجئة العمياء الَّتي أصابت أبي، صار فجأة مثل قطعة قماش سوداء، جافَّة، ومات في الصَّباح الباكر.

جاء عيسى عند الظُّهر من الأغوار، أرسلت أمِّي بطلبه فجاء، وسارت الجنازة بخطى بطيئة نحو المقبرة، دفنَّاه، وحين عدنا إلى البيت انفجرت عمَّان، وابتدأت الحرب.

ألقى بالقنبلة أمامي وصمت فجأة كما يصمت البحر.

شعرت بصاعقة تنزل على رأسي فتشطره إلى نصفين، نظرت إليه بهلع، لا بدَّ من أنَّها كانت تهذي حين روت له ما روت، أو تكذب، أو تسخر منَّا، أو تتلاعب بنا، كيف يمكن أن يكون عيسى ابن مردخاي؟

تعطَّلت حواسِّي، وقطبت جبيني، وأنا لا أصدِّق ما أسمع.

"كيف يمكن أن أصدِّق ما قالت؟ ".

وإن صدقت فأيُّ رحم مسكين حملني في أعماقه تسعة أشهر، ثمَّ جاء بي إلى هذا الكون الملعون؟ وأيَّة أمٍّ مسكينة أنجبتني أعمى في كون أعمى؟ أيُّ رحم مكسور أنجب كلَّ هذه الفجائع؟ هل كنت أبحث في الخُواء عن سراب؟ كيف كانت تحمل على كتفيها كلَّ هذا العذاب وتصمت؟ أيَّة أمٍّ مسكينة كانت؟ أيَّة أمٍّ مذبوحة كانت؟

وقفت، درت حول نفسي، شهقت، أكاد أجنُّ، كلُّ شيء في أعماقي يتحطَّم، الدُّنيا تدور وأنا أدور، وأدور، وأدور.

كيف يمكن أن أُصدِّق ما قاله لي سامي؟

ثمَّة محطَّات في الحياة تقسم الحياة إلى نصفين، ما قبلها، وما بعدها، لأنَّها تقلب كلَّ ما كان متعارفاً عليه، تغيِّر المَفاهيم، والأفكار، والأحلام، والطُّموحات، والواقع، والمستقبل.

تلك اللَّحظة كانت جداراً شاهقاً من الرَّصاص المُذاب فصلت عمري السَّابق عن عمري اللاَّحق.

حاول سامي أن يهدِّئ من روعي، كان مثلي قد تجرَّع المرارة من قبل، وحاول أن يتعايش مع الواقع، قال إنَّ الزَّمن كفيلٌ بعلاج كلِّ الجروح!

أيُّ شيء سيلوكه الزَّمن ويطويه؟ حين تكتشف فجأة أنَّك كنت وهماً يعني أنَّك مصنوع من الوهم، يعني أنَّك ستكون دائماً وهماً، يعني أنَّك لن تنسى يوماً أنَّك وهم لأنَّ ذلك سيكون دائماً معك، ستراه في المرآة كلَّ صباح كما ترى وجهك، الزَّمن كفيل بأن يجعلك تتعايش مع أحداث خارج كيانك، أمَّا تلك الَّتي تكتشف أنَّك مصنوع منها، وأنَّها جزء منك، فأنَّى للزَّمن أن يعالجها.

طأطأ رأسه، كان يشعر هو الآخر بذات الخيبة.

شهران قضاهما معي ونحن لا نفتأ نندب حظَّنا الملعون، من بين كلِّ من هاجروا، من بين كلِّ من غادروا، لم يجد مردخاي سوى أمِّي لكي يصبَّ حيواناته المنويَّة في رحمها، أيُّ حظٍّ يا الله وهبتني حين خططت لي قدري على لوحك المحفوظ؟!

أما كان يمكن للحقيقة أن تظلَّ مدفونة حتَّى نموت؟

شهران قضاهما معي وهو يعظني ويحاول أن يعيدني إلى جادَّة الصَّواب كما كان يقول، اتَّفقنا حين ودَّعني على أن نبقى دائماً على اتِّصال، أعطاني عنوانه في عمَّان، ووعدني بزيارة أخرى عمَّا قريب. وأن يتقدَّم بطلب إلى وزارة الدَّاخلية لعلّي أعود إلى عمَّان.

ما عادت الحياة كما كانت أبداً، فالحقيقة كانت أكبر من أن أستوعبها، وأبعد من إدراكي، شيء ما تغيَّر في داخلي، شيء ما تحطَّم وما عاد بوسعه أن يعود إلى ما كان عليه من قبل.

راجعت السّفارة في دمشق، إلاّ أنَّهم رفضوا طلبي أكثر من مرَّة، استسلمت للأمر الواقع، وقرَّرت أن أقضي ما تبقَّى من حياتي في دمشق.

كنت أتبادل الرَّسائل مع سامي بين الحين والآخر، ولم يكن فيها غير الشَّوق والذِّكريات، والمواعظ، ثمّ اختفى فجأة مرَّة أخرى من حياتي، ربَّما عاد إلى أفغانستان، أو ربَّما تسلَّل إلى العراق الَّذي كان قد انقلب عامئذٍ رأساً على عقب.

كان هو كلُّ ما تبقَّى لي بعد عيسى، وأمِّي، وخلود الَّتي ضاعت في بلاد النِّفط، لكنَّه هو أيضاً عاد ليضيع من بين يديّ.

(24)

أدمنت الخمر كما أدمنت الحزن.

السَّماء سقطت من علوِّها الشَّاهق على رأسي، وتكسَّرت، وما عاد بوسع أحد أن يلملم شظاياها، سقطتُ أنا، وسقطَتْ موسكو كأيِّ نيزك يهوي، ويتناثر، ويضيع في التُّراب.

سقط الحلم.

لا أريد من الحياة سوى أن أنام، وأنسى.

أريد أن أتقن النِّسيان، أريد أن أنسى الكفَّين وهما تتعانقان في الهواء، والدَّم يقطر منهما على البلاط، ويتجمَّع قطرة قطرة، فيصير جدولاً، ثمَّ نهراً، ثمَّ بحراً يغرق رأسي المليء بالخراء والمطارق والوجع.

أريد أن أنسى كفَّ عرفات... وكفَّ رابين! أريد أن أنسى ليلى، ووحيداً، وحليماً، ونضالاً، وميشيل، وعبد الكريم، أريد أن أنسى الجميع، أريد أن أنسى أُمِّي، وعيسى، وخلود، أريد أن أنسى نفسي!

كلُّ شيء ذهب أدراج الرِّيح.

كلُّ شيء ضاع، سال مع قطرات الدَّم الَّتي سقطت على البلاط، حين تعانقت الكفَّان.

هل انتصرنا؟

يسأل الظلُّ الحزين ويحتضر!

هل انتصرنا؟

أريد أن أهرب منِّي إلى أيِّ مكان في هذا الكون المجنون.

كيف يمكن لي أن أصدِّق أنِّي هُزمت؟ أنِّي هُزمت، أنِّي هُزمت، أنِّي هُزمت!

أعمل ساعات لا لكي أعيل نفسي، بل لكي أُوفِّر ثمن زجاجة الخمر الكفيلة بتهريبي من الواقع المهزوم، أدمنت الصَّمت، والقهر.

ألهث، أركض، أبكي، أتعب، أسقط، أنهض، أركض، أتعب، أسقط، أهوي، أهوي، أهوي، أفيق من نومي وكفِّي على عنقي.

أيُّ موت أخطأني؟ أيُّ موت؟ كلُّ الَّذين ماتوا فرُّوا من شعور الهزيمة المجنون.

منذ أن وُلدت وأنا لا أرى إلاّ الهزائم.

هل يمكن أن تكون الهزيمة قدراً محتوماً؟

صحوت من كابوسي، جرجرت قدميَّ نحو الباب، فتحته، كان خليل واقفاً خلفه، خليل نفسه، تماماً كما تركته آخر مرَّة في الجبل.

تعانقنا، كم كنت بحاجة إلى رجل مثله في تلك اللَّحظة الَّتي كانت تدور خارج إطار فلك الزَّمن.

كان قد تغيَّر هو الآخر، كلُّنا تغيَّرنا، كلُّنا أصبحنا نلبس وجوهاً غير وجوهنا محاولين أن نرى الواقع الجديد، ونتعايش معه بطريقة أو بأخرى.

أصبحنا الحرس القديم!

أنت الَّذي يرسم للقدر عينين ولسانا وشفتين، أنت الَّذي يعطي له الملامح، والشَّكل، ونحن سقطنا في بئر الهزيمة!

سألته عمَّا يدور هناك.

الحرب انتهت، النَّاس عادوا إلى عيتات، الجيوش انسحبت، المقاتلون عادوا كلٌّ إلى بلده، إلى صفره المتوحِّش، المخيف، المروِّع، أكثرهم عادوا إلى عمَّان، وبعضٌ منهم يهيِّئ نفسه الآن للعودة إلى

الضفَّة، وجورج عاد إلى أبيه، إلى تونس، وصار عضواً في اللَّجنة المكلَّفة بالتَّفاوض مع "إسرائيل"، انتهت الحرب، وضعت أوزارها، وهزمنا، لكنَّا لا نريد أبداً – كعادتنا – أن نعترف بهزيمتنا، كيف نحوِّل وجه الهزيمة إلى نصر مبتور؟ لماذا سمَّينا النَّكسة نكسة ولم نسمِّها باسمها، لماذا نفرُّ دائماً من التَّسمية الحقيقيَّة للأسماء، والأحداث؟ لماذا نتذرَّع بالأمل الكاذب؟ لماذا نعزِّي أنفسنا بكلمات خرقاء، وندَّعي النَّصرَ ونحن مهزومون؟

من يستطيع أن يفسِّر الصِّفر الَّذي اكتشفه العرب، ولماذا علينا دائماً حين نفتِّش عن بداية جديدة أن نعود إليه دون سواه؟ الصِّفر، هو أوَّل الموت، وأوَّل الحياة!

سأعيش في الماضي، وأفرُّ من الحاضر، لا لأنَّ الماضي مقدَّسٌ بل لأنَّ الحاضر مليء بالخراء الَّذي لا أستطيع أن أحتمل رائحته، وطعمه.

دمشق كانت ملاذنا الأخير.

الواقع أصبح بعيداً، ومغلقاً على نفسه.

كنَّا نبحث عن منفذ نحاول أن نخرج من خلاله من عنق الزُّجاجة الضَيِّق الَّذي كتم أنفاسنا.

الكلُّ ضاعوا، تغيَّر النَّاس، صدَّقوا وهم السَّلام، انقلبت المفاهيم، انتهت الحرب، وكلٌّ بات يبحث عن نفسه، عن موقعه، عن مكاسبه، كلٌّ دخل ماراثون البحث عن الذَّات، وأنا ضائع ووحيد.

كم أفتقد وحيداً!

لا أريد من الحياة سوى وجه واضح كالشَّمس، لا أريد شيئاً سوى أن أنسى أنِّي سعيد، بدأت أعتاد الحياة، ثمَّة من عرض عليَّ أن أقدِّم أوراقي لكي أعود إلى الضفَّة فرفضت، أقسمت ألاّ أعود.

كنت تائهاً، ضائعاً، كأيِّ دودة تدبُّ على الأرض بلا هدى، أبحث عن ذاتي الغريبة وسط النَّاس، فلا أجدها.

أدمنت الخمر، والحزن، والصَّمت، والجنون، والعُزلة.

من كان بوسعه أن يخرجني من الموت؟

"حين يصمت النَّاس، يصبح العالم بأمسِّ الحاجة إلى تصفيقك أنت، لماذا تصمت حين يصمتون؟ لماذا تصمت في الوقت الَّذي يكون العالم بأمسِّ الحاجة إلى تصفيقك أنت؟ لماذا تصمت؟ حين يسقط النَّاس، يصبح العالم بأمسِّ الحاجة إليك كي تمدَّ يدك لهم وترفعهم للأعلى.

الكون بحاجة دائماً إلى رجلٍ واحد، رجلٍ واحد هو الَّذي يغيِّر دائماً وجه الكون، هكذا، حين ملأت الظُّلمة الغابة ذات يوم وكان على النَّاس أن يعبروا الغابة إلى الطَّرف الآخر، وجدت رجلاً واحداً فقط مستعدَّاً للتَّضحية، نزع قلبه من بين ضلوعه وأنار به الطَّريق، وسار بهم حتَّى عبروا الغابة، ومات، ذلك الرَّجل هو دائماً أنا!".

هكذا كتب وحيد في دفتره الصَّغير بخطٍّ دقيق ذات يوم بعد خروجه من بيروت، قرأت ما خطَّت يداه فتذكَّرته، وبكيت...

أي وحيد، أين أنت؟

بكيته وأنا أتذكَّر نفسي.

كم سقطتُ في بئر الهزيمة! كم صمتُّ في بئر الهزيمة، كم صغُرت!

كيف يمكن لي أن أُصفِّق، كيف يمكن لي أن أخرج من بئر الهزيمة؟ كان عليَّ أن أجد طريقة في زمان الصَّمت والاستسلام والسُّقوط كي أقف على قدميَّ.

لكنَّ الدُّنيا كانت قد أغلقت أبوابها في وجه من هم مثلي، كان عليَّ أن أنتزع قلبي من بين ضلوعي وأسير به أمام النَّاس كي أُضيء الطَّريق، كيف؟ كنت أتساءل في زمن الرِّدَّة، زمن السُّقوط.

لم أكن أعرف يومئذ أن بيريز قلب الدُّنيا بحثاً عنِّي، ووظَّف آلاف المخبرين من الموساد للعثور عليَّ، لم أكن أعرف أنَّه اكتشف سرَّ علاقتي باللفافات، وندم أشدَّ النَّدم على موافقته على إدراجي ضمن تبادل الأسرى، ولم أكن أعرف آنذاك أيضاً أنَّني سأذهب إليه بعد أشهرٍ قليلة بقدميَّ.

كان قد أدرك بعد بحث طويل سرَّ إصرار المنظَّمة على إدراجي ضمن الصَّفقة أو إلغاء الصَّفقة كلِّها، كانت تلك هي الصَّفقة الوحيدة المشرِّفة الَّتي جرت ضمن شروط الفلسطينيِّين لا ضمن شروط "إسرائيل"، ضرب بكفِّه على جبينه، وأقسم على أن يعيدني إلى "إسرائيل" مهما كلَّف الأمر، لأنَّه اعتبر نفسه مسؤولاً بشكل شخصيٍّ عن خسارتي، وخسارة النِّصف الآخر من اللفافات الَّذي كان الجميع حينئذ يركضون خلفه لاهثين دون أن يجدوه.

جاء خليل عند الظُّهر، وأخبرني بزيارة بيريز المرتقبة إلى عمَّان، قال لي إنَّه عرف بالخبر من مصادر موثوق بها، وبدأنا بإعداد العدَّة لاغتيال بيريز، ذلك الاغتيال الَّذي كنَّا نظنُّ بأنَّه سيقوِّض العمليَّة السِّلميَّة بأكملها، وسيعيدنا إلى الحياة من جديد، فلم يعدني سوى إلى دوَّامة الموت، وماراثون العذاب الَّذي كنت قد أدمنته حتَّى النُّخاع.

هكذا إذن تعود الأقدار لكي تلتقي من جديد!

(25)

تفتَّحت أبوابٌ في عمق المرايا، الجدران الَّتي ظلَّت صمَّاء طوال شهور ولا أدري عددها، انفتحت فجأة لا أدري كيف، وخرج منها أربعة رجال مدجَّجين بالسِّلاح اقتادوني عبر دهليز طويل، ألبسوني ثيابي واقتادوني عبر ذات الدِّهليز.

الرِّجال الصَّامتون تماماً، اقتادوني إلى غرفة فارغة تماماً إلاّ من كرسيٍّ خشبيٍّ واحد، قيَّدوني إليه، وتركوني وحدي مع الجدران البيضاء.

هل أنا مجنون؟ كنت أتساءل وأنا أحدّق إلى الجدران البيضاء المتشابهة.

الأشياء تشابهت عليَّ: عصا موسى، وصبر أيُّوب، وخاتم سليمان، ودرع داوود، وأنا وبيريز، أحسُّ بمطرقة تدقُّ داخل رأسي، بألم حادٍّ، أحسُّ بأنِّي لست أنا، أحسُّ.... بأيِّ شيء أحسُّ؟ لا أدري، يتلاشى الإحساس فجأة وأشعر أنِّي في فراغ مبهم تماماً، وأنَّني عاجز عن التَّفكير.

من أنا؟

لا شيء إلا الانتظار.

من أنا؟

الجنون نعمة لا يدركها المجنون، ليس على المجنون حرج، وحده بوسعه أن يفعل كلَّ ما يريد بلا حسيب ولا رقيب، وحده بوسعه أن يخرج من هذا الواقع إلى أيِّ واقع يختار، بلا قيود، هل يشعر المجنون بالموت؟

من أنا؟

دخل رجلٌ بعد فترة من الوقت لا أعرفها، دخل كالرِّيح بطريقة لا تناسب سنَّه أبداً.

ابتسم، ورحَّب بي، ووقف قبالتي.

هذا الرَّجل لا يتعب، ولا يهدأ، ولا يملُّ، أذكر أنِّي رأيته ذات يومٍ في مكان ما، لكنِّي لا أذكر أين، ومتى؟

اعتذر بلباقة عمَّا سبَّبه لي من ألم وتعب وانتظار، ورحَّب بي في دولة "إسرائيل"، قال "دولة" وهو يشدُّ عليها ليؤكِّدها، وذكَّرني بلقائنا القديم، وصداقتنا، وعلاقتنا الَّتي لا يمكن أن تنفصم عراها لكنِّي لم أتذكَّر شيئاً مِمَّا قال.

أين أنا؟

قال: ستكون لكم فلسطينكم عمَّا قريب، ألا تسمع الأخبار؟

سألت: من أنت؟

قال: نكاد نصل إلى اتِّفاق مع عرفات، انسحبنا من غزَّة، ومن أريحا.

سألت: من أنت؟

قال: أعترفُ أنَّك ذكي، أذكى ممَّا توقَّعتُ، وأنَّك خدعتنا، وخدعت كلَّ العالم، حتَّى تنظيمك، أنت لست سهلاً كما اعتقدت حين تقابلنا أوَّل مرَّة، تساءلت طويلاً عن ذلك الاهتمام الغريب بك من قبل المنظَّمة، وإصرارهم على إدراج اسمك ضمن صفقة التَّبادل، لكنِّي لم أَصل حينها لجواب، كان ذلك إخفاقاً دفع الكثير من ضبَّاط الموساد ثمنه، دعنا نعقد صفقة كرجلين متحضِّرين، أنت تخبرني بمكان النِّصف الآخر من اللفافات، وأنا أخبرك بمكان أخيك عيسى.

سألت: من أنت؟

أيُّ قدر يختبئ خلف الباب؟ أيُّ شيطان يتلبَّسني؟ أيُّ جنون هذا الَّذي يملأ رأسي المثقوب؟

- هل تريد أن تعرف من هو عيسى؟
- عيسى؟
- دعنا نتفاوض كمتحضِّرين!
- متحضِّرين؟
- ألا تريدُ أن تعرف مكان عيسى؟
- عيسى؟
- أليس عيسى أخاك؟ ألم تبحث عنه طوال عمرك؟ لقد تقصَّيت كلَّ شيء عن حياتك، أعرف ما جرى لأمِّك في حيفا، وأعتذر عنه، تلك كانت حماقة جنديٍّ مندفع، فاقبل اعتذاري، بوسعي أن أَفضحه لكي يُقدَّمَ إلى محاكمة عادلة إن شئت!
- من يكون عيسى؟
- سأقول لك بشرط، أن تخبرني بمكان النِّصف الآخر من اللفافات، هل أخرجته من مكانه؟ أين أخفيته، هل بعته؟ سأدفع لك أضعاف ما دفعوه، سأعطيك كلَّ ما تريده، قل لي أين أخفيته....
- من يكون عيسى؟
- سأقول لك حين تخبرني بما أريد أن أعرفه.
- من يكون عيسى؟
- الحرب انتهت، وضعت أوزارها، وسنعيش معاً بسلام، ما عاد ثمَّة جدوى من الحرب، يكفي ما فقدنا، يكفي كلُّ هذا الموت، يكفي، سأعطيك بيتاً هنا في حيفا، مسقط رأس

أبيـك، سـأمنحك هُويَّـة، سأضـمُّك إلى أولئـك الَّـذين قـدَّموا خدمات جليلة لإسرائيل، أنت لا تدرك ما يتمتَّع به هـؤلاء، إنَّهم يعيشون في الجنَّة، صدِّقني، في الجنَّة، أين النِّصف الآخر من اللفافات؟

- من يكون عيسى؟
- أنـت لا تعرف مـا الَّذي بوسعي أن أفعله حين أغضب، أين النِّصف الآخر من اللفافات؟
- من يكون عيسى؟
- سأنزل بك ما لا يستطيع ربُّك أن ينزله بك من عذاب إن لم تخبرني بمكانها، كلُّ ما عشته وما رأيته لن يكون شيئاً مقارنة بما سأفعله بك، تكلَّم.
- من يكون عيسى؟

كانت الأسئلة تركض في رأسي كالخُيول، والخواطر تتدفَّق كالماء، من أنا؟... أنا، أنا، أنا، أنا..... وأين النِّصف الآخر، آخر، آخر، آخر؟ أين النِّصف الآخر، آخر، آخر، آخر؟ أين النِّصف الآخر، آخر، آخر آخر؟ هل أنا مجنون، نون، نون، نون، نون؟ من يكون عيسى؟ يسى، يسى، يسى، يسى، من يكون عيسى؟ يسى، يسى، يسى، يسى، من أنا؟ أنا، أنا، أنا، أنا.